سنان أنطون

فهرس

منشورات الجمل

رواية

سنان أنطون



رواية

منشورات الجمل

سنان أنطون: شاعر وروائي وأكاديمي ولد في بغداد عام ١٩٦٧. حصل على بكالوريوس في الأدب الإنكليزي من جامعة بغداد. هاجر بعد حرب الخليج ١٩٩١ إلى الولايات المتحدة حيث أكمل دراساته وحصل على الماجستير من جامعة جورجتاون عام ١٩٩٥، والدكتوراه في الأدب العربي من جامعة هارڤارد بامتياز عام ٢٠٠٦.

نشر روايته الأولى «**إعجام**» عام ٢٠٠٣ وتُرجمت إلى الإنكليزية والنرويجية والبرتغالية والألمانية والإيطالية . نشر روايته الثانية «**وحدها شجرة الرمان**» عام ٢٠١٠ وترجمت إلى الإنكليزية والفرنسية. نشر روايته الثالثة «**يا مريم**» عام ٢٠١٢. له مجموعتان شعريتان: «**موشور مبلل بالحروب**» (ميريت، القاهرة، ٢٠٠٤) و «**ليل واحد في كل المدن**» (دار الجمل، بيروت، ٢٠١٠). صدرت ترجمة لأشعاره بالإنكليزية عن دار هاربر ماونتن برس عام ٢٠٠٧ بعنوان *The Baghdad Blues*. وترجم شعره إلى الإيطالية والألمانية والتركية والإسبانية والهندية.

رُشِحَت ترجمته لقصائد محمود درويش لجائزة بين Pen للترجمة عام ٢٠٠٤. ترجم «**في حضرة الغياب**» لمحمود درويش إلى الإنكليزية (دار آرشيبيلاغو، ٢٠١١) وفازت الترجمة بجائزة أفضل ترجمة أدبية في الولايات المتحدة وكندا من جمعية المترجمين الأدبيين لذلك العام. كما ترجم مختارات من أشعار سعدي يوسف صدرت بعنوان «**أيهذا الحنين يا عدوي**» (دار غريوولف، ٢٠١٢). يعمل أستاذاً للأدب العربي في جامعة نيويورك منذ عام ٢٠٠٥. نشر العديد من المقالات والدراسات الأكاديمية عن الشعر العربي الحديث.

سنان أنطون: **فهرس**، رواية، الطبعة الأولى

تلفون وفاكس: ٢٥٣٣٠٤ ١ ٠٠٩٦١
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

Postfach 1127 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com

«وترك فيه بياضات كثيرة.»

عن كتاب «الفهرست» لابن النديم

«ينْطقُ عن الموتى ويُتَرْجِمُ كلامَ الأحياء.»

الجاحظ (عن الكتاب)

«كلُّ شَغَفٍ يُتاخِمُ الفَوضى، لكنّ شَغَفَ جامِعِ الكُتُبِ يُتاخِم فوضى الذاكرة.»

ڤالتر بنيامين

«الزمن هو المادة التي جُبِلْتُ منها. الزمن نهرٌ يجرفني معه، لكنّني الزمن. إنّه نمر يفترسني، لكنّني النمر. نارٌ تحرقني، لكنّني النار.»

«نحن ذاكرتنا، نحن ذلك المتحف الخيالي للأشكال المتحوّلة، تلك الكومة من المرايا المكسورة.»

بورخيس

بدايات

منطق الطير

لا زلت أذكر أولّ مرة طرتُ فيها.

«هيّا، لقد آن الأوان!» قالها أبي بحزم قبل أن يُحلّق بعيداً.

همستْ أمّي وهي تدفعني بمنقارها برفق نحو الحافة:

«لا تخف يا صغيري. ستطير. فكلنا نطير. سأكون وراءك.»

إخوتي الثلاثة يطيرون بفرح في السماء غير آبهين بي. خفق قلبي، كأنه هو أيضاً يخاف من أن يخونه جناحاه. كأنه حائر، مثلي، بين الرهبة التي كانت تسكُنني وتبقيني في العش، أو بالقرب منه. وبين الرغبة التي تجتاحني وتستدرجني لأكون كالكبار.

تقدّمتُ بحذر إلى حافة الغصن الذي تدلّى قليلاً من ثقلي وثقل أمي التي تبعتني هي الأخرى. لم أنظر إلى الأسفل، بل إلى الأعالي، حيث كان أبي يحوم في سماء صافية بلا غيوم. فردتُ جناحيّ ثم التفتُّ نحو أمّي. لم تقل شيئاً هذه المرة، لكن عينيها شجعتاني وقبّلت رأسي بمنقارها. وتذكّرتُ كيف قالتْ لي مراراً إنّ أجنحتنا قوية وإن جناحيّ سيحملانني ذات يوم إلى بلاد بعيدة. نظرتُ أمامي واستجمعت شجاعتي كلّها ورفرفتُ بقوة.

وطرتُ.

لم أصدّق نفسي. حلّقتُ بثبات كما لو أنني كنتُ قد طرت كثيراً من قبل. الهواء البارد يمسّد ريشي الأبيض. السماء كلها لي والأرض ملك عينيّ. بحركة خفيفة من جناحي أميل وأدور، أعلو وأهبط. ظللتُ أطير حتى ودّعتنا الشمس. كنت آخر من عاد يومها.

أضحكُ الآن، وأخجل أيضاً، عندما أذكر تلك اللحظة وذلك الخوف الذي غادرني بعدها. فهاأنذا اليوم أطير مع الكبار منذ أيّام في رحلتنا إلى بلاد الدفء.

* * *

سقطت قطرة عرق على حافة الورقة فتوقفتُ عن القراءة. خطّه أنيق وواثق. الحبر أسود، من قلم جاف ربما. حطّت الكلماتُ كطيور على أسطر بدت كأنها خيوط صغيرة سماوية اللون تمتد على ورق أسمر من الحجم الصغير. أفكّر بهذا لأنه يتحدّث عن السماء والتحليق. ذكّرني المقطع بعش اللقلق الذي كنت أراه في الشورجة على إحدى القباب عندما كنت صغيراً. قلبت الصفحة. عنوان المقطع الذي يلي هذا يبدأ بكلمة «منطق» أيضاً.

جهاز التبريد في الغرفة يلهث ويتلعثم ومسامات جلدي تبكي من الحرّ. مسحتُ قطرة العرق بسبّابتي ومسحت أخرى تدحرجت على جبيني وأوشكت على السقوط. تركتُ الأوراق على السرير بجنب الدفتر البصليّ اللون وقمتُ إلى جهاز التبريد وأدرت القرص عكس عقارب الساعة إلى آخر درجة. ذهبتُ إلى الحمام وغسلتُ وجهي بماء بارد. جففته بالمنشفة وعدتُ لأقف أمام جهاز التبريد لنصف دقيقة. فكّرت بالسفرة الطويلة المتعبة إلى عمّان. عليّ أن

أحزم حقيبتي وأنام قليلاً. فموعد الخروج من بغداد في السادسة صباحاً. عدتُ إلى السرير وأعدتُ قراءة رسالته للمرة الثانية.

الأستاذ نمير المحترم،

تحية طيبة وبعد،

أرجو أن تكون قد أمضيت يوماً مثمراً في أحضان بغدادك المتعبة. عذراً على التطفل والتجرّؤ على إزعاجك. لكنّني فكرتُ مليّاً بالصدفة الجميلة التي جمعتنا وباهتمامك الصادق بمشروعي وعرضك الكريم لترجمته (مع أنني لستُ مستعجلاً على الترجمة ولا حتى النشر، كما ذكرت لك، ليس الآن على الأقل). فقررت أن أغامر وأطمع بالمزيد من كرمك ولطفك. جلست أنتظرك في استعلامات الفندق حتى نصف ساعة قبل موعد حظر التجوّل لأسلّم هذا الجزء من المخطوطة لك شخصياً، لكنك لم تعد. ولهذا أخطّ هذه الرسالة. أرفق طياً الباب الأول (وهو تاريخ الدقيقة الأولى التي لم «تكتمل» نهائياً بعد، ولي رأي بخصوص اكتمال النصوص قد أخبرك عنه في المستقبل). أتمنى أن يروق لك وأرجو أن تعطيني رأيك بصراحة الناقد والأديب الأريب، حتى لو كان سلبياً.

تجد مع هذه الرسالة هدية بسيطة، فالكتب هي كل ما أملكه في هذه الدنيا، وأرجو قبولها. سأحاول الحصول على عنوان بريد إلكتروني لنتمكن من التواصل والتحاور عبر القارّات والمحيطات. شكراً مقدّماً واستميحك العذر ثانية إذا ما كنتُ فظّاً بعض الشيء في بداية لقائنا. فغالباً ما أفشل في تعاملي مع البشر وأفضّل الكتب، لأنها لا تجرح ولا تخون.

تقبّل خالص مودّتي

أخوكم

ودود عبد الكريم

بغداد

٢٩ تموز، ٢٠٠٣

ليس مهتماً بالترجمة ولا النشر. فلماذا إذاً يشاركني مخطوطته وبهذه السرعة؟ هل يهمّه رأي شخص غريب إلى هذه الدرجة؟ غريب هذا الودود. طويت الرسالة ووضعتها في الدفتر الذي كنت قد اشتريته خصيصاً لأدوّن انطباعاتي عن هذه الزيارة. أوراقه كبيرة الحجم تميل إلى السمرة. خيطت وشذّبت حوافها بشكل غير متساو كي تشبه الكتب القديمة. الغلاف سميك من الورق المقوّى يغطيه جلد بلون بصليّ. مع شريط رقيق أحمر اللون ينبع من أعلى العمود الفقري للكتاب يوضع على آخر صفحة كُتِبَت. وهاهو الشريط لم يزل على الصفحة الأولى التي لم أكتب عليها سوى كلمة واحدة منذ قدومي: «بغداد.»

حسدت ودوداً على غزارته. أنا لا أستطيع أن أبدأ. وكل هذا الاهتمام، بل الهوس، بطقوس الكتابة وأدواتها، لا يؤدي في النهاية، إلا إلى البياض والصمت. لا شك أن هذه الزيارة كانت مرتبكة وسريعة وأن إيقاع العمل والتجوال اليومي أنهكاني جسدياً ونفسياً ولم يتركا وقتاً للكتابة أو حتى التفكير بهدوء. كما أنني لم أبدأ بعد بالتعامل مع طوفان المشاهد والأشخاص والمشاعر الملتبسة. مع ذلك كان يجب أن أكتب شيئاً ما. جملة واحدة على الأقل. كل ليلة أعود متعباً وأجلس على السرير. أمسك بالقلم ولا أنجح في كتابة أي شيء. الليلة الأولى هي الوحيدة التي كتبت فيها كلمة واحدة: «بغداد.»

عدت للتفكير بمخطوطته وهديته، التي لم تكن بسيطة البتّة. صحيح أنّها ليست الطبعة الأولى، بل الثانية، من الجزء الأول من ديوان عبّود الكرخي، لكنها تعود لعام ١٩٥٦ وأعتقد أنّها نادرة. الكتاب بحالة ممتازة. قلّبت الصفحات الأولى. هناك إهداء إلى

الملك غازي وصورة له في الصفحة التالية، ثم صورة لعبّود الكرخي. مقدمة الديوان تزدحم بمقدمات أخرى: مقطوعة للرصافي بعنوان «إلى شاعر الأمّة» «لله درّك يا عبّود من رجلٍ/ يا رافعاً في القوافي راية الزجل» وأخرى للزهاوي. ثم كلمة لروفائيل بطّي عن «العاميّة في الشعر والنثر» وأخرى للرصافي «الزجل وأدبيّات العوام» وواحدة أخيرة لمحمد بهجة الأثري عن «العامية والفصحى».
وصلت أخيراً إلى القصائد وكما توقعت كانت «المجرشة»، قصيدته الأشهر، تتصدّر الديوان. نمت قبل أن أكمل نصفها. ورأيت في نومي أن الكرخي هو السائق الذي أوصلنا إلى عمّان. أمضى الطريق كلّه يلقي قصائده ويشرح مناسباتها وسياقها لكن روي ظلّ يلح ويطلب منّي أن أترجمها وأنا أعنفّه قائلاً: إن الشعر لا يترجم هكذا. نحن لسنا في مؤتمر صحفي! وظللت أردد: «ساعة واكسر المجرشة/ وألعن أبو هالعيشة.» والكرخي يقهقه ويقول لي: «شورّطك ويّاهم؟»

استيقظت على طرقات قوية على باب غرفتي وصوت روي يقول:

«هيا يا نمير. يجب أن ننطلق خلال نصف ساعة. ألا تريد أن تفطر؟»

استحممت بسرعة قياسية وارتديت ملابسي على عجل ودحشت بقية ملابسي وأغراضي في الحقيبة. لم أكن قد اشتريت شيئاً باستثناء الكتب من المتنبّي وكان في الحقيبة متّسع لها ولعلبة «الكليچة» التي أعطتني إياها عمّتي. وضعت مظروف ودود ودفتري وديوان الكرخي مع الجواز في الحقيبة التي أحملها خلف ظهري. أكره أن أتأخر عن الركب وعن أي موعد لكن كان لإسراعي سبب آخر، أهم بكثير.

أردت أن أتلذذ، مرّة أخيرة، بالگيمر الأصلي والصمّون الحار الذي يأتي طازجاً كل صباح من فرن قريب من الفندق الصغير في الكرادة. عندما نزلت إلى الطابق الأرضي كان روي يراجع الفاتورة مع موظف الاستعلامات الذي كان يتكلم ما يكفي من الانكليزية ليتفاهما (مللت من الترجمة!). مع ذلك سألتُه: «هل تحتاج إلى مساعدة؟» «كلا، كل شيء على ما يرام. ولديك بعض الوقت لأن لورا ما زالت تحزم حقيبتها. وبحاجة إلى عشرين دقيقة. كما أن السائق لم يصل بعد»

وضعتُ حقيبتي إلى جانب حقيبة روي الكبيرة بالقرب من الباب الرئيسي وذهبت إلى مطعم الفندق الذي كان عبارة عن غرفة صغيرة فيها أربع طاولات يؤدي بابها الآخر إلى المطبخ. شاهدني النادل، عبد، من داخل المطبخ وتبادلنا التحية. جلست إلى طاولة على اليمين وقلبت الكوب وأخذت كيس شاي «ليپتون» من الصحن الذي كان في وسط الطاولة ووضعته في الكوب. لو أن الشاي كان «حقيقياً» من قوري ومعطّراً بالهال لكان الفطور مثالياً. ابتعدت عن شرب الشاي في أمريكا، خصوصاً بعد أن تركت بيت أهلي وتحوّلت إلى القهوة. بعدها بدقيقتين جاء عبد يحمل صينيّة عليها صحن صغير مليء بالگيمر وآخر عليه دبس وسلّة بلاستيكيّة زرقاء تحتضن صمّونتين ووضعها على الطاولة أمامي. ثم عاد إلى المطبخ ليأتي بالماء الساخن للشاي. كان قليل الكلام، باستثناء أول يوم تناولنا فيه طعام الفطور قبل أسبوع. سألني يومها عن رفاق سفري «ألعفو أستاذ، الجماعة اللي وياك شنو قصّتهم؟» «هذولة متزوجين وجايين يصورون فلم وثائقي.» «والله؟ إي قبل شهر چان أكو جماعة فرنسيين نازلين هنا هم يسوّون أفلام. زين وحضرتك هم

مخرج؟» «لا، آني بس جاي وياهم أترجملهم وأساعدهم.» «حضرتك ساكن برّا؟» «إي» «وين؟» «أمريكا» «شگد صارلك طالع؟» «من الـ ٩٣.» سألته عن عمله «صار لي أربع سنين بهالفندق. بيتنا بكمب سارة بس هاي آخر چم شهر بعد السقوط ما أروح إلا مرة بالأسبوع. أنام هنا.» لم نتحادث بعدها لانشغاله بعمله ولأننا، روي وأنا ولورا، كنا نناقش جدول اليوم والأماكن التي سنذهب إليها للتصوير أثناء تناول الفطور. سألني وهو يصب الماء الساخن في الكوب: «شِكِلْكُم مسافرين اليوم أستاذ؟» «إي والله» «توصلون بالسلامة إن شالله. بيا مدينة ساكن حضرتك؟» «بوسطن» ثم أضفت لكي أكون دقيقاً «بس راح أتحوّل بعد أسبوع لولاية اسمها نيو هامپشير» «ما سامع بيها والله» «على حدود كندا. باردة كلّش.» «البرد أهون من هالحرّ. شتسوي هناك؟» «حصّلت وظيفة بجامعة.» «مبروك، موفّق إن شالله.» كنت أتوقّع أن يسألني عن اختصاصي لكن صوتاً ناداه من المطبخ فقال بأدب: «من رخصتك أستاذ.»

وضعت ملعقتيْ سكر في كوب الشاي وحرّكته وأخذت رشفة كادت تحرق لساني فأعدته إلى مكانه. أخذت صمونة وفتحت جانبها ورصفت الگيمر في باطنها وأضفت ملعقتين من الدبس. لم يعد عبد. أكلت ببطء لأتلذذ بآخر فطور. تذوقت الگيمر في أمريكا أثناء زيارة لمدينة سان دييغو التي يسكن فيها الكثير من العراقيين. لكن طعمه هنا يختلف. ويذّكرني بگيمر أم جليل التي كانت تضع الصحن على دكّة بيتنا في الصباح الباكر. تذكّرت كيف مرّغت قطة سائبة أنفها في القيمر ذات صباح وأخذت حصتها منه. أما تزال أم جليل حيّة؟ تمعنت في اللوحة اليتيمة المعلقة على الجدار المقابل.

محاولة لرسم زقاق بغدادي تقليدي. نساء بالعباءات يحملن العلّاقات. في الخلفيّة قبّة جامع ومنارة ومنظر غروب. الألوان فاقعة وهناك تخبّط غير مقصود في المنظور وتناسب الكتل. محاولة لإنتاج أصالة محليّة لكنها تقع في فخاخ الاستشراق الذاتي. وبّخت نفسي بصمت على لغتي والإفراط في التحليل. هاأنذا أفكّر كأستاذ جامعي حتى قبل أن أبدأ مزاولة مهنتي رسميّاً. كنت قد شاهدت الكثير من هذه اللوحات تباع في المدينة للصحفيّين والقادمين الجدد. تذكّرت أن رئيس القسم طلب منّي في رسالة إلكترونيّة أن أقرّر المادة التي أنوي تدريسها، بالإضافة إلى دروس اللغة العربية، كي تضاف إلى المنهاج وعليّ أن أقرر بسرعة. الأستاذة التي شغلت المنصب قبلي كانت تدرّس صفّاً عن الأدب الأندلسي واقترح رئيس القسم أن أدرّسه أنا ويمكن أن أقترح مادة جديدة في العام القادم. ليس لديّ ما يكفي من الوقت للتحضير لمادة جديدة وسيكون الأدب الأندلسي فرصة للتقليل من أسئلة الإرهاب والجهاد التي تغزو كل محاضرة ودرس!

بدأتُ طقوس إعداد لفّة ثانية لكن صوت روي هتف من الاستعلامات «هيّا يا نمير. لورا مستعدة والسائق ينتظر.» أكملت اللفّة بسرعة و غلّفتها بمناديل ورقية كانت على الطاولة ووضعتها في أحد جيوب حقيبة الظهر وشربت كوب الشاي الذي خفّت حرارته.

لم يكن الملّا عبّود الكرخي في مقعد السائق، بل أبو العارف، السائق الأردني الذي رافقنا طوال الزيارة والذي يعمل على خط عمّان-بغداد ويعرف الأخيرة جيداً. روي ولورا جلسا في المقعد الأول الذي يلي السائق واحتللت أنا المقعد الأخير الذي يسمح لي بالتمدد والنوم.

بغداد ما تزال تتثاءب بتعب. معظم محلاتها مغمضة الأعين. بعض المارّة يمشون على الأرصفة، لكن الشوارع شبه فارغة. تمر بنا سيّارة بين حين وآخر. والدبابات والمدرّعات الأمريكية جاثمة في التقاطعات. لمحت عبارة US Army Go Home مكتوبة بصبغ أحمر على أحد الجدران. أنا الذي سيعود إلى البلد الذي جاء منه الـ «يو إس آرمي» ويبدو أنه سيبقى. أعود إلى البلد الذي لم يصبح «هوم» حتى بعد عقد كامل. كنت قد قرأت عبارات شكر للأمريكان على جدران أخرى أحزنتني. أردت أن أرى دجلة وأودّعه. لا أعرف متى سأعود ثانية، أو إن كنت سأعود هنا. كم بدا دجلة شاحباً في هذه الزيارة. لم يعد يشبه صورته في ذاكرتي. لكن هل ظل شيء هنا يشبه صورته في ذاكرتي؟ لا شيء نجح في الهروب من الشحوب. أحد المطيّرچية كان قد استيقظ مبكراً ليطلق سربه ويراقب حمائمه تحلّق في سماء المدينة. وخيّل إلي أن تحليق السرب اقترح إجابة على تساؤلي يرفرف منها فرح بسيط. فالحمائم لم تزل كما كانت؛ جميلة وحرّة.   حرّة في هذه اللحظة العابرة على الأقل.

ذكرتني الحمائم باللقلق في مخطوطة ودود. وفكّرت بقدومه إلى الفندق وتركه المخطوطة لي. بدت لي الآن حركة غريبة بعض الشيء ومتهوّرة. أم أنني أبالغ و أقسو؟ ألم أطلب منه أن يراسلني ويتّصل بي وأعرض مساعدتي؟ عودتي الخاطفة مع هذين الأمريكيين غريبة ومتهورة أيضاً. هل جئت لأستعيد شيئاً ما أم لأتأكد من ضياعه؟ ألم أكن أضيق بهذه المدينة وأستعجل السفر؟ فهل عدت لتفقّد الجراح التي تركتها ورائي أم ماذا؟ أريد أن أكمل قراءة المخطوطة، لكن ليس الآن لأنني منهك ونعسان. فيما بعد. فالطريق إلى عمّان طويل.

أفقت بعد حوالي ساعتين لأجد الصحراء تملأ جانبيْ الطريق. سألت السائق عن موقعنا فقال: «عبرنا الرمادي قبل ساعة. الجماعة نايمين كمان.» نظرت إليهما. رأس لورا في حضن روي ورأسه هو يستند على حقيبته اليدوية الصغيرة التي استعملها كوسادة. سألته: «ما وگّفونا عالطريق؟» «لا، بس أوّل نقطة عند أبو غريب.» «وشگد بعد عالحدود؟» «عندك الرطبة بعد ساعة ونص. ووراها بساعة تقريباً نوصل الحدود». صمت ثم قال وهو ينظر إليّ في المرآة العريضة وعلى وجهه نصف ابتسامة: «شو؟ لهالدرجة مستعجل تترك العراق أستاذ نمير؟» كان ينتهز كل فرصة لتمرير تعليقات مشاكسة وخبيثة. تجادلت معه مرّتين بحدة وارتفع صوتي لدرجة أقلقت روي. وواجهته في إحداها وقلت له «أنت تحب صدّام.» فراوغ قائلاً «لا، بس أنا مش مع الأمريكان» فرددت عليه: «ليش آني ويه الأمريكان؟» ثم قررت ألا فائدة ترتجى من التجادل معه. «لا يا أبو العارف. حرام عليك. صعد مرّة وياك راكب وما سأل شوكت نوصل ووين إحنا؟» ضحك «بمزح معك.» كنت سأقول له إنّي اشتقت إلى نفسي و إلى أن أكون بمفردي. وتعبت من ترجمة كل ما يقال. كنت قد أمضيت ستة أيام كاملة معهم: روي ولورا وأبو العارف نفسه. من الصباح الباكر إلى المغرب نلف وندور للمقابلات والتصوير. مع أنهما لطيفان والعمل معهما سهل لكن ستة أيام تكفي. أمس كان اليوم الوحيد الذي تحرّكت فيه بحريّة وتنفّست. أخذهما أبو العارف إلى شارع النهر وسوق الصفافير لشراء هدايا والتجوّل في الأسواق وتناول المسگوف بعدها. وذهبت أنا إلى المتنبّي للتجول وشراء الكتب. وذهبت بعدها إلى بيتنا ثم إلى بيت عمّتي التي كانت قد أعدّت لي وجبة دولمة وعزمت

الأقرباء لكي أراهم. ألحّت عليّ أن أدعو «جماعتك الأمريكان اللي دتصوّر وياهم» لكنني قلت لها إنني أفضّل أن آتي لوحدي «عمّة، هذوله ما يحچون عربي وإذا يجون لازم أگعد أترجملهم وما راح أتونس وياكم. بعدين همّه مشغولين باچر.» «بكيفك بعد. زين إنت تتذكّر بيتنا؟ تِنْدَلْ تجي بوحدك؟» «طبعاً؟ هاي شنو؟» كنت أذهب هناك في الصيف في طفولتي وألعب مع أولاد عمّتي وأبات عندهم لأيّام.

مشيت قليلاً ثم أخذت سيارة أجرة من ساحة الرصافي إلى بيتنا في الأمين الأولى التي صار اسمها فيما بعد «حي الخليج.» أردت أن ألقي نظرة عليه وأن أسلّم على من تبقّى من جيراننا. حين أوشكنا على الاقتراب من جسر الأمين طلبت من السائق ألا يعبره إلى الجهة الأخرى من القناة لأن الشارع المؤدي إلى البيت كان على اليمين مباشرة. أبطأت السيارات وشاهدنا ازدحاماً أمام الشارع الذي يؤدي إلى منطقتنا وبعض السيارات تدور وتعود بالاتجاه المعاكس. كان هناك عدد من الهمرات وجنود أمريكان يشيرون إلى السيارات بالعودة. أنزل السائق الزجاج وصرخ بسائق إحدى السيارات التي كانت تعود «أخوي شنو القصة؟ شكو؟» فأجابه «مسدود الطريق. ما يخلّون أحد يدخل» نظر إلي وهو يتأفّف فقلت له «آني أندلّ طريق لاخ. نگدر نرجع وندخل من يم المحكمة وبالفروع.» «أكيد؟» «إي» أدار السيارة وعدنا ودخلنا إلى شارع المحكمة ودرنا حول الفلكة وأخذنا أحد الشوارع المؤدية إلى شارعنا لكننا رأينا سيّارة همر تقف في نهاية الشارع. سألتُ رجلاً كان يقف خارج بيته مع طفل «الله يساعدك. شنو القصّة؟» «صار ساعة مطوقين هذيچ المنطقة.» فكّرت أن أنزل من سيّارة الأجرة

وأذهب مشياً فسألته «يخلون مشاة يدخلون؟» فهزّ رأسه وقال «لا، لا مشاة ولا سيارات.» كان السائق ينظر إليّ بانتظار أن أعطيه الأجرة، فسألته «تگدر توصلني لساحة بيروت؟» فوافق. شعرت بغصّة. أردت أن ألقي نظرة على البيت والشارع الذي لعبت فيه وركضت. ظننت أنّني سأطرق أبواب الجيران وأسأل عن أصدقاء الطفولة. سائق الأجرة ظلّ صامتاً طوال الطريق.

مسحت عرقي بمنديل كنت أحمله بعدما أنزلني أمام بيت عمّتي. رأيت ثلاث سيارات تقف على الرصيف. كبست زر الجرس الخارجي ثم دفعت الباب الحديدي الذي علاه بعض الصدأ وتقشّر صبغه الأبيض. الحديقة ليست بنضارتها المعهودة. كان زوج عمّتي الذي توفي قبل ثلاث أو أربع سنوات يعتبر حديقته أرضاً مقدّسة. لاحظتُ أنهم أضافوا غرفاً إلى الطابق الثاني. هناك مدخل منفصل مع درج. خرجت عمّتي من الباب الرئيسي وبدأت تهلهل. وجهها كما هو باستثناء التجاعيد. لكن شعرها اختبأ معظمه تحت حجاب أسود لم تكن ترتديه قبل أن أهجر بغداد. وخرج، وئام، ابنها الكبير وراءها، والذي عرفت فيما بعد أنه يسكن مع زوجته وأطفاله في الطابق الثاني. بكت وهي تحتضنني وتقبلني وبدأت بالعتاب طبعاً «مو عيب عليك صار لك اسبوع هنا وما تجي إلا بآخر يوم. صار عشر سنين ما شايفيك؟ ما تحب عمتك بعد يا سرسري.» قال لها وئام «الرجال صار دكتور وبعدچ تسمّيه سرسري؟» قلت له وأنا أقبّله «بعد ما صرت دكتور. الأطروحة ما كِمْلَت بعد.» فضحك قائلاً «دكتور إلا ربع» كان البقيّة ينتظرون في الداخل: أولاد عمّتي وعمّي وزوجته وأولاده وزوجاتهم وأطفالهم. سلّمت عليهم واحداً واحداً وحاولت أن أحفظ أسماء الأطفال

وأولئك الذين لم أكن قد قابلتهم فيما مضى. أما الكبار الذين كنت أعرفهم من قبل فبدا وكأن الزمن قد سحقهم بعرباته الثقيلة. كأن السنين العشر مرت عليهم أكثر من مرة، رواحاً ومجيئاً. وتجرّعوا كميّات هائلة من الألم.

ما كدت أجلس حتّى سألتني عمّتي «ليش ما تظل عدنا چم يوم يا عيني؟» «مع الأسف، لازم أرجع باچر لعمّان.» «يعني مايصير تأجّل السفر چم يوم؟» «لا عمّة لازم أرجع. ورايا كومة مسؤوليات. لازم أتحول لولاية جديدة وأتحضّر للتدريس.» حين اتصلت بها قبل ثلاثة أيام لأخبرها أنني في بغداد. أرادتني أن أترك الفندق وأنام في بيتها. «مو عيب تجي لبغداد وتگعد بفندق؟ جيب جماعتك الأمريكان ينامون عدنا. نسويلهم مكان. هلا بيهم.» قلت لها إن برنامج التصوير لا يسمح ولا بد من شحن بطاريّات الأجهزة كل ليلة وعلينا أن نكون في مكان لا تنقطع عنه الكهرباء. فقالت: «عدنا مولّدة عيني.»

عمّي، الذي كان مهندساً متقاعداً، هو الوحيد الذي سألني عن أطروحتي وعن العمل الأكاديمي المرتقب. أمطرني الآخرون بأسئلة عن أمريكا والحياة فيها وعمّا سيحدث في العراق في المستقبل. وكأنني أعرف أو أنني على اتصال مباشر مع بوش. ومثل كل الذين ترجمت كلامهم على الكاميرا في الأيام الستة الماضية، كان أقربائي منقسمين بخصوص ما حدث ولم يكن هناك إجماع حتى على التسميّات: احتلال أم تحرير. ودار جدال حاد بين الرجال عندما كانت عمّتي تشرف على إعداد الطاولة. التفت أحد أولاد عمّي ليسألني عن رأيي. ولم يعجبه ما قلته فسأل «يعني إنت هم طلعت وياهم تظاهرات ضد الحرب؟» «طبعاً» فضحك وقال بسخريّة

«إنت بطران عيني. أصلاً إنت لو چنت عايش هنا ويّانا كل هاي السنين، حتى لو ييجي عزرائيل يحرّرك هم تقبل بيه.» قلت له: «أمريكا هي الوكيل الرسمي مال عزرائيل» فقال بصوت عال «لا بالله! لعد ليش عايش هناك؟» وبّخه أبوه «كافي! طوّختها.» صاحت عمّتي من غرفة الخطّار «كافي طلايب واتفضلوا عالأكل».

سألتها عن الحبوب التي رأيتها تضعها في سرّاحيّة الماء فقالت إنها للتعقيم لأن الماء يسبب الإسهال. أكثرت من وضع قطع الدولمة في صحني، وبالذات قطع البصل المحشي لأنها تعرف كم أحبّه وهي تقول: «أكو هيچي أكل بأمريكا؟» فقلت: «وين آني ساكن ماكو مطاعم عراقية». «وعايش زگورتي كل هالسنين ليش ما تعلّمت تطبخ؟» «أطبخ مرّات بس مو دولمة».

بعد الغداء عدنا إلى غرفة الجلوس. شعرت بتعب شديد وبثقل جفنيّ وأنا أتظاهر بمتابعة الحوار على إيقاع استكانات الشاي وصوت شربه. وأنقذتني عمّتي بأن عرضت علي أن آخذ قيلولة على كنبة غرفة الضيوف تحت فتحة المبرّدة «وين ما چنت تنام بالصيف لما چنت تجي هنا. تتذكّر؟» ابتسمتُ «طبعاً أتذكّر. يا ريت.» خلعت حذائي وجوربيّ ووضعت رأسي على الوسادة التي جاءت لي بها ونمت لساعة ونصف. استيقظت بعدها وغسّلت وجهي وعدت إلى غرفة الجلوس. دردشنا كثيراً وشربنا الشاي مرة أخرى، مع الكليچة التي أعدتها عمّتي خصيصاً لي وأعطتني علبة مليئة لآخذها معي.

قبل أن أودعهم سحبتني عمّتي من ذراعي وطلبت أن تحادثني على انفراد. وحين انفردت بي وبّختني لأنني قاطعت أبي ولم أتكلّم معه منذ سنوات. سألتها إن كانت تعرف السبب وما فعله بأمّي. فقالت «ما يخالف، مهما يكون يظل أبوك. كبّر عقلك وگلبك ولا

تكسر گلبه. بداعتي نمير. الله يخلّيك، من ترجع تحچي وياه.» لم أشأ أن أخيّب ظنها فوعدتها أن أفكّر بالموضوع. وكانت هذه كذبة بيضاء، مثل وعدي بأن أعود قريباً في زيارة أطول بلا عمل أو التزامات. حرصتُ على أن ترش الماء ورائي كي أعود. أوصلني ابن عمّي، مدحت، إلى الفندق وأعطاني رقمه وعنوان بريده الإلكتروني قبل أن نتوادع. كان الباب الخارجي مقفلاً لكن الحارس عرفني وفتح لي الباب. سلّمت على موظف الاستعلامات الذي كان يشاهد التلفزيون في الغرفة المجاورة للاستعلامات فهتف قائلاً: «أبو الشباب. أكو ظرف إلك» قام من كرسيه وجاء إلى واجهة الاستعلامات وانحنى يبحث عن شيء ثم سلمني المظروف الأسمر: «صديقك ودود. انتظر هنا ساعة ونص وبعدين راح وطلب أسلمك هاي الأمانة». فوجئت. شكرته وأخذت المظروف وصعدت إلى الغرفة.

* * *

ديباجة (مسودة)

كيف يمكن أن أكتب ما جرى؟

(قضّت هذه الـ «كيف» مضجعي لسنين طويلة). وكيف يمكن لما أدوّنه أن يفلت من شِراك الزيف ومن هيمنة التاريخ الرسمي؟ أعلم أن في الأمر مفارقة وغرابة. فهل يعقل أن أبدأ بالخوف من مصير ما سأكتبه قبل أن ينزف القلم حبره على الورق؟ هناك مثل إفريقي رائع في رواية شينوا آشيبي «الأشياء تتداعى» يقول «سيظل تاريخ الصيد يمجّد الصيادين حتى يجيء اليوم الذي يكون فيه للأسود مؤرخون.» ليست الفكرة جديدة، بالطبع، لكن الاستعارة

رائعة. فالمنتصر هو من يدوّن التاريخ دائماً. وعندما يأتي من يريد أن يراجع ويشكّك ويغيّر سيكون الأوان قد فات. لكن ماذا عن تاريخ الضحيّة؟ بل ضحيّة الضحيّة. وهذا ما يهمّني. أوّل مرّة قرأت فيها هذا المثل تعاطفت مع الأسد، بالطبع. لكنني فكرتُ مليّاً بالأمر وراجعت نفسي لأكتشف، بل أتذكّر، أنني لا بد أن أتضامن مع ضحيّة الأسد. وتخيّلتُ، بل شعرتُ، أنني أتقمّص الغزال (أو أي فريسة) في هذه المعادلة لأنه يمثلني وأنا أمثّله. بل أشعر أنني هو. أنا المهمّش والمغيّب مرتيْن على الأقل. أنا فريسة الفريسة. أما الأرقام فلا تفي بالغرض. قد تحصينا الإحصائيّات ولكنها تختزل حيواتنا وميتاتنا في أحسن الأحوال. وتجرّدنا من إنسانيتنا. هذا إن كان هناك من يحصي أصلاً. فمؤرخو الصيد يحصون عدد الصيّادين الميتين! الأرقام تحوّلنا نحن إلى أرقام مثلها. علامات ورموز ميتة في دراسات مقارنة هدفها تحسين الصيد وجعله أكثر كفاءة. فتختفي تفاصيلنا وتقاطيعنا وألواننا وأصواتنا وذاكراتنا وجلودنا وأعيننا و و و. قد تعلّق جلودنا بعد أن تسلخ وتُدبَغ على جدران بيوت الصيادين. أو تعلّق صورهم على جدران متاحفهم وهم يقفون بجانب جثثنا احتفالاً برقم قياسي جديد.

ولكن من أين أبدأ وكيف؟ هل يمكن أن أدخل إلى الزمن من ثغرة فيه أو من شباك لحظة من لحظاته؟ أنا أؤمن بهذا. وحالما دخلت فيه يمكنني أن آخذ اللحظة وأحللها كما لو أنها دمعة أو قطرة دم تحت المجهر وأكتشف العلاقات والتفاعلات التي تنتجها. لكن كيف أصف اللحظة وهي ليست لحظة، بل هي أشبه بشجرة؟ فعليّ أن أمر على جذورها وأن أصغي إلى حوار الأرض معها وما ترضعه منها. ثم جذعها وكل من اتكأ عليه أو حفر اسمه.

والأغصان وذاكرتها وما حملته الريح ونثرته بعيداً. وكل الطيور التي حطّت عليها وهي في طريقها إلى البعيد. وتلك التي عششت و و و... إنها متاهة. وعن أي لحظة بالذات نتحدّث؟ هل اللحظة هي ذاتها في كل مكان؟ أم أن كل لحظة مرتبطة بمكانها في هذا الكون؟ إذا كان الاحتمال الأخير هو الصحيح فهناك أكثر من زمن واحد. هناك أزمنة قد تتقاطع مع بعضها البعض لكنها لا تتطابق أبداً. لكنني معنيّ في هذا المشروع بزمن واحد في مكان واحد. سأدوّن، أولاً، تاريخ الدقيقة الأولى من حرب ليست الأولى. معظم من يتصدّون للتاريخ يؤرخون القرون والعقود والسنين. أنا معني بالدقائق، وبالدقيقة الأولى بالذات.

ستكون الدقيقة فضاءً ثلاثيّ الأبعاد. ستكون مكاناً أقتنص فيه الأشياء والأرواح وهي تسافر. التقاطع الذي تلتقي فيه قبل أن تختفي إلى الأبد، بلا وداع. البشر يودّعون معارفهم وأحبتهم فقط. أما الأشياء فهي تودع بعضها البعض ولكنها تودّع البشر أيضاً. لكنّنا قلما نسمع أصواتها وهمساتها لأنّنا لا نحاول. قلّما نلمح ابتسامات الأشياء. نعم، الأشياء، أيضاً، لها وجوه. لكننا لا نراها، ومن يراها بعد أن يعاني ويدرّب نفسه كي يفعل ذلك ومن يحاورها يصبح مجنوناً في عرفكم.

إنّي أنا الذي رأى كلّ شيء. وأرى ما لا يرون.

هناك دائماً لحظة في حياة كل كائن وكل شيء تظهر فيها حقيقته كلّها. لحظة يتقاطع فيها الماضي مع المستقبل. ويمكن لمن يرى ويصغي أن يبصر حقيقة ذلك الكائن. لا شك أنك تشاهد أحياناً صورة فوتوغرافية لشخص مشهور، أو حتى إنسان عادي. وتدرك أن تلك الصورة/ اللحظة تختزن وجود الشخص وتاريخه بأكمله. لست

متأكداً، لكن الكثير من هذه اللحظات المكتنزة تجيء قبيل الموت. أدرك بأنني أناقض نفسي أحياناً! هل هنالك مفرّ من هذا؟

الزمن ثقب أسود. حفرة تقع فيها الأشياء وتختفي. حتى بداية كل هذا الوجود، بحسب إحدى النظريات، كانت انفجاراً. وليس الوجود إلا شظايا وأشلاء. وها نحن نعيش تبعاته وآثاره. وأنا سأنتشل هذه الدقيقة من الثقب الأسود. لكن لماذا؟ هناك من يكتب ليغير الحاضر أو المستقبل. أما أنا فأحلم بتغيير الماضي. هذا منطقي ومنطق فهرسي.

* * *

أعجبتني ديباجته وفكرة تاريخ الفريسة وفهرس الدقيقة. هذه أفكار بريّة لا تهاب المخاطرة. يمكنه أن يستفيض أكثر بالطبع ويعتني بترتيب تسلسل الأفكار. دوّنت بعض ملاحظاتي في الدفتر. واصلت القراءة ونحن ننتظر في «طريبيل» ثم بعدها ونحن ننتظر في مركز الكرامة على الجانب الأردني. وخطرت لي فكرة كتابة رواية عن ودود وعن مشروعه. ويمكن أن يكون هناك تناص مع فهرسه واقتباس لمقاطع منه. لم لا؟ لكن لا بد أن أعرف المزيد عن تاريخه وحياته. وبّخت نفسي على انجرافي وتحمّسي لفكرة رائعة ولكنها غير عمليّة البتة (ومتى كان الرائع عملياً؟). فعليّ أن أكمل أطروحة الدكتوراه لكي أتثبّت في وظيفتي وعليّ أن أحولها إلى كتاب أكاديمي، وبعدها يمكن أن أتفرّغ للروايات. هذا هو المنطق. لكنه ليس منطقي أنا.

* * *

أوصلني أبو العارف إلى المطار لأن موعد طائرتي كان بعد ثلاث ساعات. أما روي ولورا فكانا ينويان البقاء في عمّان وزيارة البتراء ووادي رم «نحتاج إلى إجازة بعد كل هذا الضغط» It was so intense هذا ما قالته لورا التي كانت تكثر من استخدام لوصف الأمور التي تستحق وحتى التي لا تستحق. تعانقنا وشكرتهما على الفرصة وذكّرتهما بأن عرضي للمساعدة في ترجمة الفلم بعد اكتماله لم يزل قائماً.

لا أعرف ما الذي دهاني ووافقت على الذهاب إلى بغداد بعد كل تلك السنين؟ كان الأجدر بي أن أذهب لوحدي، على الأقل، لكي أضمن حرية التجوّل ولكي أختار ما أريد أن أراه. بدلاً من أن أكون رهينة الفريق وبرنامجه الذي التزمت به. لكن ما فائدة كل هذه المراجعات النقدية الآن؟ فلن تكون هناك رحلة أخرى. لقد ذهبت بلا توقّعات وظننت أنّني كنت قد لقحت نفسي ضد أية خيبة أمل إضافية. فقد كنت قد قرأت كثيراً عمّا يحدث للمهاجرين الذي يعودون بعد طول غيّاب وبحثهم، عن وعي أو بدونه، عمّا تبّقى. وقرأت عن الذاكرة الانتقائية وعن الحنين وشراكه. لكن النصوص لم تنفع كثيراً.

* * *

منطق الخليفة

ملامح هارون الرشيد مميّزة ولا يمكن لمن يراه أن ينسى وجهه بسهولة. عيناه سوداوان ونظراته، حين لا يكون شارداً، ثاقبة، وصارخة حين يغضب. وهو يغضب كثيراً. حاجباه رماديان، بلون

شاربه ولحيته، منفوشان وطويلان أكثر من اللازم. لم يبق الكثير من شعر رأسه باستثناء الفودين. أسمر البشرة. يرتدي دشداشة رصاصية فوق بنطلون ويمشي حافياً معظم الوقت.

لا أحد يعرف أين يسكن الخليفة. ولا يبدو من مظهره بأنّه يملك مسكناً أصلاً، أو يملك الكثير باستثناء ما يرتديه. فالشارع كان بيته، بل قصره، كما كان يصرخ مؤكداً بأعلى صوته. وينهر المارّة لتجرؤهم على المشي على أرصفته بدون الحصول على موافقته وبدون دفع الضرائب. «هذا شارع الرشيد. شارعي. شارع الخليفة، يا خوات الگحبة. مو شارع اللي خلّفوكم.» وهذا يصدم الكثيرين فيبتعدون عنه خائفين، لكن أولئك الذين يعرفون الشارع تعوّدوا عليه ويعرفون أنّه لا يعتدي جسدياً على أحد، بل يكتفي بالصراخ والجدال. أصحاب المحلّات يجاملونه ويدفعون الضريبة البخسة، دنانير أو سيجارة كي يأمنوا شرّه وصراخه مؤقتاً. يقطع الشارع جيئة وذهاباً ويصرخ بالسيارات أيضاً. يوسع رقعته أحياناً فيذهب إلى جسر الشهداء ويقف في منتصفه وينظر إلى دجلة ويصرخ بالسمك. أو ينظر إلى السماء ويصرخ «خرا بربّك.» هذه الأخيرة كانت تزعج الكثيرين فيستغفرون ربهم وينهره بعضهم، فيرد عليهم بواحدة أخرى بصوت أعلى.

هناك عدة روايات عن تاريخ الخليفة ولا يمكن التأكد من صحة أي منها. واحدة تقول إنه كان تاجراً غنياً فقد كل أمواله بعد عدة صفقات خاسرة وقرارات غير حكيمة اضطرته أن يبيع كل ممتلكاته في سنة واحدة وأصيب بعدها بالجنون. الأخرى تقول إنّه كان يسوق سيارته بسرعة جنونية على طريق الموصل واصطدم بشاحنة نقل قتلت حمولتها زوجته وأولاده الثلاثة وكان هو الناجي

الوحيد. الرواية الثالثة تقول، ببساطة، إن الرجل من عائلة تشكو أجيالها من الكآبة والجنون. أدخل إلى مستشفى الرشاد لسنين طويلة ولا يعرف كيف انتهى الأمر به في شارع الرشيد. لكن من المرجّح أن اسمه الحقيقي هارون.

كان هارون يتفقد زوايا شارعه بحثاً عن أحد رعاياه أو وزرائه الذين يتظاهرون بأنّه ليس الخليفة كلما رأوه كي ينهرهم. ولم يفهم لماذا كانت مملكته خاوية هذا الصباح.

* * *

بعد العودة إلى كيمبرج كان عليّ أن ألتقي بأستاذي المشرف على أطروحتي قبل نقل أغراضي والسفر إلى مدينة هانوُڤر في ولاية نيوهامپشير للتحضير لبدء الفصل الدراسي في كليّة دارتموث. كنت قد أعلمته برسالة إلكترونية أنني حصلت على الوظيفة وشكرته على رسالة التوصية التي كتبها لي قبل شهرين لكنني لم أخبره بحكاية سفري إلى العراق. كنت أحبّه كثيراً وكنت مبهوراً إلى أبعد الحدود بمعرفته الموسوعية بكل ما له علاقة بالأدب العربي القديم، الشعر بالذات، وباللغات السامية. إضافة إلى نشر عشرات المقالات والدراسات كان أحد محرري موسوعة الإسلام الضخمة. لكن اللقاءات المنفردة معه كانت غريبة. فهو خجول جداً والحوار معه يتطلّب بذل جهد إضافي للتغلّب على لحظات الصمت. على عكس شخصيته في الرسائل الإلكترونية التي كان يبدو فيها أكثر أريحية وتحرّراً. لعل الحيّز الذي كان يشعر فيه بحرية أكبر في التواصل هو حواشي البحوث وفصول الأطاريح التي كان يملأها بالملاحظات والإشارات المفيدة والتعليقات الساخرة أحياناً.

حين وصلت إلى مكتبه في الطابق الثالث في بناية القسم كان الباب مفتوحاً ورأيته يحاول ترتيب بعض المجلّات الأكاديميّة والكتب على الرفوف. طرقته ودخلت. تصافحنا.

سألني وأنا أجلس «كيف كان صيفك؟ مثمراً على ما أرجو؟» ابتسمت وقلت «لا أعرف إن كنت سترضى عن نوع الثمار.» ضحك. «أردت أن أشكرك ثانية على رسالة التوصية.» «آه، نعم، مبارك حصولك على الوظيفة» «شكراً. أعرف أنّي كتبت لك أن الحصول عليها سيحفّزني على الإسراع بإكمال الأطروحة» «أرجو ذلك» «كان من المفترض أن أسلمك الفصل الرابع ولكنني انشغلت في الشهر الأخير بمشروع لم أكن قد خططت له. لقد ذهبت إلى بغداد كمترجم مع فريق لتصوير فلم وثائقي.» رفع حاجبيه وسألني «حقاً؟ وكيف كانت الرحلة؟» «بصراحة، مربكة ومتعبة نفسياً.» «لا شك.» نظر عبر الشبّاك إلى السماء وقال «أتعرف. كنت في الرابعة من عمري حين انتهت الحرب العالمية الثانية. لكنني كبرت مع أشباحها وذكريات الكبار في مدينة كولونيا عنها.» كانت هذه أول مرة يحدّثني فيها عن أمور شخصيّة. أضاف «أحياناً عليك أن تفعل ما عليك أن تفعله. المهم أن تعود إلى السرْج وتمسك اللجام من جديد كما يقولون.» استغربت ممّا قاله وأراحني تفهمه للموقف لأنني ظننت أنه سيعبّر عن شيء من خيبة أمل. أضاف «لقد عشت، كما تعلم، في بيروت، أكثر من سنة في شبابي. كنت أعاون سيزگين في العمل على موسوعته. وزرت القاهرة. لكنني لم أزر بغداد أبداً، مع الأسف. وكيف أقرباؤك؟ معظمهم هنا أليس كذلك؟» «نعم، عائلتي هنا في ڤرجينيا. لكن لدي أقارب هناك. إنهم بخير.»

«قرأت أن المكتبات تعرّضت إلى ضرر وتلفت الكثير من المخطوطات.» «نعم، للأسف. لم نذهب إلى المكتبة الوطنية أو المتحف، لكنني ذهبت إلى كلية الآداب التي تخرّجت منها وقد أُحْرِقَت مكتبتها.»

«إنها جريمة. البشر أهم طبعاً. ولكن.»

«ولكن.»

«وَمَا الحَرْبُ إِلاَّ مَا عَلِمْتمْ وَذُقْتُمُ/ وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالحَدِيثِ المُرَجَّم. ألم نقرأ معلّقة زهير معاً في «حلقة الشعر الجاهلي» قبل ثلاث أَو أربع سنوات؟»

«نعم. أربع سنوات.»

«لكن السياسيين لا يقرأون الشعر الجاهلي.»

ضحكتُ بسخرية وقلت «لا يقرأون أي شعر.»

«بعضهم يقرأ الشعر لكنهم قد لا يفهمونه!» كان دائماً حريصاً على الدقة الأكاديميّة والابتعاد عن التعميمات حتى في الأحاديث العابرة.

سكت وسكتّ أنا أيضاً. كانت هذه أوّل مرة نتكلم فيها بهذه الحميميّة وتمنيت أن يستمرّ الحوار أكثر. لكن مرّت أكثر من دقيقة دون أن يقول هو شيئاً. فقررت أن الوقت قد حان للانسحاب. وقفت وشكرته على صبره ووعدته أنّ أرسل له الفصل المتأخّر في أقرب وقت. وقف وصافحني وهو يقول «أتطلع لقراءته.»

استعدت الأبيات الأولى من معلّقة زهير وأنا أنزل الدرج:

أَمِن أُمِّ أَوْفَى دِمْنَةٌ لَمْ تَكَلَّم

بِحَوْمَانَةِ الدُّرَّاجِ فَالمُتَثَلَّمِ

وَدَارٌ لَـهَـا بِـالـرَّقْـمَـتَـيْـنِ كَـأَنَّـهَـا
مَرَاجِيْعُ وَشْمٍ فِي نَوَاشِرِ مِعْصَمِ
بِهَا العِيْنُ وَالأَرْآمُ يَمْشِينَ خِلْفَةً
وَأَطْلاؤُهَا يَنْهَضْنَ مِنْ كُلِّ مَجْثَمِ
وَقَفْتُ بِهَا مِنْ بَعْدِ عِشْرِينَ حِجَّةً
فَـلأيـاً عَـرَفْـتُ الـدَّارَ بَـعْـدَ تَـوَهُّـمِ
أَثَـافِيَ سُـفْعاً فِي مُعَرَّسِ مِرْجَلِ
وَنُـؤْيـاً كَـجِذْمِ الـحَوْضِ لَـمْ يَـتَـثَلَّـمِ
فَلَـمَّـا عَرَفْتُ الـدَّارَ قُلْتُ لِرَبْعِـهَا
أَلاَ أَنْعِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الرَّبْعُ وَاسْلَمِ

ولم أفلح في استعادة المزيد. كررت «أَلاَ أَنْعِمْ صَبَاحاً أَيُّهَا الرَّبْعُ وَاسْلَمِ» مرّتين وأنا أدخل إلى غرفة القسم. لم تكن السكرتيرة جيني خلف مكتبها. ولم يكن هناك شيء مهم في صندوق بريدي. إعلانات عن منح للطلاب وعن حلقات دراسية جديدة في فصل الخريف. دعوة إلى حفل الترحيب بالطلاب الجدد. ألقيت بالأوراق في سلة القمامة الخاصة بإعادة تدوير المهملات الورقية. أردت أن أبلغ السكرتيرة بانتقالي وبعنواني الجديد كي ترسل أية أوراق مهمة إليه. انتظرت خمس دقائق ولم تعد فقررت أن أكتب لها رسالة إلكترونيّة فيما بعد.

في طريق العودة من القسم إلى الشقّة اقتربت من تقاطع شارعيْ دڤنتي وكركلاند واستبدّت بي رغبة لأن أذهب إلى حديقة أدولفوس باوش التي كانت أجمل بقعة في جامعة هارڤارد بالنسبة لي. حديقة منعزلة مخبّأة خلف بناية متحف وقسم الدراسات الجرمانية. لم

أكتشفها إلا في آخر سنة من وجودي هنا مع أنها كانت على الطريق إلى القسم والمكتبة. والفضل يعود لربيكا التي دلّتني عليها عندما شكوت ألا محل هادئاً في الجامعة. فأخذت ألجأ إليها لأقرأ فيها عندما يكون الجو معتدلاً وكنا نلتقي هناك أحياناً لتناول الغداء الذي نشتريه من أحد المحلّات المجاورة. كانت الحديقة خالية كعادتها معظم الأوقات. فالفصل الدراسي لم يبدأ بعد وهي أساساً تكون شبه خالية حتى أثناء الدراسة. جلست على إحدى المصاطب ونظرت إلى تمثال الأسد المتوثب الذي كسته السنين بفعل الأكسدة بوبر أخضر فاتح. كان مسالماً بالرغم من توثّبه وحجمه فسمح للطيور أن تختار فكه المفتوح الذي جمّده النحّات في لحظة زئير موضعاً لعشّها. بدا العش فارغاً وبلا حركة. اللبلاب الأحمر يواصل تسلّق جدران البناية الرمادية كأنه يريد الوصول إلى سطحها. زجاج النوافذ الضخمة يعكس جدران البناية التي تقابلها والتمثال وكسرة من السماء. هناك أربعة منحوتات لوجوه مخلوقات مخيفة توزعت على قمة دعامات البناية. تشبه تلك التي توضع في الكنائس والبنايات القديمة لطرد الأرواح الشريرة. أدركت أنني لم أمض ما يكفي من الوقت في هذا المكان الآسر. شعور متوقّع وأنا على وشك مغادرة هذه المدينة التي أعرف أنّي سأشتاق إليها أكثر عندما أكون على بعد ساعتين ونصف شمالاً يمكنني أن أزورها طبعاً. لكن هل يستوي الزائر والمقيم؟ آه من شراك الحنين. يجب أن أتّصل بربيكا. محادثتنا الأولى بعد عودتي كانت قصيرة جداً. لم أشتق إليها كثيراً عندما كنت في بغداد. ولم أفكّر بها إلا مرة واحدة طوال الأسبوع. كان قلبي مرتبكاً ومشغولاً بتصريف ما عصف به من مشاعر متقلّبة بين الماضي المستمر والمضارع. عواصف وليست

عواطف! لكنّني بالغت وكتبت في نهاية رسائلي الإلكترونية التي كنا نبعثها من فندق الشيراتون، المكان الوحيد الذي عثرنا فيه على إنترنت، «أنا أيضاً مشتاق» رداً على «أنا مشتاقة» لا أعرف كم يمكن لعلاقتنا أن تستمر وزادُها التحادث بالهاتف والياهو مسنجر وزيارة قصيرة كل ستة أشهر؟ أردت أن أظل جالساً على المصطبة وأن أغفو قليلاً لكن عليّ أن أعيد عشرات الكتب التي كنت قد استعرتها إلى مكتبة الجامعة وأن أنتهي من وضع كتبي وأغراضي في الصناديق قبل أن يأتي عمّال شركة النقل في الصباح لتحميلها ونقلها إلى دارتموث.

عندما عدت إلى الشقة بحثت عن شرح المعلقات لأقرأ بقية الأبيات عن الحرب وعثرت عليها.

وَمَا الحَرْبُ إلاَّ مَا عَلِمْتمْ وَذُقْتُمُ
وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالحَدِيثِ المُرَجَّمِ
مَتَى تَبْعَثُوهَا تَبْعَثُوهَا ذَمِيمَةً
وَتَضْرَ إِذَا ضَرَّيْتُمُوهَا فَتَضْرَمِ
فَتَعْرُكُكُمْ عَرْكَ الرَّحَى بِثِفَالِهَا
وَتَلْقَحْ كِشَافاً، ثُمَّ تُنْتَجْ فَتُتْئِمِ
فَتُنْتِجْ لَكُمْ غِلْمَانَ أَشْأَمَ كُلُّهُمْ
كَأَحْمَرِ عَادٍ ثُمَّ تُرْضِعْ فَتَفْطِمِ
فَتُغْلِلْ لَكُمْ مَا لاَ تُغِلُّ لأَهْلِهَا
قُرىً بِالْعِرَاقِ مِن قَفِيزٍ وَدِرْهَمِ

أمضيت أربع ساعات انتهيت بعدها من وضع كل الكتب والأوراق والحاجيات في الصناديق البنيّة التي اشتريتها من شركة

النقل. كتبت على كل واحدة ما يدل على محتوياتها عموماً بعد غلقها بالشريط اللاصق بإحكام. وأضفت المكان الذي ستوضع فيه: مكتب، شقّة/ كتب. إلخ. من حسن حظي أن الكليّة التي سأعمل فيها تتحمّل نفقات الشحن. أخذت صندوقين إلى المطبخ لأنني كنت متأكداً بأنهما سيتسعان لكل ما أمتلكه من صحون وأدوات مطبخيّة وقلاقيل. لم أكن أطبخ كثيراً، لكنّي كنت قد جمّعت كمية لا بأس بها من البهارات لعمل بعض الطبخات التي أحبّها وأحاول أن أتقنها ولا داعي لتركها هنا أدركت وأنا أضع المطبخيات في الصناديق أنّ هذه سابع مرّة أنتقل فيها من بيت إلى آخر في هذه البلاد وثالث مرّة أنتقل فيها من ولاية إلى أخرى. وأنّها أول مرّة سأعيش فيها في شقة بأكملها لوحدي. كنت قد عشت لوحدي في كاليفورنيا لكن في غرفة بحمّام ضمن مجمّع مع عمّال في مزرعة اللوز. وسألت نفسي ما الذي يعينيه هذا كله؟ أهو جردٌ للتحوّلات والهجرات؟ وقبل أن أعثر على جواب مقنع رن الهاتف. لم أذهب إلى غرفتي وتركته يرن حتى سمعت صافرة المسجّلة الصوتية، ثم جاء صوت علي هادي «نمير. على هادي وياك. يگولون إنت مسافر.» تركت الصحن الذي كان بيدي وأسرعت إلى غرفتي وأنا أسمعه يقول «رجعت لو بعد؟ من ترجع خابرني.» ورفعت السماعة قبل أن ينهي رسالته. حييته كعادتي «هلو أغاتي» فقال «عاش من سِمَعْ حسّك يابه. نسمع أخبارك من الغربا.» «لا، واللّه چنت راح أخابرك اليوم» واتفقنا أن أمر عليه في المساء.

* * *

منطق الزوراء

«ومدينة الزَّوْراء: بِبغداد في الجانب الشرقي، سميت زَوْراءَ لازْوِرار قبلتها. الجوهري: ودِجْلَةُ بَغْدادَ تسمى الزَّوْراءَ. والزَّوْرَاءُ دار بالحِيرَةِ بناها النعمان بن المنذر، ذكرها النابغة فقال: بِزَوْراءَ في أَكْنافِها المِسْكُ كارِعُ وقال أَبو عمرو: زَوْراءُ ههنا مَكُّوكٌ من فضة مثل التَّلْتَلَة.»

لا أعرف الكثير عن أصولي. ربتما أكون من الصين أو من الهند، أو بلاد فارس. ولا أذكر كيف جئت، أو جيء بي، هنا. عارية كنتُ، كما خلّقني ربّي وكما سوّاني عباده. لكن ما أذكره هو وجهه وعيناه اللتان حرستاني ليال طوال.

لم أتحرك لشهور حتى فكَّ هو وثاقي برفق ومسح الغبار ووعثاء السفر عن وجوهي. مرّر أصابعه برفق على كل موضع كأنه يريحني من عناء الترحال ويطمئنني إلى أنني في أمان معه. ألبسني جلد غزال اقتناه خصيصاً لي. وكان ينيمني قرب رأسه بعد أن يدثّرني به. يغيب لساعات لكنه طول معاشرته لي لم يفوّت يوماً دون أن يسهر مكبّاً عليّ. يحدّق في جسدي بولهٍ ويحادثني كأنْ لا غيري في هذه الدنيا.

لم أفقه أول الأمر ما كان يرومه منّي. ينزع عني جلد الغزال ويجلس ويحدّق في دون أن يفعل شيئاً. بعد أيام أحسست بوخزة وشيء من الألم وفعلها لأول مرة وهو يتفرّس فيّ ويردد «بسم الله الرحمن الرحيم.» ثم قال «ستحفظين أجمل ما قيل من شعر في هذه المدينة. وستحيين طويلاً من بعدي وبعد بعدي.» شعرت بسائل بارد يسيل عليّ. العرق يتفصد على جبينه لكنه كان يحرص ألا تسقط قطرة عليّ ومع ذلك أفلتت من جبينه واحدة أو اثنتان وكان يوبخ

نفسه عندما يحدث ذلك فيسارع إلى تجفيف العرق والنفخ على الموضع الذي تسقط عليه القطرة.

يردّد كل يوم ما تمتم به في المرة السابقة ويقتفي بسبابته آثاره على جسدي قبل أن يستأنف فعله فيّ. يستيقظ أحياناً في كبد الليل ويهرع إلي وينزع عني جلد الغزال كأنه يريد أن يضيف شيئاً نسيه أو يسترجع ما استودعه في جسدي.

تفرّس فيَّ كثيرون من بني البشر بعده بعيون ملأى بالإعجاب ولمسوني برفق. وكان ذلك يفرحني بالطبع، لكنني لم أشعر مع أي منهم بالقشعريرة التي سرت فيّ عندما كانت أصابعه تزحف عليّ وعيناه مسمرتان على جسدي. عيناه بئران مليئتان بالليل. حاجباه على وشك أن يصافحا بعضهما البعض على قمة أنف ضخم يعلو على شاربه كأنه سلطان استوى على عرش. بالرغم من كثافة شاربه ولحيته إلا أن رأسه كان خالياً إلا من شعرات معدودات فاتها الصلع وظلت وحيدة تائهة كبقايا واحة في صحراء.

حين لم يبق موضع في جسدي لم تمر أصابعه عليه ظل يحدّق. ثم بكى وقال لي «الموت أشقّ عليّ مما سأفعله.» وكان آخر ما وشمه عليّ:

«تم بحمده تعالى في بغداد في السادس من رجب.»

طواني ثم قبّلني واحتضنني في سريره ونام وهو يبكي. في الصباح التالي غطاني بقماشة وتأبطني وخرج بيّ إلى المدينة. مشى ومشى حتى دخل قصراً وسلّمني إلى رجل خشن اليدين حملني إلى من أسماه «مولاي.» قلّبني مولاه الذي أصبح مولاي لدقائق وأثنى على محاسني وهو يضحك ثم رمى بي إلى واحدة من جواريه قائلاً: إقرئي علينا يا ميّة، ثم سأل سيّدي:

«هل هي الوحيدة؟»

«نعم يا مولاي.»

«وإن أرسلنا الجند إلى بيتك لن يعثروا على نسخة أخرى؟»

«كلا يا مولاي.»

رمى إليه بصُرّة وأمره بالانصراف. توارثني أحفاده وأحفاد من قتلوهم وتناقلتني الأيدي. ووضعت مع الأخريات في أقبية مظلمة. معظمهن سبين وأحرقن وألقين في النهر هذا ما سمعته. لكنني نجوت ويا ليتني كنت متّ. تمر سنوات أظل فيها نائمة في الظلمة. وعندما تقع عينا أحدهم على جسدي أو تتحرك شفاههم وهم يقرأونني لا أتذكر إلا عينيه وأحنّ إليه. ومضت سنون لم يمسسني فيها بشر. ثم جاء روميّ يحمل آلة صوّر بها جاراتي دون أن يصورني. ألأني عجوز شمطاء أم لأن التجاعيد علت محياي؟ ظننت أنّي أصبحت نسياً منسيّا. مرّت السنون دون ضجيج وعناء حتى جاء اليوم الذي اهتزّت فيه الأرض وكأنها ستخرج أثقالها. كان الوقت شتاء إلا أنني شعرت بجلدي يتيبّس من الحر. أهي الشمس التي طالما خافوا عليّ منها؟ تناهى إلى سمعي فحيح النيران وهي تلتهم جاراتي وتسعى نحوي. لسعت ألسنتها أطرافي وانكمشتُ خوفاً وقبل أن أذرف دمعة شهقتُ شهقة ألف عام ورأيتني أتصاعد غمامة من دخان في سماء بغداد.

* * *

كنت قد سمعت عنه كثيراً حتى قبل أن أنتقل من كاليفورنيا إلى كيمبرج قبل أربع سنوات. بعد وصولي ظل الكثيرون، عرب وأمريكان، يقولون لي حال سماعهم أنني من العراق وأنني مهتم

بالأدب العربي أنني لا بد أن أتعرّف عليه وأزور مكتبته الشهيرة. وأنا أمشي إليها أدركت أنّه سيكون أكثر صديق سأفتقده بعد سفري. كنت ألتقي به حوالي مرّة في الشهر لكن لقاءاتنا كانت تطول. كان بعمر أبي إلا أن روحه كانت نضرة. يمتلك معرفة موسوعيّة بالأدب العربي، ومغرم بالثقافة والموسيقى. أكمل الدكتوراه في الهندسة منذ عقود، لكنه كان مهووساً بالأدب العربي، فدرس وحصل على دكتوراه ثانية فيه وكتب أطروحة عن الشدياق. ودرّس اللغة العربية في جامعة هارڤارد لسنين طويلة وكان يفترض أن يظل فيها، لكن عقده لم يجدّد بسبب صراعات داخل القسم وخيانة أحدهم. فانتقل للتدريس في جامعة ماساشوستس. كنت أظن أنني مخضرم لأنني قضيت عقداً بأكمله في أمريكا. أما هو فجاء في نهايات الخمسينيّات، أي أنّه من المعمّرين. كنت أشعر حين أزوره وأحادثه أنني أزور العراق، لا لأنه لم يندمج بالمجتمع الأمريكي وثقافته، بالعكس، فقد فعل ذلك بنجاح. ولكن ربما لأن الحديث دائماً يأخذنا إلى العراق وأوجاعه ومسرّاته وأغانيه. وبالتأكيد لأننا نتلذذ بالمحكيّة البغداديّة وبتعابيرها التي نفتقدها. كان يهوى جمع الكتب والمخطوطات والصور القديمة. وتحوّل بيته، بعد طلاقه، الذي ربما كان سببه الرئيسي هوسه بالكتب، إلى مكتبة هائلة تحوي أكثر من ٢٠ ألف كتاب. كما كان بمثابة مضيف مفتوح للمهتمين بأمور الثقافة والأدب من عرب المدينة. يستضيف فيه جلسة شهرية لقراءة الروايات العربيّة، حضرتها أكثر من مرّة. وبالرغم من أنه كان في الستينيات إلا أن روحه كانت شابّة وبقي إلى أقصى اليسار الذي اعتنقه منذ شبابه نشيطاً كما كان حين كان طالباً في الستينيّات التي ظلت جمرات راديكاليتها. تراه في كل المظاهرات والندوات

والحفلات والأماسي في المدينة. يرفض أن نستبق اسمه بـ«دكتور» ويفضّل أن نكتفي بـ«علي هادي.» لكنني كنت أحب أن أناديه «أستاذ» أو «مولانا.»

كان بشوشاً كعادته عندما فتح الباب. تعانقنا وقبّلنا بعضنا البعض وهو يبتسم ويقول «هلا بالعائد. حمدالله عالسلامة» سألته «عائد للعراق لو لأمريكا؟». فضحك وقال «بكيفك. تفضّل استريح وآني أجيبلك چاي.» قلت له «أجي وياك» مشينا إلى المطبخ وبادرني بالسؤال «زين احچيلي. شودّاك على بغداد. أشو بدون مقدّمات؟ وشلون ما تگللي؟ آني ما اتّصلت بيك عبالي مشغول تكمّل الأطروحة.»

«اتصلوا بيّ جماعة من سان فرانسسكو يسوّون أفلام وثائقية. خوش شباب. چانوا يدورون على واحد يروح وياهم يعرف المدينة ويترجم. ورِحِت.»

«إي وشلون شفت الوضع؟»

«هوسة وخربطة. مليوصة.»

«طبعاً. هذا المتوقّع من هذوله السرسريّة.»

لاحظت وجود صورة جديدة معلّقة على حائط المطبخ لم تكن هناك في الماضي يظهر فيها نهر وكتابة عثمانية. توقفت أمامها وسألته عنها. قال وهو يرفع القوري ويضعه إلى جانب استكانات الشاي وقدح السكّر على الصينيّة «إي هاي جديدة. وصف فيضان دجلة ببغداد بالقرن الخامس عشر. بس نسخة ملوّنة مطبوعة بالليزر مو أصليّة. الأصلية بالمكتبة البريطانيّة. وصّيت وحدة من طالباتي جابت لي ياها.» حاولت أن أعاونه على حمل صينيّة الشاي لكنه رفض.

اتجهنا إلى غرفة المكتب الواسعة. جلسنا على كرسيين أمام الطاولة التي كان يقرأ ويكتب عليها. وضع الصينيّة على طاولة دمشقيّة الطراز.

حدّثته عن تفاصيل الزيارة ومشاعري الملتبسة والغريبة وعن شحوب بغداد ورثاثتها والفوضى والتسيّب ومنظر الجنود وخوذهم والأسلاك الشائكة والدبابات في شارع أبي نؤاس. وكان يهزّ رأسه أو يقول «مع الأسف» كلّما توقفت لأشرب شيئاً من استكان الشاي. كان يمقت صدام والبعثيين منذ عقود لكنه عارض الحرب. ذهبنا معاً إلى المظاهرات الحاشدة التي خرجت في بوسطن قبل الحرب. وشاهدنا الأخبار في مكتبه طوال الغزو. كما شاهدنا بذهول لحظة سقوط التمثال في ساحة الفردوس وتحدّثنا عن غرابة المشاعر التي اعتملت في تلك اللحظة. فكلانا كان يحلم بسقوط النظام، لكن ليس باحتلال عسكري.

«الأمريكان سرسريّة راح يدمّرون البلد. بس والله آني ما أگدر أروح. ما أگدر أتحمّل.»

«إنت شوكت آخر مرة رحت؟»

«بالـ ٨٥ رحت لمّن توفت والدتي. زين گرايبك هناك شلونهم؟»

«زينين. محّد متأذّي.»

«لازم تكتب شي عن زيارتك؟»

«دا أحاول بس ما گدرت. بالي مو صافي. بس أبشرك.»

«خير؟»

«حصّلت شغل.»

«مبروك. وين؟»

«بدارتموث.»

«إي عظيم. بس هاي بالمنگطعة. آني زايرها مرة من زمان. كل شي ما چان بيها غير الكليّة، وتلث شوارع ويا دوب چم محل.»

«لا وين؟ هسّة كبرانة فدْ مرّة. صايرة خمس شوارع ونص.»

ضحكنا وأضفت أنا «بس شا أسوّي، أريد أدفع ديوني.»

كنت أبالغ طبعاً لأن عدد الشوارع كان أكثر بقليل، لكنها تبقى فعلاً مدينة صغيرة جداً تتمحور حول الكليّة وطلابها.

«لا، الشغلة ممتازة. شنو الكورسات، لغة لو أدب؟»

«تلترباع لغة وربع أدب.»

«إي عال العال. بعدين أحسن مكان تكمّل بيه أطروحتك هو المكان المعزول. ماكو حياة اجتماعيّة وماكو شي يلهّيك.»

«ولا أحَّد!»

«ليش صديقتك وينها؟»

«عدها منحة سنة ببوليڤيا تسوّي بحث ميداني.»

«ها، خومو راح تلعب بذيلك؟»

«هو آني راح ألحگ أشوف ذيلي أصلاً حتى ألعب بيه؟»

«إذا طويل تشوفه.»

ضحكنا ثم أضاف «تگضّيها ويّ أبو نوّاس بالبرد. شوكت رايح؟»

«باچر الصبح راح يجون ياخذون غراضي وأروح.»

«موفّق. تستاهل. بس مو تگطع وتنسانا. تعال زور بين فترة وفترة.»

«أكيد.»

أعطيته المظروف الأصفر الذي كنت قد وضعت هديته فيه.

«هاي شنو؟» «صوغة إلك. فد شي بسيط.» لم أكن قد أغلقت المظروف بالصمغ الذي يبلل باللعاب ففتحه وأخرج الكتيّبين الّذين كنت قد اشتريتهما له «مدخل إلى الفولكلور العراقي» لعبد الحميد العلوچي ونوري الراوي (بغداد، ١٩٦٢) و «من الشعر العامي المذيّل» لمحمد هاشم الرجب (بغداد، ١٩٦٤). عندما لاحظ قدمهما وضع أحدهما برفق على الطاولة وتصفحه. «ما شايفهم قبل. خوش صوغة والله. منين حصّلتهن؟»

«رحت لشارع المتنبّي آخر يوم ولگيت مجموعة كتب ممتازة عد واحد هناك.» كنت على وشك أن أخبره عن ودود وعن مشروعه و عن الباب الأول من المخطوطة الذي حملته معي من بغداد لكنني لم أفعل. لا أعرف لماذا. كنت أخبره عادة بكل شيء فكّرت بهذا فيما بعد. لعلّني أريد أن أحتكر ودود لنفسي. كان علي هادي قد تثاءب عدة مرّات قبلها وبان عليه النعاس. وعندما نظرت إلى الساعة المعلّقة على الحائط فوق رفوف الكتب كانت قد تجاوزت منتصف الليل. كان عليّ أن أستيقظ مبكّراً وأنظّف غرفتي وألقي ببعض الأكياس في القمامة وأغسل ملابسي وأضعها في الحقيبة قبل وصول عمال شركة النقل.

تودعنا وقال لي إنني يمكن أن أنام عنده عندما أزور المدينة وكرّر نصيحته لي:

«خلّص الأطروحة حتّى ترتاح.»

* * *

«الطب البيطري» «الفرنسيّة بدون معلّم» «هاملت» ترجمة جبرا إبراهيم جبرا «ديوان الرصافي». لفتت انتباهي نسخة قديمة من «ديوان الجواهري» الجزء الثالث، كتب على غلافها بأحرف ناعمة «شركة الرابطة للطبع والنشر، ١٩٥٣» انحنيت لأحمله من الأرض. الغلاف أخضر فاتح ممزق من إحدى زواياه والأوراق مصفرّة. قلّبت أوراقه برفق. كانت قصيدة «ما تشاؤون» الأولى في الديوان. «ما تشاؤون فاصنعوا/ فرصة لا تضيّع/ فرصة أن تحكموا/ وتحطّوا وترفعوا.» كأنها كتبت عمّا يدور الآن مع أنها تعود إلى ١٩٥٢

رجل في نهايات الثلاثينيات، متوسط الطول بشعر أسود ولحية خفيفة خالطها بعض الشيب. يرتدي قميصاً بصليّ اللون وبنطلون جينز فاتح مع نعل «أبو الإصبع» يجلس على الرصيف على كرسي من البلاستيك الأبيض ويقرأ جريدة «الزمان». خمّنت أنّه البائع. فسألته عن سعر الكتاب. أنزل الجريدة إلى حضنه ورمقني بنظرة غريبة من عينيه العسليتين وطلب منّي أن أريه الغلاف. فعلت «٤٠ ألف.» «خوش. آخذه.»

لم أشأ أن أجادل على السعر لأن الكتاب يستحق أكثر بكثير. واصلت تقليب الكتب وعثرت على منتخبّات من امرئ القيس منشورة في بيروت عام ١٩٤٧ لم أسأل عن السعر. أضفت الكتاب إلى الجواهري. لاحظت أنه كان يصوب إليّ نظرات مطوّلة وهو يقلّب الجريدة وسألني فجأة بنبرة تشوبها عدائية مبطّنة:

«مبيّن حضرتك من هذوله اللي إجوْ من برّا. شوكت طلعت؟»

«١٩٩٣.»

«الحمد الله عالسلامة.»

قالها بسخرية وأضاف:

«وين عايش؟»

«أمريكا.»

«ليش لا عمّي. شكو عليك!»

هزّ رأسه باستهزاء. فقلت له:

«أخي آني لا جاي أحكم ولا قابض فلوس من أحد. جاي ويّ جماعة علمود فلم وثاقي عن الوضع والناس. لا أكثر ولا أقل.»

فاجأته حدّة جوابي فتراجع:

«إلعفو، مو قصدي. بس تدري گاعد نشوف أشكال وألوان.»

ومد يديه كي يريني ما كان يقرأه.

«هاك هذولي. نصهم چانَوْ گاعدين برّه عشرين وتلاثين سنة وهسّه جايين آخر زمن يحكمونا.»

«أخي، ويّاك، بس ما إلي علاقة بيهم.»

«حضرتك شنو يعني مخرج سينمائي؟»

«لا أكاديمي بس جاي كمترجم.»

«من يا فضائية جماعتك؟»

«مو فضائية. مستقلّين.»

«تشرفنا. شنو الإسم الكريم؟»

«نمير.»

«دكتور نمير؟»

«لا بعد.»

«يا هلا بأستاذ نمير. داعيك ودود. وإذا تحب تشوف عندي بالمخزن هواية دواوين وتكملة السلسلة مال ديوان الجواهري.»

«تسلم. يا ريت. هو وين المخزن؟ بعيد؟»
«لا، هنا، عبر الشارع.»

نهض من كرسيه وطلب من جاره أن يراقب كتبه ريثما يعود ثم أشار إليّ بأن أتبعه. عبرنا الشارع وأدخل يده في جيب بنطلونه وأخرج سلسلة مفاتيح. وقفنا أمام باب خشبي قديم فتحه ودلف إلى مدخل مظلم يؤدي إلى درج. ظننت أننا كنا سنصعد الدرج لكنه اتجه إلى اليمين ووقف أمام باب آخر من خشب مصبوغ بلون أخضر وكان هناك قفل إضافي فتحه قبل أن يدخل مفتاحاً آخر في قفل الباب الأصلي ويفتحه. دخل وسحب كرسياً من البلاستيك الأبيض مثل الذي كان يجلس عليه في الخارج ودعاني إلى الدخول والجلوس. سحب خيطاً تدلى من مصباح في السقف لكنه لم يضئ. سحبه مرة أخرى ثم قال: «تفضّل! كهرباء ماكو.» «مو مشكلة.»

كان المكان معتماً والبصيص الوحيد تسلل من نافذة إلى اليمين غطتها ستارة بدا أن قماشها كان ذات يوم بلون أزرق غامق قبل أن تحوله الشمس إلى البهوت الذي هو عليه الآن. سحب الستارة فهرعت شمس بغداد بقوّة وفضحت ذرات غبارٍ تطاير نحو الأعلى. الجدران مغطاة بالرفوف التي تزاحمت عليها طوابير الكتب حتى السقف وأكوام من الجرائد تنام هنا وهناك على الأرض. في الزاوية اليسرى من الغرفة سرير صغير عليه مرتبة بسيطة وشراشف مجعلكة وبجانبه طاولة صغيرة عليها جهار راديو صغير وبقايا شمعة على صحن. إلى يسار السرير جثم دولاب ملابس متوسط الارتفاع تكوّمت فوقه جرائد وبجانبه باب نصف مفتوح يؤدي إلى ما بدا أنه حمام.

قاطع تجوال عيني قائلاً إنه ينام هنا أحياناً لخطورة الوضع وصعوبة العودة إلى البيت بعد الغروب. كان قد أزاح بعض الجرائد والكتب من كرسي ووضعها على الأرض ووقف عليه كي يصل إلى الرفوف العالية.

«هذا كلّه الجواهري وشعر عراقي. عندي كومة.»

ناولني مجموعة كتب بدا أنها بقية سلسلة ديوان الجواهري بعد أن نفض عنها الغبار. اقتربت منه لأتلقفها فسألني:

«تحب البياتي؟»

«شعندك منّه؟»

«أباريق مهشّمة.»

قلت له إنني مغرم بالشعر لكنني أبحث أيضاً عن كتب نادرة وطبعات أولى أو قديمة.

«هذني هنا كلها قديمة وطبعات أولى.» ناولني «القصيدة ك» لتوفيق صايغ وديوان عبد الأمير الحصيري و كتباً أخرى. لاحظت أن أحد الرفوف الواطئة كان مليئاً بملفّات مرتبّة بشيء من العناية وقد برزت من حافاتها أوراق وقصاصات جرائد وكانت هناك مجموعة دفاتر متوسطة الحجم تخللتها أوراق بأحجام مختلفة. تملّكني الفضول فسألته عنها.

«هاي أوراق خاصة. فد مشروع.»

«عن شنو؟»

«مشروع توثيقي.»

«دراسة؟»

«لا، نص مختلف. مو تقليدي.»

«شلون يعني؟»
«يعني كل شي. تاريخ، بس تاريخ دائري.»

استل واحداً من الملفات وأخذ يقلب محتوياته: ملاحظات بخط يده على وريقات مع قصاصات. أخبار مقتطعة من الجرائد.
«هذا مشروع العمر. أرشيف لخسائر الحرب والدمار، بس مو جنود وعتاد. الخسائر اللي ما تنذكر وما تنشاف. مو بس بشر. حيوان ونبات وجماد وكلشي اللي يتدمّر. دقيقة بدقيقة. هذا الملف مال الدقيقة الأولى.»
«تقصد هاي الحرب الأخيرة؟»
«بلي.»
«وشنو المصادر اللي تعتمد عليها؟»
لمحت بريقاً في عينيه وهو يتحدّث عن مشروعه.
«كل شي. أخبار. تاريخ شفوي. معاينات شخصية. خيال.»
«بس هذا مشروع ضخم ينرادله مؤسسة كاملة.»
«يمعوّد هو ظلّت مؤسسات هنا؟ آني أگدر أسويه.»
«وشنو العنوان؟»
«فهرس.»
«فهرست؟»
«لا، فهرس. فهرس لكل دقيقة. لكل شي مات بهذيچ الدقيقة.»
«فكرة رائعة. زين ناشر منّه شي؟»
«لا، النشر ما يهمني.»
قالها بشيء من العصبيّة.

«ليش؟ الفكرة متميّزة. وعلمود تتّرجم أجزاء منه للإنگليزي. آني مستعد أترجم.»

«حضرتك تشتغل مترجم؟»

«أترجم شعر ونثر للإنكليزي.»

«الله كريم.»

فجأة قال وكأنّه لا يريد أن يناقش الموضوع:

«تعذرني بس لازم أرجع عالكتب وأداري خبزتي.»

«إي، طبعاً.»

وضع الكتب كلها في كيس كبير. سلّمته المبلغ. كتبت عنواني الجديد وبريدي الإلكتروني وطلبت منه أن يراسلني إذا كان يحتاج إلي أي مساعدة وإذا غيّر رأيه بخصوص النشر أو الترجمة. نظر إلى الورقة ثم طواها ووضعها في جيب قميصه قائلاً «الله كريم.» ثم سألني «وين نازلين انتو؟» فقلت له «فندق الواحة، بالكرادة داخل.» تصافحنا وأكملت تجوالي.

* * *

منطق «كاشان»

الغالبية الساحقة من الكاشانيّات يولدن في كاشان، بالطبع. لكن «كاشان» التي أتحدّث عنها هنا بغداديّة الروح والجسد. ولدت في بغداد في سجن النساء في أواخر الأربعينيّات. لم تكن ولادتها عسيرة لكنها كانت بطيئة، استغرقت شهوراً طويلة. ركعت أمها فيها أمامها كل صباح، بصبر من نذرت نفسها لصلاة لا تنتهي. ركعت تسحبها بيدين متعبتين شيئاً فشيئاً إلى هذه الدنيا. دون أن تعاونها

قابلة ولا ممّرضة أو طبيب. لم تتوقف لشهور طوال إلا لاستراحة قصيرة عند الظهر، تغيب أثناءها لتأكل وجبة بسيطة، ثم تعود بعدها وتنكب على الجسد الطفل حتى يأمرها الحارس أن تتوقف بُعيْد المغرب. فتمس وجه ابنتها بحنو كأنها تودّعها قبل أن تعود هي والأخريات اللواتي كن يعملن في تلك القاعة إلى زنازينهن. بعض الأمّهات كن يغنين بصوت خافت أو يشاكسن بعضهن البعض حين يكون الحارس بعيداً. أما أمّها هي فكانت تعمل بصمت حجريّ معظم الوقت. وقلّما عرفت الابتسامة طريقها إلى وجهها. في الأسابيع الأولى كانت كاشان صغيرة جداً لا تبصر ولا تفقه شيئاً. ولم تتضح لها ملامح أمّها إلا عندما اتضحت ملامحها هي. ملامحها التي لا تختلف عن آلاف الكاشانيات. لأنهن جميعاً سليلات عدد محدود من النقوش وتنويعات معروفة تم تداولها منذ القرن السادس عشر. فم الأم صغير كحبّة كرز وعيناها شهلاوان تحت حاجبين كثيفين. بشرتها بلون الحنطة وشعرها الأسود مخفي خلف إيشارب شذري اللون. يؤطر وجهها الحزين الذي مرّت على خده الأيمن سكّين تركت فيه أخدوداً. السكّين التي التقطتها الأم من الأرض بعد تلك الطعنة وزرعتها في صدر الرجل الذي ظل يعذّبها لسنين وأسكتته إلى الأبد. لكن ثمن صمته كان باهظاً وعمر حريتها كان قصيراً؛ أقل من أربع ساعات.

الأسطة الإيراني العجوز الذي جيء به وزملائه من إيران ليشرف على تدريبهن، والذي اختارها بنفسه بعد امتحان أجراه، كان يتجوّل كل يوم متفقداً سير العمل ويقف أمام كل كاشان ويتأمّل أو يبدي ملاحظاته. ابتهجت حين امتدحها أكثر من مرة متمتماً «بَه بَه، خيلي خوب» و«خيلي قشنگ خانِم.» وبعد شهور شبّت قامة

كاشان حتى أخذت تضاهي قامة أمها التي لم تعد تتقرفص أو تركع، بل تجلس على كرسي. وأخذ الزهو يكبر في قلبها وهي ترى تقاطيع كاشانها البكر وأطرافها تكتمل والخطوط الملونة تصافح بعضها البعض. تلتقي وتفترق وتمر بالأشكال الهندسية التي توزعت بانتظام داخل الإطار المستطيل. حين اكتملت آخر خصلة من خصلات كاشان وقفت أمّها أمامها منبهرة بما صنعته يداها. مررتهما على جسدها وقبّلتها في أكثر من موضع وشمّتها كما كانت أمّها تشمّها عندما تبوسها. فهي تعلم أنها لن تبصرها ثانية أبداً.

في اليوم التالي طواها رجلان وربطاها في أكثر من موضع بحبل وحملاها ووضعاها في مخزن في السجن بانتظار اكتمال الأخريات. وشكّوا فيها دبّوساً ليثبّت ورقة كتب عليها «كاشان/ ١/ ١٩٤٩.» وبدأت الأم العمل في اليوم التالي على كاشان أخرى ستفارقها حالما تكتمل.

ظلّت كاشان جاثمة في ظلام المخزن لشهر وضعوا أثناءه أخريات مثلها إلى جانبها وعندما أصبحن عشراً حمّلوهن إلى شاحنة صغيرة أخذتهن إلى محل لبيع السجّاد في سوق دانيال. أمضت شهرين هناك حتى أعجبت بها سيدة كانت تبحث برفقة زوجها عمّا يزين بيتهما الجديد. وكذب البائع بشأن نسب كاشان ولم يقل إنها بنت بغداد، بل أصرّ على أنه استوردها من إيران. أضافت المرأة إليها اثنتين أخريين وكان نصيب كاشاننا غرفة الضيوف وظلت فيها سنين طويلة لا تتحرك فيها إلّا في بداية كل صيف حين يأتي نفّاضوا الزوالي ليحملوها هي والأخريات ويهزوهن لنفض الغبار. ثم يلفوها ويربطوها بقطع قماش ليضعوها خلف الأثاث أو في غرفة أخرى بانتظار عودة البرد. لكن أول مرة جاء فيها نفاضوا الزوالي

خافت وظنت أنهم استغنوا عنها أو أنها ستقبع في الظلام إلى الأبد. لكنها اعتادت هذا في السنين اللاحقة وأخذت تستمتع بسباتها الطويل. فتنام وتحلم بالخراف التي أعطتها خصلاتها. تراها ترعى على سفوح جبال بعيدة يهشّها راع تحت سماء حانية وشمس تحجبها بين الحين والآخر غيوم تدفعها الريح برفق. وتحلم كاشان بوجه أمّها وبعينيها.

ستقرر سيدة البيت فيما بعد أن تنقل كاشان إلى غرفة الجلوس «الهول.» وسيلعب عليها أطفالها الأربعة ويتخيلون الخطوط التي تعبر نقوشها شوارع لسياراتهم. ويرون الأقواس والدوائر الصغيرة ساحات تستدير فيها السيارات ويجلس فيها المارة. سيسقطون فتات طعامهم أو قطرات الشاي بالحليب ومشروبات أخرى على وجهها. حتى بقع الدم أحياناً. وستغضب السيدة وتنهرهم كلما فعلوا ذلك. سيستلقون على كاشان ويضعون وسادات تحت رؤوسهم ليكونوا أكثر قرباً من التلفزيون حين يشاهدون أفلام الصور المتحركة أو فيلماً طويلاً. سيكبرون ويتزوجون وينتقلون إلى بيوت جديدة وسيلدون. لكنهم سيظلون يزورون بيت العائلة مع أولادهم في المناسبات والأعياد.

ستبهت بعض ألوانها وستعلو وجهها تجاعيد خفيفة، لكنها ستحتفظ برونقها. وستتذكر السيدة، التي ستصل إلى سبعينيات العمر، بين حين وآخر، ذلك اليوم الذي اشترتها فيه. وتسأل زوجها إن كان يتذكّر وهما يجلسان وحيدين أمام التلفزيون. وستجيء حرب وأخرى وستخاف على أولادها وأحفادها، كعادتها، وتطلب منهم أن يجتمعوا في بيت العائلة الكبير لكي لا يقتلها القلق في ليلتها الأولى. وسينام بعض أحفادها على فرش

تطلب منهم جدتهم أن يضعوها على كاشان. وستختنق كاشان، لا من ثقل أجساد الأطفال الذين ناموا عليها، فهم أخف من الطيور. بل من ركام البيت الذي سينهار عليهم ويُسْكتهم إلى الأبد. وسيخيّل لكاشان أنها تبصر وجه أمها تبكي عليهم وعليها.

* * *

لم يكن هناك متّسع لي في شاحنة النقل مع السائق وزميليه الذين يعاونانه في حمل الصناديق فأخذت الحافلة من محطة ساوث ستيشن في بوسطن إلى دارتموث في صباح ذلك اليوم. بعد أن جمع السائق البطاقات وزّع قناني الماء الصغيرة مع كيس مكسّرات وسمّاعات على الركّاب. ثم أخذ مكانه وحالما تحرّكت الحافلة أمسك باللاقطة وأخبرنا بحماس أنّ الرحلة تتضمن عرضاً لفيلم يمكن أن نشاهده على الشاشات الصغيرة التي تم تعليق واحدة منها كل خمسة صفوف وعلى من يرغب المشاهدة أن يستخدم السمّاعات التي يجب أن نعيدها في نهاية الرحلة. تعجّبت أنه يكرّر هذا السيناريو عدة مرّات كل يوم ومع ذلك لا يبدو عليه الملل ويمكنه أن يحتفظ بحماسته أو يتظاهر بها. لم أستطع تذكّر الفلم الذي شاهدته أول مرة أخذت فيها الحافلة إلى دارتموث لإلقاء محاضرة عن أبي نؤاس وإجراء مقابلة الحصول على الوظيفة. كان فلماً تجاريّاً سخيفاً وكنت منهمكاً بمراجعة محاضرتي واختصارها لكي لا تتجاوز ٤٥ دقيقة، كما طلبوا منّي. إنها شركة صغيرة بخط واحد لا تسمح ميزانيتها بشراء حقوق أفلام جديدة أو ممتازة إلا فيما ندر. في طريق العودة بعد المقابلة كان الفلم «كل الخيول الجميلة» المأخوذ من رواية لكورماك ماكارثي وشاهدته بشكل

متقطّع لأنني كنت متعباً لكن صوت بينيلوبي كروز ولكنتها المتميّزة بالانگليزيّة فيه كان يدغدغني ويوقظني من نومي المتقطع.

بعد نصف ساعة من الخروج من بوسطن بدأت المعالم تتغير تدريجيّاً. وكلّما اتجهنا شمالاً كان اللون الأخضر يحضر بقوّة. مزارع جميلة وبحيرات صغيرة تجعل ولاية نيوهامپشير واحدة من أجمل الولايات في الصيف والخريف. لكن الشتاء فيها طويل وبارد، كما همس في أذني أستاذ بريطاني يدرّس الصينيّة في القسم. «عليك أن تستعد لأبرد شتاء في حياتك. أنا هنا منذ سبع سنوات ولم أتعوّد عليه بعد.» سألته ما الذي دعا أولئك المستوطنين الأوروپيين إلى القدوم إلى أقاصي الشمال البارد في القرن السابع عشر؟ وكيف كانوا يقاومون الشتاء، بل لماذا لم يهاجروا إلى مكان أكثر دفئاً بعد شتاء واحد؟ أخبرني أنّ الذي أسس هذه الكليّة رجل دين بروتستانتي كان يرغب في تدريب الهنود الحمر كي يصبحوا مبشّرين، لكن عدد الذين اعتنقوا دين الرجل الأبيض آنذاك ظلّ ضئيلاً جداً. فأصبحت الكليّة بدلاً من ذلك قبلة لأولاد الأغنياء والمتنفذين. أحببت هذا البريطاني الشكّاء لأنّه كان صريحاً معي وكان أكثر المتحمّسين والمتفاعلين أثناء المحاضرة. تحدّث عن إيجابيات العمل وما تقدّمه الكلية لكنه لم يتردد في توجيه النقد. أما البقيّة فلم يذكروا أي سلبيات. «ليست هناك حياة اجتماعية لغير الطلبة. المتزوّجون يلتقون بالمتزوّجين وعوائلهم.» سألته يومها «وماذا عنك. هل أنت متزوّج؟» «كلا، ولكن شريكي يعمل في نيويورك ونحن نمضي معظم نهايات الأسبوع معاً هناك.» وكانت «شريكي» إشارة إلى أنّه مثليّ. وأدركت أن ذلك قد يفسّر إعجابه بموضوع المجون وبمذكّرات أبي نؤاس التي تطرّقت إليها. «ماذا

عنك؟» «صديقتي خارج البلاد.» سألته عن الطلاب. فقال إنهم أذكياء جداً، فالأغلبية الساحقة منهم تخرّجوا من مدارس خاصة ممتازة وحتى الذي يقبلون بمنح يكونون طلاباً متميزين. ثم أضاف «لكنهم محافظون. قبل أن أدرّس هنا كنت أظن بسذاجة أن معظم الشباب لا بد أن يكونوا يساريين بالسليقة، ثم يدفعهم ضغط الحياة البرجوازية ورفاهية الحياة شيئاً فشيئاً إلى أن يتخلّوا عن أحلام تغيير العالم والأهداف السامية ويساوموا ليصبحوا محافظين. لكن الكثير من طلابي في الثامنة عشرة ومن المحافظين اليمينيين، أبّاً عن جد. وبما أنّك تدرّس أمورا لها علاقة بالشرق الأوسط والفوضى هناك فعليك أن تكون حذراً.»

وقفت الحافلة أمام الهانوڤر إن، الفندق الصغير والوحيد والتابع للكليّة. نفس الفندق الذي كنت قد قضيت فيه ليلتي والذي تعشّينا فيه بعد المحاضرة واللقاءات. وهو على الجانب الآخر من الشارع المستطيل الأخضر الذي أخذ اسمه بجدارة والذي يشكّل مركز الكليّة إذ تتوزّع حوله أشجار الدردار الكهلة والبنايات القديمة التي كانت نواتها في السنين الأولى قبل أن تضاف إليها بنايات أخرى أبرزها مكتبة بيكر، ذات الطابوق القرميدي والبرج الأبيض العالي.

سألت سيدة كانت تنزل من الحافلة عن مكتب السكن فدلّتني عليه. وقعّت الأوراق واستلمت مفتاح الشقّة التي كنت قد اخترتها من موقعهم على الانترنت بعد الاطّلاع على الصور. مشيت إلى البناية وفتحت باب الشقّة. صغيرة وأصغر من الصور ولكنها تكفي. نافذة واحدة في غرفة الجلوس وفي غرفة النوم تطلان على موقف السيارات. كنت قد طلبت من عمال النقل أن يتصلوا بي عندما

يكونون على بعد نصف ساعة. اتصلت بهم لأتأكد فقالوا أن هناك ازدحاماً على طريق ٨٩ بسبب حادث وأنهم سيصلون خلال ٤٥ دقيقة.

أقفلت الباب وذهبت إلى الشارع الرئيسي إلى مقهى «الحصان الأبيض» وفرحت أنّه قريب جداً من شقتي وتذكّرت المثل الشعبي «مادام گهوة وتتن، كل الأمور تهون.» مع أنّني لم أكن أدخّن وهكذا ففي حالتي «ما دام گهوة وحلو، كل الأمور تهون» لأنني كنت مدمناً على الشوكولاتة والحلويات. عندما زرت المدينة للمقابلة قبل شهرين توقفت عند الحصان الأبيض هذا وشربت اسبرسو مضاعفاً استعداداً للمحاضرة. وأذكر أن تشكيلة الحلويات التي لديهم كانت تضاهي ما يجده المرء في المدن الكبيرة. وعندما سألت البريطاني ذلك المساء قال لي إن صاحب المقهى وظّف سيدة كانت تعمل في مطعم راق في نيويورك ثم هربت من المدينة إلى هدوء الريف.

كنت جائعاً وازداد جوعي حين رأيت المعجّنات مصفوفة بعناية خلف الزجاج. فطلبت كرواسان مع قهوة يورغاجيف التي كانت «قهوة اليوم» كما قرأت على القطعة المعلقة. كتبتْ العاملة التي أخذت طلبي رقماً على ورقة شكّتها بحامل معدني طلبت منّي أن أضعه على طاولتي ثم أعطتني الوصل. نظرت إلى الجرائد المعروضة للبيع: «نيويورك تايمز» و«بوستون غلوب.» وقرّرت ألا أشتريها. لماذا أصدّع رأسي بالأخبار الكئيبة من الصباح؟ وفاجأت نفسي بقراري لأنه كان نادراً. جلستُ في الزاوية أستكشف المكان وأراقب بقيّة الزبائن. بعد دقائق جاءت إحدى النادلات بطلبي مع ابتسامة. الكرواسان بدرجة الهشاشة المثالية. أكلتها ببطء لأتلذذ

بها. وضعت قليلاً من الحليب في قدح القهوة وشربت نصفه. ثم قررت أن أتمشّى قليلاً لأتعرف على «المدينة.» وضعت ما تبقّى من القهوة في قدح ورقي وأخذته معي.

لا أحد يموت في حوادث السير هنا. فالسيارات قليلة وتمشي ببطء ويقف سواقها بصبر كي يعبر المشاة. كل شيء أهدأ وأبطأ هنا. تذكّرت ما قاله البريطاني عن ضغطه العالي الذي تحسّن وهبط بعد أن انتقل إلى هنا من شيكاغو ليكون أقرب إلى حبيبه في نيويورك. بعد أقل من ربع ساعة وصلت إلى نهاية الشارع الرئيسي حيث محطّة الوقود الصغيرة التي يتحول بعدها الشارع إلى طريق ريفي يؤدي إلى «لبنان» المدينة المجاورة. المستوطنون الأوربيون دمغوا المكان بأسماء من الكتاب المقدس فهذه أرض ميعادهم، أو بأسماء تشير إلى أصولهم الأوربية بعد إضافة «نيو.»

عبرت إلى الجانب الآخر وعدت أدراجي. هناك ثلاثة مطاعم صغيرة ، واحد منها صيني، وسينما صغيرة ومكتبة ومكتب بريد، بالإضافة إلى محلات ألبسة و«غاپ» طبعاً. كنت على وشك أن أتّجه يميناً وأذهب إلى المتحف الصغير وقسم الفن التابع للكليّة لكن عامل شركة النقل اتّصل بي وقال إنّهم على بعد ربع ساعة.

لم يستغرق إنزال الصناديق والكرسي والطاولة والمرتبة أكثر من نصف ساعة. طلبت منهم أن يضعوا الصناديق في زاوية غرفة الجلوس ومرتبة السرير في غرفة النوم طبعاً. وعدت نفسي بترتيب الشقة وشراء أثاث جميل لاحقاً، لكنني انشغلت بالتحضير لدروسي وبإكمال الأطروحة. فظلت معظم الصناديق جاثمة كما هي حتى الربيع باستثناء صندوقيْ الكتب والمقالات الخاصة بالأطروحة التي حملتها إلى المكتب في حقيبتي على مراحل يوماً بعد يوم. أما بقية

الصناديق ففتحت ثلاثة منها فقط أخرجت منها بعض الأساسيات للمطبخ والحمّام والوسائد والشراشف والأغطية. راق لي منظر الشقة الخالية وبدا شعرياً.

كان مكتبي على الطابق الثاني في بناية بارتلت التي تحتضن قسم اللغات والآداب الآسيوية والشرق أوسطيّة. أطول اسم لأي قسم في الجامعة. قسم حشر فيه كل ما هو غير أوربي في بناية من الحجر تعود إلى القرن التاسع عشر، تم تحديثها طبعاً، لكنها احتفظت برونقها. السقوف والأبواب عالية جداً. مكتبي واسع تطل نافذته على شارع فرعي وشجرة دردار سامقة غيّرت ألوان أوراقها عدة مرّات في خريفي الأول.

* * *

منطق السدرة
Zizyphus Spina-Christi

زيزفوس، هذا هو اسمي، أو فلنقل واحد من أسمائي. فالمسمّى يتغيّر بحسب المسمّي ولغته. ستتساءلون: أنّى لي أن أعرف هذا وأنا شجرة لم أتحرّك من مكاني قطّ مذ كنت بذرة؟ أولا تعلمون أن للأشجار منطقاً، كما للطير وللإنسان؟ وأنّا نخاطب بعضنا البعض كما تفعلون. لو أصغيتم لسمعتم الريح تنقل ما تقوله أغصاننا لأغصانِنا. حتّى جذورنا تنادي في الأرض إلى أن تسمع عرق شجرة قريبة، أو بعيدة، يرد عليها.

لا أذكر زمناً لم أكن فيه هاهنا، في هذه البقعة. لكنّي لم أكن وحيدة. فهنا كان بستان عامر. وكنت محاطة بأخريات. بنات

النارنج والبرتقال والنخيل. ثم جاء يوم سمعت فيه عويلاً من بعيد. سمعت صراخاً أليماً تبثّه جذور تُقتلَع وأغصان تُكسر. وجاء البشر بآلاتهم تلك. ظننتُ أن مصيري محتوم. اقتلعوا كل أشجار البستان ولكنهم أبقوا عليّ وعلى عدة نخلات. سمعتْ واحدة منها بكائي في المغرب، بعد أن رحل البشر. فهمستْ: لا تخافي يا سدرة، لن يقتلعوا أمثالك. كنتُ صغيرة يومها ولم أكن أفقه الكثير من أمور الشجر أو البشر. سألتها بصوت خافت خائف: ولِمَ؟ فقالت: كتبهم المقدّسة تذكرنا وتذكر أمثالك بخير. يخافون أن يصيبهم مكروه إن هم اقتلعوا سدرة. فكفكفي دموعك يا صغيرة. لم أصدق تلك النخلة العجوز يومها. ظننت أنها خرفة. وظننت أنهم سيعودون في الصباح لذبحي وإطعام أشلائي لتنّور أو كانون. لكن العجوز كانت على حق.

بعد أن جرفوا جثث الأشجار الأخرى وحملوها بعيداً، أخذوا يقيسون المكان ويعاينونه ويتركون علامات على الأرض. ثم حفروها وأنا أراقبهم. جاءوا بتلال من الطابوق والرمل والإسمنت. وأخذوا يعملون كالنمل. عمروا بيتاً شاهقاً حجب عنّي النخلة العجوز التي لم أعد أراها. لكنّني كنت أسمعها تخاطب نخلة أخرى أبعد. وظلّت تسألني عن حالي بين حين وحين. بعد أن انتهى البيت جاءوا ببستانيّ ليغرس بذور أزهار وشتلات حول مستطيل زرعوه بالثيّل. وتعجّبت من بني البشر هؤلاء. يقتلعون الأشجار من ترابها ثم يعودون ليزرعوا مثلها من جديد. وكبرت شتلات البرتقال والتوت والتين لكنّني كنت الأطول والأكبر. وكبر أطفال ولدوا في البيت وأخذوا يلعبون تحتي في الحديقة. كانوا يطلبون من أبيهم أن يهزّني حين أكون محمّلة بالنبق ويتلذذون بثمري الذي بدأت أحمله

منذ سنتي الثالثة. يحكّون قلفي مندهشين من الصمغ الذي يلفظه جذعي. يستظلون بي ويقرأون ويلعبون تحتي. يدافعون عنّي حين يأتي صبية آخرون ويلقون بالحجار على أغصاني طمعاً في ثمري. وعندما كبروا أخذوا يهزّونني بأنفسهم فأطعمهم، ويشكرونني فأزيدنّهم. وأمضيتُ عمراً هنيئاً كنت فيه أميرة الحديقة. يتغذّى النحل على رحيق أزهاري. وتعشش الطيور أحياناً على أغصاني. تحسدني الأشجار على مكانتي وطولي. ولعله الحسد أو القدر الذي كاد يقتلني. هما والنمل الأبيض الذي غزا جدران البيت وأثاثه. إذ استوطنت الملكة التي يأتمر النمل بأمرها بقعة خلف البيت. لكن الخبير الذي جاءوا به أوهمهم أن عرش ملكة النمل الأبيض تحت جذعي ونصحهم بقتلي. أصبت بالهلع عندما سمعته يقول ما قاله لصاحب البيت. تذكرت كيف ذُبحَت كل الأشجار التي كانت في البستان عندما كنت طفلة وقبل أن يكون البيت. عندما طلب صاحب البيت من البستاني بعدها بأيام أن يتخلّص مني رفض رفضاً قاطعاً. «حرام» قال له. لأنني شجرة الجنة. «عند سدرة المنتهى، عندها جنّة المأوى، إذ يغشى السدرة ما يغشى. النبي، صلوات الله عليه، چان يغسّل أيده بأوراقها.» صرخت أنا من خوفي «ملكة النمل الأبيض ليست تحتي، بل هناك في حديقة بيت الجيران.» لكنهما لم يسمعاني بالطبع. أصرّ البستاني، الذي كنت أعرف أنّه يحبّني، على موقفه. وقال إنه لن يعتني بالحديقة بعد اليوم. وحذّر صاحب البيت مرة أخيرة قائلاً له إنّ كارثة ستضرب البيت وأهله إن هم مسّوني بضرر. أجاب صاحب البيت أن الكارثة ضربت البيت منذ زمن. فجيش النمل الأبيض التهم الأثاث والكتب وشوّه الجدران ولابد من القضاء عليه. هزّ البستاني رأسه ومشى إلى دراجته التي كان قد

ركنها بالقرب من باب الحديقة. فتحه وركبها وهو يردد: «وأصحاب اليمين، ما أصحاب اليمين، في سدر مخضود وطلح منضود.» ركب دراجته ورمقني من الشارع بنظرة حزينة كأنّه يودعني ثم ابتعد. اختفى صاحب البيت وعاد بعد ساعة وبيده فأس شرسة. وانهالت الضربات على جذعي. مزقتْ قلفي وجرحت لحائي، لكنني صمدتُ. كنت أصرخ من الألم والتوتة والبرتقالات تبكي حزناً وخوفاً. تضرّعتُ قائلة «يا سيدي، لا ملكة تحت جذعي.» لكنه لا يسمع. بعد مئات الضربات، تعب وتوقف وترك الفأس بجانب جذعي ودخل إلى البيت. وبتّ ليلتها أئن من الألم والحزن وجاراتي يواسينني. في اليوم التالي عاد ومعه منشار ضخم ربط ذيلاً يمتد منه بنقطة في الجدار. وعندما استنفره أخذ يصدر زمجرة مرعبة لا تتوقف. قرّبه من موضع الجرح في جذعي وشعرت بمئات الأسنان الحادة تفترس لحائي وتخترق قلبي. بهتت الألوان واسودّت الدنيا. سمعت الرازقي والآس والجمبذ، كلها تبكي معي، وعليّ. انكسر جذعي ومال النصف العلوي من قامتي. وهوت فروعي وأغصاني في الحديقة. لم أعد أرى شيئاً. وكنت أصرخ فلا أسمع صوتي ولا ما أقوله. ولا تسمعني شجرة. فأغصاني لم تعد لي.

ولم يبق إلا نصف جذعي المجروح وقلبي الممزق. ولم تكن هذه النهاية. فقد جاء بعدها وزرق قلبي وما تبقى من أحشائي بسائل كريه الرائحة وأغرق الأرض حولي به حتى اختنقت عروقي. سمعتهم يجرجرون أغصاني ويكسرونها ويحملونها بعيداً. وظننت أنني كنت أحتضر، لكنّني لم أمت. عمياء، خرساء، بلا أغصان ولا ثمار. لكن روحاً منّي ظلّت هنا. تبخّر السائل الكريه وغسلته

الأمطار. ومرت السنون. ربطوا ذات مرة خروفاً حين تخرّج ابنهم من الجامعة بحبل حول جذعي، ما تبقى مني. كان خائفاً كأنه يعرف مصيره. حسدته وقلت في سرّي: أنت ستذبح وتموت. أما أنا فقتلت منذ سنوات ولكنني لا أستطيع أن أموت.

ثم جاء يوم سمعت فيه السماء تنكسر وتنهمر منها الحمم. كأن قاع الجحيم قد انهار. اخترقت ما تبقى من قلبي شعلة أضرمت النار فيّ. خفت لكنني استبشرتُ خيراً، فهذا الجحيم سينهي موتي الذي بدأ منذ سنوات. ظننت أن روحي ستحلّق إلى الجنة، راضية مرضيّة، عند أختنا الكبرى، سدرة المنتهى. لكنني ما زلت هنا أحوم حول ذكراي. وأشعر كأن جذعي ما زال هنا.

* * *

كنت بانتظار رسالة من ودود كما وعد في رسالته التي أرفقها بالمخطوطة لكي أبعث له رسالة أولى أعبّر فيها عن حماسي وإعجابي بالمشروع. كنت قد أعددت مسودتها. لكن لم يصلني منه شيء. في الأسبوع الأوّل من الصفوف مررت بغرفة سكرتير القسم لآخذ بريدي. ولمحت من بين المراسلات الداخلية الخاصة بالجامعة (معلومات عن التقاعد والقروض الخاصة بمن يرغب بشراء بيت) وعروض شركات بطاقات الاعتماد (لطالما رفضوا طلباتي لكن الوضع تغيّر الآن. عرفوا عن وظيفتي بسرعة!) ظرفاً أسمر وطوابع غريبة مع كتابة بالعربية. قلبت الظرف وفرحت عندما قرأت اسم المرسل: «ودود عبد الكريم.» كنت قد أعطيته عنوان الكليّة. فضضته بسرعة وتلهّف. لكن الرسالة فاجأتني وخيّبت أملي.

عزيزي الأستاذ نمير
تحية طيبة وبعد،

أرجو أن تكون قد وصلت بالسلامة وأن تكون بخير. أود أوّلاً التأكد من أنّك استلمت المظروف الذي تركته لك في الفندق. أنا نادم حقّاً ولقد ادركت انّني تسرّعت كثيراً. بعد يومين من لقائنا جلستُ أقلّب مسوّدة الباب الأول من «فهرس» وأدركت انّها لا تزال مسوّدة. اخذت اشطب واغيّر وأعيد كتابة بعض المقاطع. وهذا يعني أن ما بين يديك كان يجب أن يظل بين يديّ. إنه طير لم تكتمل أجنحته بعد. لذلك أرجو منك أن تعيد المخطوطة إليّ وبأسرع ما يمكن على العنوان التالي:

السيد ياسر علاء المحترم

مكتبة عدنان

ومنه إلى يد ودود عبد الكريم

شارع المتنبي

بغداد - العراق

وارجو الّا تترجم اي جزء او تنشره في اي مكان او تخبر اي شخص عن فكرته. أرجو أن تتفهّم موقفي ورغبتي. أقدّر اهتمامك وأعتذر على الإزعاج.

خالص المودة والتقدير
ودود

أخذت الرسالة إلى مكتبي وقرأتها ثلاث مرّات ولم أفهم قراره. كان عليّ أن أذهب إلى محاضراتي للتدريس وبقيت مشوشّاً. بعد ظهر ذلك اليوم ذهبت إلى الشقة وجلبت المظروف والدفتر إلى القسم. صوّرت المخطوطة بحذر في غرفة الاستنساخ. وبعثتها إلى بريدي الإلكتروني بصيغة «بي دي إف» وطبعتها أيضاً ووضعت

النسخة الورقيّة في ملف كتبت عليه «فهرس ودود.» قرّرت أن أنسخها بخط يدي في الدفتر الذي كنت قد أخذته إلى بغداد وملأته بالصمت والبياض و«بغداد». ألا يعرف ودود وهو يسكن في شارع محلّات الاستنساخ السهولة التي يمكن بها استنساخ أي شيء؟ جلست في مكتبي أفكّر بالرسالة التي سأكتبها له.

اتصلت بابن عمّي الذي أوصلني إلى الفندق وكان قد أعطاني رقم هاتفه. دردشت معه مستفسراً عن الأحوال في بغداد ثم سألته إن كان بإمكانه أن يستفسر لي عن «شخص التقيته في بغداد» كما قلت له. «شنو راح تخطب؟ وتريد تعرف عن سُمعتها؟» ضحكت وأخبرته أن الموضوع لا يتعلّق بامرأة، بل برجل تعرّفت عليه بسرعة أثناء زيارتي لشارع المتنبّي وأنه أرسل لي رسالة. «بسيطة، بس ليش، شنو القصة يعني؟» لم أقل له الحقيقة كاملة «ماكو شي. أكو مشروع ترجمة يمكن نسويه وأريد أعرف عنّه أكثر قبل لا أقرر أتعاون ويّاه.»

بعد ثلاثة أيّام اتّصل بي وقال إن عمله التجسّسي بالنيابة عنّي أظهر أنّ ودود «يبيع كتب بالمتنبي من التسعينات. عايش بوحده بغرفة ما عنده أهل. ذكي كلّش. قاري كل شي. فلتة بس مخبّل. دخلوه جوّة بنص التسعينات وعذبوه. على أساس چان يبيع كتب ممنوعة. محّد يدري شنو قصته. عايش ويّ الكتب، ما عنده أهل. يگول كاتب عشرين كتاب بس عمره ما نشر شي. گالولي لا تتورط ويّ وَدود. تره هذا تعبانه أموره. هذا بالخساير.»

وظلّت عبارة «هذا بالخساير» ترن في بالي. لم أقل شيئاً. شكرته على مجهوده. عندما ألحّ في معرفة سبب استفساري عنه قلت له إنني أبحث عن شخص يمكن أن أعتمد عليه لشراء الكتب

بصورة دورية وإرسالها إلى مكتبة الجامعة. ولم تكن هذه كذبة. فقد كانت مكتبة الكليّة فقيرة في ما يتعلّق بالأدب العربي. لكن رئيس القسم حصل على وعد من العمادة بتخصيص منحة لشراء الكتب.

عزيزي ودود،

تحايا طيبة وبعد،

اعذرني على التأخر في كتابة هذه الرسالة. لقد كنت أنتظر منك رسالة على بريدي الإلكتروني، كما اتفقنا، لكي أتمكن من التواصل معك. فرحت أيما فرح بالهديّتين الثمينتين اللتين تركتهما لي في الفندق قبيل سفري. ديوان الكرخي (الذي أحبّ شعره!) سيسمح لي بأن أتعرّف على أشعاره عن كثب. وهو الآن من أثمن ما أجده في مكتبتي الطفلة. فلك جزيل الشكر. لكن الهدية الأثمن كانت فهرسك الرائع الذي بدأت قراءته وأنا في الصحراء على الطريق إلى عمّان ولم أتوقّف إلا عندما انتهيت منه ووجدتني متعطشاً إلى المزيد. ولقد أعدت قراءته عدة مرّات مُذّاك وفكّرت جدياً بترجمته إلى الإنكليزيّة. لقد سحرتني فكرة المشروع الفريدة كما أن لغتك سلسة وشعريّة. وأنا فعلاً محظوظ لأنك سمحت لي بالتطواف في هذا العالم السحري. ولذلك فإنني أعتبر ما جاء في رسالتك خسارة فادحة لي شخصياً ولكل قارئ. فها أنت تطالب باسترجاع الهديّة الثمينة التي أغويتني بها حين أعرتني جزء منها، وهذا من حقك كمؤلف بالطبع، لكن اسمح لي أن أخالفك الرأي. لا شك أن الشعور بالرضى التام عن أي عمل شعور نادر، خصوصاً لدى الكتاب. وبالذات أولئك الذين يقدّسون معنى الكتابة وقيمتها ويقدّرونه وأنت منهم كما هو واضح. فوكنر يقول إن العمل لا يطابق أبداً الحلم المثالي الذي يبدأ به الفنان. لكنّني أعتقد أنك تظلم نفسك ونصّك إذ تحجبه عن الآخر. قد تكون الديباجة بحاجة إلى ترتيب في تسلسل أفكارها المتلاطمة وبعض التشذيب هنا وهناك. أما متن النص، فأراك تقسو بحقه وبحق نفسك.

لن أطيل عليك. أعيد طيّاً ما حمّلتني إيّاه وكان أثمن ما حملت معي من بغداد. لكنّني أرجوك أن تعيد النظر بقرارك وأكرر أنني مهتم بترجمة النص أو أجزاء منه على الأقل إلى الإنكليزية. ولا بد أن تفكّر جدياً بنشره بالعربية قبل ذلك. مهما يكن، أرجو أن نتواصل ونكون أصدقاء على الأقل. هل بإمكانك أن تبعث لي رقم هاتف أو عنوان بريد إلكتروني؟ هناك مشروع آخر في بالي وأود أن أستأنس برأيك بخصوصه وهو كتابة رواية عنك.

عميق مودتي وإعجابي

أخوك
نمير البغدادي

* * *

بعث روي برسالة إلكترونية يستفسر فيها عن أحوالي ويقول إنّ صديقهم المصري الأمريكي الذي تطوّع لترجمة الشرائط يجد صعوبة في ترجمة بعض المقاطع لأنه لا يفهم المحكية العراقية. قال إنه يعرف أنّني مشغول بالتدريس ولذلك طلب منّي أن أرشّح من أثق بقدرته على تدقيق الترجمة خلال ثلاثة أسابيع أو شهر. كتبت له أنني مستعد للقيام بذلك بنفسي. فرح كثيراً وأرسل لي رابطاً مع كلمة سر لتحميل الفلم الذي لم يكن قد وصل إلى شكله النهائي بعد. كانا قد اختارا ثلاث ساعات من الثلاثين التي صورناها في بغداد على أن يتم تقطيعها وتشذيبها لاختيار ساعة ونصف فقط. بعث لي نصوص الحوارات المترجمة مع الجمل المستعصية أو التي لم يكن المترجم متأكداً من معناها مظلّلة بالأحمر لكي أدققها أو أترجمها.

جلست في مكتبي أمام شاشة الحاسوب الكبيرة وشاهدت الساعات الثلاث. من أين كان للمصري المسكين أن يعرف بالضبط معنى «صوندات» أو «هواية» أو «قشامر» أو «فنّك» وغيرها من المفردات التي استخدمت. ترجمت كل المقاطع والعبارات الناقصة وصحّحت بعض الأخطاء. كان قد ظنّ أن «بُسْطونا» تعني ما تعنيه في المحكية المصريّة. حزنت لأن بعض الحوارات التي كانت استثنائية ورائعة اختفت من هذه النسخة. لم أكن المخرج أو المنتج ولا أعرف إلى أي مدى سيتقبلان رأياً نقديّاً، مع أن روي كتب في رسالته أنّه مهتم برأيي كعراقي. معظم ما تم إهماله كان يتحدّث عن قسوة صدّام وعنف النظام. إنها نفس المشكلة القديمة التي واجهتها مع الكثير من اليساريين المعارضين للحرب في أمريكا. يكرّسون كل جهودهم لانتقاد سياسة حكومتهم وممارساتها وهذا حقّ وواجب. لكنهم يغمضون أعينهم عن جرائم الطاغية. بل يتغاضون عنها ويتعامون كلما سنحت الفرصة. لم يكن روي من هؤلاء لكنني أذكر أنّه قال لي ونحن في الطريق من عمّان إلى بغداد «فلمنا ليس عن صدّام والدكتاتورية، بل عن الاحتلال. الكل يعرف أن صدّام وحش شرير. يجب أن تكون هناك أفلام عن دكتاتورية صدام. لكن فلمنا عن الاحتلال.» جادلته يومها قائلاً إن الإثنين مرتبطان ببعضهما البعض، لكن أولوياته كانت واضحة.

وأيقظت الساعات الثلاث كل الوجوه والمشاهد والعبارات وحتى الروائح التي كانت تتظاهر بأنها نائمة في رأسي وتركتني كل هذه الأسابيع منهمكاً بما حولي وبمكاني الجديد. لكنها كانت قد أغمضت عيونها فحسب، تأخذ قيلولة أو استراحة، قبل أن تستيقظ وتتمطى ثم تنهض وتعاود حياتها فيّ وتعيدني إلى بغداد.

في الليالي التي تلت مشاهدتي للفلم أصبح رأسي جداراً يعْرض عليه كولاج من بعض المشاهد التي لم يخترها روي وتلك التي احتفظت بمكانها في النسخة الأخيرة. الدبابات الجاثمة على رصيف شارع أبي نؤاس. الجندي الأمريكي الذي اقترب منّا حين شاهدنا نصوّر تمثال أبي نؤاس وسألنا من يكون؟ المرأة الخمسينيّة التي بكت وهي تقول: سأغفر للأمريكان أنهم قصفونا لكنني لن أغفر لهم سنين الحصار. السجين السابق الذي قابلناه في ساحة الأندلس والذي حكى لنا عن التعذيب الذي تعرّض له وهو يدخّن بأصابع ترتعش ثم طلب أن نوقف التصوير وقال «ما أگدر.» أمينة مكتبة كلية الآداب في جامعة بغداد وهي تمشي بين الكتب المحترقة. رئيس إتحاد الأدباء الذي قال «لم تكن معركتنا وتركنا أمريكا تحارب الطاغية.» الأطفال الذين يصبغون الأحذية أمام فندق الشيراتون. سائق التاكسي الذي كان مقتنعاً أن العراق سيصبح مثل هونغ كونغ. ومشاهد أخرى لأحداث لم تقع ولم أرها أصلاً. عشرات الوجوه المتعبة المثقلة بالتجاعيد التي تنمو فتصبح أسلاكاً شائكة. أصحابها صامتون. لا تتحرّك شفاههم أبداً. لكنني أسمع همهمة ودردمة ويخيّل لي أنها تأتي من عيونهم.

* * *

منطق الألبوم

لم يكن يهوى جمع الطوابع، ولم يعرها أي اهتمام يذكر قبل ذلك اليوم عام ١٩٨٠ سمع الجرس يرنّ وعندما نظر من شباك غرفة الجلوس رأى وسام يقف عند الباب الخارجي. خرج ليستقبله

وتبادلا التحية من بعيد. وقبل أن يصل إلى الباب الخارجي ليفتحه كان وسام قد أخرج من الكيس الورقي الذي يحمله ما بدا كأنه كتاب كبير، مغلّف بقماش أخضر. ما إن فتح قيس الباب الحديدي حتى قال وسام بصوت يشوبه شيء من الحزن وهو يناوله الكتاب:
«هذا ألبوم الطوابع مالتي. أُخْذَه إلَك، دير بالَكْ عليه.»

لم يفهم قيس لماذا أعطاه الألبوم في تلك اللحظة بالذات. ابتسم فرحاً بالهدية وفتح الألبوم مقلّباً صفحاته السميكة. انبهر بألوان وتصاميم الطوابع المصطفّة في سطور مغطاة بغلاف رقيق وشفّاف يحميها ويغطي نصفها الأسفل. طوابع عراقية، قديمة وجديدة، وأخرى من بلدان عربيّة وأجنبيّة. بانت على وجوه معظمها آثار دمغات دائرية تظهر بداية ونهاية سفرتها. وأخرى بلا دمغات أو آثار لأنها لم تسافر رسمياً.

«الله. شگد حلو. بس ليش؟ إنت ما تريده؟»
«راح نسافر باچر وما أگدر آخذه ويّاي.»
«ليش تسافرون؟»
«الحكومة راح تسَفِّرنا.»
«وين؟»
«ما أدري. يمكن إيران.»
«ليش؟»
«يگولون تبَعِيّة.»
«شنو يعني تبَعِيّة؟»
«يعني أصلنا إيراني.»
قالها وسام بسخرية.

«إنتو صُدگ إيرانيين؟»
«لا ، بس جدّي چان عنده جواز إيراني.»

لم يفهم قيس معنى «التبعيّة» بالضبط ولم يستوعب يومها كيف يمكن أن يصبح وسام أجنبياً وغريباً بين ليلة وضحاها. وشعر بحزن لأن رحيل وسام يعني أنهما لن يمشيا معاً وأنه سيعود وحيداً بعد المدرسة. قبل أن يجد ما يمكن أن يقوله أضاف وسام:
«الطوابع تِنْباع بالمكتبات. تِگْدَر تشتريها. وإذا تِگْدَر تحصّل ظروف عليها طوابع، بس تخليها فوگ بخار مي حار چم دقيقة يذوب الصمغ. وبعدين تشيلها من الظرف بلا ما تتشگگ.»
لم يأبه قيس بتفاصيل وطقوس جمع الطوابع كثيراً. سأله ثانية:
«تسافرون؟ وشوكت ترجعون؟»
«ما أدري. محّد يدري.»

لمح قيس الخوف يمتزج بالحزن في عيني صديقه عندما اقترب منه ليعانقه مودعاً وكرّر «دير بالك عالطوابع.» وسام أطول منه، لا يصل رأس قيس إلا إلى صدر وسام الذي وضع يده على رأس قيس. تشبّثا ببعضهما البعض لثوان. شعر قيس برغبة في البكاء لكنه لم يبك.
حدث كل شيء بسرعة. ظل قيس واقفاً عند الباب يراقب صديقه يبتعد. وحين وصل وسام إلى نهاية الشارع اتّجه يميناً والتفت نحو قيس. وقف لثوان ملوحّاً من بعيد. نقل قيس الألبوم إلى يده اليسرى ولوح بقوة بيمينه. لم يدرك أنه لن يراه ثانية. دخل إلى البيت وأخذ الكيس إلى غرفته ولم يقل لأحد أن وسام أعطاه

إياه. وضع الألبوم على الرف العلوي في مكتبته الصغيرة بجانب أعداد «مجلّتي» و «المزمار» التي كان يحتفظ بها.

تلك كانت سنة قيس الأولى في مدرسة كليّة بغداد. أما وسام فكان في الصف الرابع الثانوي فيها. سمحت السنين الثلاث التي كانت تفصل بينهما لقيس أن يعامل وسام كأخ صغير. لكن البداية المحفزّة كانت وصية أم قيس التي رافقت ابنها في أول يوم من العام الدراسي إلى البقعة التي كان باص كليّة بغداد يقف عندها لإيصال الطلاب إلى المدرسة البعيدة في الصليخ. سألت أم قيس وسام بعد أن تعرّفت عليه إذ كانت قد لمحته من قبل في شوارع المنطقة:

«عيني إنت مو بيتكم يمْنَه بشارع المخبز؟»

«بَلي خالة.»

«مو دا أگول شايفتك قبل. شِسمَك؟»

«وسام.»

«وسام عيني، بس دير بالك على قيس بالرجعة لأن آني وأبوه نكون بالدوام. امشو سويّة. فِدْوَة. احِسْبَه مثل أخوك الصغيّر. لأن أخاف عليه من السيارات.»

«بسيطة خالة.»

«شكراً إبني.»

قبّلت أم قيس ابنها على خدّه، مما أشعره بالخجل، وأوصته أن يظل مع وسام. كانت حريصة على موضوع العودة أكثر من زوجها، الذي كان ينتظر في السيارة، لأنها هي التي أصرّت أن يسجّلا قيس في كلية بغداد، الخاصة بالمتفوّقين، والبعيدة عن البيت. بدلاً من أن يذهب إلى مدرسة أخرى قريبة كما كان زوجها يفضّل.

لم يقل وسام شيئاً لقيس يومها واكتفى بابتسامة خفيفة. وعندما جاء الباص جلس وسام في المقاعد الخلفية مع أصدقائه «الكبار» الذين كان يعرفهم من السنين الماضية. واختار قيس مكاناً خالياً بالقرب من شباك في وسط الباص. لم يريا بعضهما البعض أثناء الفرص في ذلك اليوم. فالمدرسة كبيرة؛ أربع بنايات وساحات كبيرة. لكنهما التقيا ثانية ووقفا جنباً إلى جنب بعد أن أنزلهما الباص بعد الظهر في ذات البقعة التي أخذهما منها ذلك الصباح.

طريق العودة إلى منطقتهما يستغرق نصف ساعة مشياً. يعبران الشارع إلى الجهة الأخرى ويمرّان من أمام مشرب «الخورنق» ذي الشبابيك المظللة. أمامه كان هناك موقف حافلة يمكن، نظرياً، أن توصلهما إلى موقف على بعد خمس دقائق من البيت. لكنها كانت تجيء «بالمناسبات، مرّة بالسنة» كما أكّد وسام. وحتى عندما صادف مرورها ذات يوم بعد نزولهما من باص المدرسة بثوان كانت متخمة بالركاب وتزحف ببطء. فبدت كأنها سفينة قديمة على وشك الغرق، تحاول التخلص من حمولتها. بعد عبور الشارع الرئيسي كانا يسلكان شارعاً فرعياً و يمرّان بـ«معمل الأوكسجين.» لفتت هذه التسمية انتباه قيس عندما لمح الاسم لأول مرّة على قطعة عند الباب الخارجي. تخيّل أن هناك رئة ضخمة داخل المعمل. تستنشق، على عكس رئات البشر، ثاني أوكسيد الكاربون، وتنفخ الأوكسجين في بالونات ضخمة وكأنها في حفلة عيد ميلاد لا تنتهي. كان يعرف أن البالونات تُملأ بغاز آخر، غير الأوكسجين، لكن الصورة راقت له. اهتزّت الصورة عندما رأى على قمة بناية المعمل مكعّباً خشبياً كبيراً، كأنه حجرة صغيرة، وفوقه أنبوب ينهمر منه الماء إلى قلب المعمل. ثم رأى اسطوانات الأوكسجين الطويلة

مكدسة في مرآب المعمل. وكان أحياناً يشاهد العمال يحمّلونها في شاحنات نقل صغيرة تنتظر، نصفها الخلفي داخل المصنع ومقدمتها على الرصيف. طارت البالونات التي تخيلها بعيداً وبسرعة. بعد شارع معمل الأوكسجين كانا يتجهان يساراً ويسيران بمحاذاة شارع القناة. يمرّان بمخازن قديمة ضخمة تحيط بها جدران عالية رملية اللون. كان هذا الجزء الخطر الذي تخاف منه أم وسام لأن المساحة بين جدار المخازن والأسفلت الذي تمر عليه السيارات والشاحنات الضخمة كانت ضيقة نسبياً. ومنذ أول يوم حرص وسام على أن يظل هو إلى جهة اليسار ويبقي قيس بعيداً عن الشارع. بعد حوالي خمسين متراً كانت المسافة (التي لا يمكن أن تسمّى «رصيفاً» لأنها مزيج من التراب والحصى والرمال) تتسع في النقطة التي ينتهي عندها جدار المخازن وتبدأ صفوف البيوت التي تبعد عشرين متراً عن الشارع العام.

أول رحلة عودة كانت مثقلة بالصمت، في البداية على الأقل. صمتٌ كسره قيس بسؤاله وسام عن فريق كرة القدم الذي يشجّعه. كان قد رآه ذات مرة يلعب كرة القدم في قطعة الأرض الخالية القريبة من البيت التي كان أولاد المنطقة يستخدمونها كملعب.

«الطيران، وإنتَ؟»

لم يكن قيس مغرماً بكرة القدم ولا كان يعرف الكثير عنها، لكن أباه كان يحب الطلبة، فقال بعفوية: «الطلبة» فرد وسام بسرعة «چيس طلبة» ووجد حجراً صغيراً فأخذ يدفعه بقدمه وكأنه كرة سيسددها في مرمى الطلبة. قال لقيس: «يالله خلّي نوصّل هالحجارة للبيت ويّانا.» فأخذا يتناوبان ركلها أمامهما. وكرّرا هذه اللعبة كثيراً في الأشهر التالية. وكان أحدهما يوغل في حماسه

ويخطئ التصويب فيقفز الحجر إلى الشارع وعليهما أن يبحثا عن بديل. أحياناً كانت علبة معدنية فارغة يجدانها ملقاة على قارعة الطريق تحل محل الحجارة الصغيرة.كان بيت قيس هو الأبعد لذلك أصرّ وسام أول مرة على أن يرافقه حتى يوصله بنفسه إلى باب البيت. وسأله:

«عندك مفتاح؟»

«لا، بس بيبيتي موجودة. هي تفتحلي الباب.»

وقف وسام أمام البيت وانتظر إلى أن شاهد جدة قيس تفتح له الباب. لوّح له مودّعاً وأقفل عائداً.

في الصباح كان والدا قيس يوصلانه بالسيارة إلى موقف الباص ليقف مع خمسة طلاب آخرين يسكنون في المناطق القريبة. لم يكن وسام يحادثه كثيراً بوجود الآخرين، لكنه ظل ودوداً. وساعده أكثر من مرة في الحصول على لفّة فلافل من الحانوت. كان الطلاب يركضون نحو الحانوت حالما يدق جرس الفرصة الكبيرة بعد الدرس الخامس. ويتزاحمون للحصول على السندويشات في معركة يفوز بها الأضخم والأطول عادة. كان قيس يراقب الصراع أمام شباك الفلافل وقد فقد أي أمل في الحصول على اللفّة الشهيّة ليلتهم حبّات الفلافل مع قطع الطماطم بالعنبة. عندما رآه وسام عرف المشكلة فقال له: «انطيني الفلوس آني أشتريلك.»

لم يكن وسام واقفاً مع البقية بانتظار الباص صباح السبت الذي أعقب الوداع. وعاد قيس لوحده يومها. عندما مرّ من أمام بيت أهل وسام رأى سيارة أبيه، البيجو البيضاء ٥٠٤، مركونة داخل الكاراج الذي كان بابه الحديدي مقفلاً. وقف أمام الباب متردّداً. ثم تغلّب على خجله وضغط على زر الجرس الكهربائي الدائري الصغير ذي

الضوء الأحمر. لم يخرج أحد. ضغط عليه مرة أخرى وأبقى سبابته لمدة أطول على الزر دون أن تختلف النتيجة. الستائر مسدلة. أكمل طريق العودة إلى البيت وظلّت كلمة «تبعيّة» تدور في ذهنه. لم يكن قد حصل على جواب شاف عندما سأل والديه قبل يومين «شنو يعني تبعيّة؟» لم يقل أبوه أي شيء وظل يشاهد برنامج «الرياضة في أسبوع» على التلفزيون كأنه لم يسمع شيئاً. أما أمّه فردّت «ليش تسأل؟» فأخبرها عن تسفير وسام. وضعت راحتها اليمنى على خدها وقالت «لا، خطيّة. الله يساعدهم. چان مبيّن عليه خوش ولد.» أعاد توجيه السؤال إلى أبيه هذه المرة «بابا، شنو يعني تبعيّة؟»

«يعني أصلهم أجنبي.»

«وليش يسفروهم؟»

«يجوز عدهم ارتباطات ويّ إيران.»

تدخّلت أمه قائلة «يعني كل واحد جده چان عنده جواز إيراني صار جاسوس؟ هذا شلون حچي؟»

«وشمدريج إنتي؟ أكو صدگ إيرانيين. بعدين لا تحچين هيچ گدّام الولد. خلّوني أتفرّج.»

لم تجادله لكنها شرحت لقيس فيما بعد أنّ الناس في قديم الزمان كانوا يحصلون على جواز سفر عثماني أو إيراني وإنهم ليسوا أجانب بالضرورة. كانت حزينة بعض الشيء لتسفير وسام لكن قلقها على عودة ابنها لوحده إلى البيت كان أكبر. أقنعها قيس بأنه يعرف الطريق جيداً ووعدها أنه سيكون حذراً ولن يقترب من الشارع.

ظل يبطئ خطواته دائماً عندما يقترب من بيت وسام. وينظر لعله يرى ما يدل على عودتهم. بعد أسبوعين لاحظ أن السيارة

اختفت. وبعدها بأسبوع شاهد شاباً يقف أمام البيت ويدخّن. اقترب منه وسأله «وسام موجود؟» فأجابه باستغراب «منو وسام؟»

«وسام، هذا بيتهم.»

«بابا. هذا مو بيت. هذا مقر الفرقة مال الحزب.»

لم يقل قيس شيئاً وانسحب إلى البيت. لم يتأثر والده كثيراً عندما قال له قيس إن بيت وسام أصبح مقر فرقة. ولا قدّم له تفسيراً مقنعاً، بل اكتفى بعبارته الأثيرة «إنت ما عليك بهاي الأشياء.» أما والدته فلم تضع راحتها على خدّها هذه المرّة. لكنها هزت رأسها وقالت: «خطيّة. الله يعلم وين ودّوهم.» تناهت إلى سمع قيس بعدها نتف من هنا وهناك، في أحاديث الكبار عن أن «التبعية» القوا على الحدود مع إيران. وكيف أن لا أحد يعرف إن كانوا في مخيّمات لاجئين أم أن الإيرانيين سمحوا لهم بالدخول. وجاءت الحرب وأحداثها المتسارعة لتغطي بغبارها موضوع التبعية فتتراكم فوقه مواضيع أخرى.

رحل وسام كمكتوب بدون جواب تاركاً طوابعه في بغداد. لكن قيس لم ينس صديقه. وكان يستل ألبوم الطوابع من مكتبته كلما استبدّ به الشوق. ينظر إلى الطوابع ويمرر أصبعه فوقها كأنها شبابيك سيعثر من خلالها على أثر من صديقه. لكنها كانت شبابيك غريبة تزدحم بالبشر والحجر والحيوانات والمشاهد. وخيّل لقيس أنهم هم الذين يطلّون عليه. لكنهم لا يقولون أي شيء ولا يعلنون أي شيء باستثناء سعر الطابع أو المناسبة والسنة أحياناً.

آبراهام لنكولن (٥ سنت)، هيلين كلر (غير واضح)، الملكة إليزابيث (؟بنس)، شارل ديغول (؟)، الملك فيصل الأول، بذقن

ونظارة (نصف آنه)، (ضريح جلالة الملك فيصل الأوّل (٣ فلوس)، طاق كسرى (٣ آنات)، طائرة قديمة تحلّق (٤ فلوس)، الملك فيصل الثاني (٧٥ فلساً)، منارة الحدباء، قيثارة أور، فرق الكشافة (١٩٦٧)، المرشدات (٢ فلس)، الزعيم الثائر عبد الكريم قاسم يوقد شعلة الخلود للجندي المجهول (١٦ فلساً)، أسد بابل (٨ فلس)، التوفير المدرسي (غير واضح)، معروف الرصافي (١٩٦٠)، ذكرى ثورة العشرين (رجل يمسك بالمگوار) (حزيران ١٩٦٥)، سمك بني (١٩٦٩)، شبّوط، زبيدي (؟)، فراشة (لبنان)، القطا (١٥ فلساً)، الذكرى الأولى لثورة ١٤ رمضان المباركة (٥٠ فلساً)، يوم الجيش العراقي الأغرّ (٦، ١، ١٩٦٨)، اليوم الدولي للتضامن مع الشعب الفلسطيني، المحطّة الأرضية العراقية (١٠ فلوس)، الإمارات العربية المتحدة، العيد الوطني السادس، ١٩٧٧، حملة محو الأمية (٢٠ فلساً)، الفجيرة (٥ دراهم) كأس العرب (غير واضح)، جمال عبد الناصر (غير واضح)، الوحدة العربية (غير واضح).

خطرت له فكرة شراء طوابع ليضيفها إلى ألبوم وسام. وعندما ذهب إلى مركز البريد في بغداد الجديدة كان وجه صدام حسين مرسوماً على الطوابع التي عرضتها عليه الموظفة. ارتبك وخاف أن يسألها إن كانت هناك طوابع لا تحمل وجه الرئيس. اشترى طابعين ولكنه لم يضعهما في الألبوم. كان يعرف أن صدام حسين هو السبب في رحيل وسام. فكيف يضع وجهه في واحد من تلك الشبابيك؟ قرر ألا يضع أي طوابع جديدة أو قديمة في الألبوم وأن يتركه كما هو.

ظل الألبوم في المكتبة الصغيرة. تتكئ عليه أعداد مجلات

«مجلتي» و«المزمار.» وبجنبها مجموعة قصص «المغامرون الخمسة.» انضمت إليها بعد سنة روايات أجاثا كرستي التي بدأ قيس يقرأها وهو جالس في الباص أو في البيت بعد أن ينهي واجباته. كبرت المكتبة شيئاً فشيئاً وأخذت تستقبل كتباً أكثر جدية اشتراها قيس بين فترة وأخرى، مثل «الأم» «الحرب والسلام» «قصة مدينتين» «البؤساء» «الزنبقة السوداء» روايات نجيب محفوظ وعبد الرحمن منيف وغادة السمّان. بعد أن دخل قسم الهندسة المدنية في الجامعة التكنلوجيّة عام ١٩٨٦ أخذت كتب الهندسة وملازم الأوراق تحتل مكانها على الرفوف الخشبية التي اشتراها له والده. وبعد أن تخرّج وأمضى خدمته العسكرية في مديرية الأشغال العسكرية في الأعظميّة، عمل كمعيد في الجامعة التكنولوجية وأكمل الماجستير. تزوّج من إحدى زميلاته وسكنا في شقّة أجّراها في شارع حيفا. أخذ الألبوم مع كتبه إلى الشقة الجديدة وعندما كانا يرتبانها فتحته زوجته وسألته لماذا لم يقل لها إنه كان يهوى جمع الطوابع. فحكى لها قصة وسام.

في سنين الحصار اضطر لبيع مكتبته بأكملها للحصول على ما يسد به مصاريف البيت والأطفال الثلاثة. فلا راتبه ولا راتب زوجته ولا الدروس الخصوصية التي بدأ يعطيها مجتمعة تكفي. لكنه أبقى على الألبوم مع أنه كان يعرف أن الطوابع القديمة ستدر عليه مبلغاً لا يستهان به. ظل في المكتبة التي امتلأت، بعد أن هجرتها الكتب التي باعها في شارع المتنبي، بالجرائد القديمة وبحوث الطلاب وأطاريحهم.

ظل الألبوم حتى تلك اللحظة التي اخترقت زجاج النافذة فيها قذيفة. الشقة خالية وهم جميعاً في الملجأ تحت الأرض. بدأت

النيران عملها بالسجادة القديمة ثم وصلت إلى الرفوف الواطئة: التهمت الجرائد بما فيها من أخبار وافتتاحيات وبيانات وقصائد حماسية عن النصر القادم وصور لصدام حسين وهو يجتمع مع القادة العسكريين. ثم تسلقت النيران الرفوف الأخرى لتلتهم خرائط لبنايات مفترضة في مشاريع تخرج ومجمعات سكنية تعمل بالطاقة الشمسية وأحلام هندسية. ثم تلقّفت الألبوم الذي كان غلافه الأخضر قد أصبح باهت اللون بفعل أكثر من عقدين من أشعة الشمس والغبار. صبغته ألسنة اللهب بسرعة فتقلّب من الذهبي إلى البنّي الغامق ثم استقرّ على الأسود. واحترق كل الملوك والرؤساء الذين كانوا ما زالوا يطلون من شبابيك الطوابع. كما احترقت البنايات والطيور. عندما أفلح الجيران وعامل المصعد المصري في إطفاء النيران كانت الشقة نفسها قد تفحّمت.

* * *

كنت أحتفظ دائماً بقصاصات من الجرائد أو المجلات، وأطويها أو أضعها داخل الكتب التي لها علاقة بها. حاولت ذات مرة أن أجمعها وأنظمها في ملف عندما قرّرت أن أحاول ترتيب أرشيف أوراقي وحياتي كما يحدث مرة كل سنة أو سنتين. لكنني لم أكمل المهمة إذ أدركت أنني إنما كنت أنشغل بهذه المشاريع الجانبية وأستخدمها كذريعة كي أؤجل العمل على أطروحتي. بعد عودتي من بغداد ولقائي بودود تحوّل الموضوع إلى طقس يوميّ. وكأنني أصبت بعدوى الأرشفة باللمس. في دارتموث كنت اشتري جريدة «نيويورك تايمز» كل صباح من مقهى«وايت هورس» وأتصفحها وأنا أشرب القهوة وأتناول فطوري: البيغل مع جبنة.

واقتطع ما يلفت انتباهي أو ما أعدّه مهماً من مقالات عن الحرب. خصّصت ملفاً وضعته في درج مكتبي مع ملفات أخرى وكتبت عليه collateral damage. كان المصطلح متداولاً منذ زمن لكن استخدامه ازداد بعد بداية الغزو. وكنت مهتمّاً بالصور، بشكل خاص. علّقت بعضها على اللوح الذي كان فوق مكتبي. اشتريت مقصّاً صغيراً لكي أتأكد من عدم تمزّق أي جزء من الصورة كما حصل أكثر من مرّة عندما كنت أقتطعها بيدي.

وبخّتني ربيكا عندما أخبرتها بما كنتُ أفعله. سألتني، كالعادة، عمّا فعلته ذلك الصباح وأخبرتها. «لا أفهم بصراحة؟ لو كنت تعد دراسة عن الحرب، مثلاً، فهذا موضوع آخر؟ لكنك يجب أن تنهي أطروحتك وتركّز عليها فقط. وليس أمامك الكثير من الوقت، إذا أضفنا التدريس. لماذا تريد أن تحيط نفسك بخراب الحرب وصور الموتى؟ أعرف أنّه بلدك الأصلي وأنك تشعر بالحزن وهذا مفهوم وطبيعي. أنا أيضاً أشعر بالحزن وبالذنب. أعرف أن حزنك أعمق بكثير. لا أريد أن أنافسك أو أتبارى معك في الحزن. ليس هذا قصدي بالطبع. لكن كل هذا الذي تفعله لن يفيد أحداً ولن يغيّر شيئاً البتّة. لا الشعور بالذنب ولا الحزن سيغيّران أي شيء، بل سيضرّان بك نفسياً. تقول لي إنك لا تستطيع أن تنام؟ طبعاً. كيف يمكن أن تنام بشكل طبيعي؟ قلت لك أكثر من مرّة يجب أن تذهب إلى طبيب نفساني. لديك PTSD. لديك هوس بهذا الرجل الذي التقيت به في بغداد والأمر غير صحّي:»

«الموضوع لا علاقة له بتغيير أي شيء. أريد أن أكتب رواية عن العراق» «يمكنك أن تكتب روايات كثيرة ولكن بعد أن تنهي أطروحتك وتستقر في عملك.» كنت سأقول لها إنها لا تفهمني،

لكنني لم أقل شيئاً. أخذت أشعر بالإرهاق من الجدالات المتكررة التي تستنزفني نفسيّاً. أحزنني رد فعلها، بغض النظر عن نواياها، ولم تعجبني نبرتها. وأدركت أننا أخذنا نفترق فعلياً وأن البعد الجغرافي أخذ يُتَرْجَم إلى بعد عاطفي أيضاً. هي أكثر عمليّة وعقلانيّة منّي. تنهي كل شيء في موعده، بل قبل موعده. على عكسي أنا. إذ أؤجل وأخلف بمواعيدي لنفسي وللآخرين. لا شك أنها ستصبح أكاديميّة ناجحة وبارزة، فهي تعرف كيف تلعب اللعبة. قررت بعد تلك المكالمة أن العلاقة يجب أن تنتهي رسميّاً وأنني أنا الذي يجب أن يطلق رصاصة الرحمة. كانت تتوقّع أن أزورها في بوليڤيا حيث كانت تجري بحثها الميداني حول تأثير الخصخصة على السكان الأصليّين والأساليب التي كانوا يتبعونها في مقاومتها. تحمّست للفكرة في البداية، فلم أزر أمريكا اللاتينيّة أبداً. لكن ذلك كان قبل زيارتي لبغداد وقبل أن تتدهور علاقتنا. والآن لا يمكن أن ننتظر حتى موعد الزيارة بعد ثلاثة أشهر.

«اسمعي، يجب أن نأخذ وقتاً نفكّر فيه بعلاقتنا.»

«نفكّر بماذا؟ إذا كنت تريد أن تنهي العلاقة فلماذا لا تقول ذلك بدون مراوغة؟»

«هل تعتقدين بأن الأمور تسير على ما يرام؟»

«لا ولكن الأمر لا يعتمد على التفكير، بل على تغيير طريقة التعامل.»

«وكيف نغير طريقة التعامل ونحن في قارتين مختلفتين؟»

«ماذا تريد؟»

«لا أعرف. لعلّي أريد أن أكون وحيداً.»

فاجأتُ نفسي بهذا الجواب، فأضفت:

«نعم، ربما من الأفضل أن أكون وحيداً.»

«لا أصدّق أنك تريد أن تنهي العلاقة هكذا. على الهاتف. كان بإمكانك أن تنتظر وتقولها وجهاً لوجه. أوكي، استمتع بوحدتك وأحزانك. أنت مثير للشفقة يا نمير.» أغلقتْ السمّاعة. حاولتُ الاتصال بها لكنها لم ترد. لا أنكر أنني شعرت براحة.

* * *

منطق أبو جنيّة

أنا عريق النسب، من مربط كحيلات العَجوز، والأصل من شمّر. أجدادي رافقوا الأمراء والملوك في صولاتهم وجولاتهم وتغنّى بهم الشعراء. من يراني الآن لا يمكن أن يتخيّل أنني كنت مدلّلاً ومعزّزاً. وهؤلاء البشر الذين يحتقرونني الآن كان أمثالهم يسهرون على راحتي ونظافتي في بايكة واسعة لي وحدي. لكنّني فقدت كل شيء. حتّى اسمي «أبو جنيّة» الذي أطلقوه على بعد ولادتي بسبب غرّتي. أدهم أبو جنيّة. اسمي فقدته. فهذا الذي انتهي أمري بيده سمّاني «عْجوزي» «هَمْ عَجوز وهَمْ يِتْعاجَز» هذا ما قاله عنّي وما يظل يردّده. ولم يفهم، ولن يفهم، أنني إنّما كنت أعترض على معاملته الخشنة لي وأسجّل موقفاً. وأحاول أن ألفت انتباهه إلى الجرح الذي في رقبتي. وإلى النتوء المعدني الذي يبرز من الطوق الحديدي الذي أنوء تحت ثقله. لكنه لا يعرف إلا لغة السوط. حتى البقية الذين يكدحون مثلي هنا يسخرون من افتخاري بالحياة التي كنت أعيشها فيما مضى. لا يصدّقون أنني كنت آكل

الجزر والشمندر وحتى التفاح. كيف لهم أن يصدّقوا وهم لم يعرفوا إلا هذا الزبل اليابس الذي يأكلونه بنهم. لا يصدّقون أنّني كنت أطير في المضمار وأترك الآخرين خلفي يعميهم الغبار الذي تثيره حوافري. أحمل فارساً خفيف الوزن وجمعٌ من البشر يصرخون باسمي ويشجعونني ويهللون لي حين أصل خط النهاية. يكلّلوني ويضعون الورود حول رقبتي بدلاً من هذا الطوق الصدئ. يطبطبون على ظهري ويمسدّون خدي وأنا أحمحم. يصطحبونني إلى بايكتي وينزعون عني السرج واللجام. يحممونني ويمشّطون شعري ويتركونني كي أرتاح. كانوا يتعبونني في التدريب أحياناً قبل السباقات لكنهم يعاملوني كأمير. ولم يخامرني شك أنني سأترك ذاك النعيم. لكن فرساً آخر رفسني في عرقوبي ذات سباق وتعثرت وسقطت فأسقطت الفارس عن صهوتي. كان أول سباق لم أحرز المركز الأول فيه. وظل الألم ينخزني في عرقوبي ولم تنفع الطبابة ولا الأدوية. وصرت من الخاسرين. وحل محلي آخرون. بقيت في بايكتي لزمن ثم أخذوني إلى السوق وباعوني بثمن بخس لهذا الذي يظل يصرخ بي. سحبني وراءه في الشوارع بين السيارات والبشر إلى حيث كان قد ركن عربته. وضع هذا الطوق الحديدي حول رقبتي وثبّت اللجام والرسن وقطعتي الخشب والحبال. ومن يومها وأنا أسحب عربته التي يملأها بكل ما هو ثقيل. يقتلني العطش والجوع. لا يعتني بي أحد ولا ينظفني بشر. أهش الذباب والبعوض بذيلي. ولكن مواضع كثيرة تحكّني. أنتعش حين تبكي السماء وتغسلني ولكنها لا تمطر كثيراً. في نهاية كل يوم أسحبه هو وعربته إلى بيته ويربطني إلى شجرة في الفناء الخارجي بعد أن يحررني من نير العربة. يزعجني الأطفال كثيراً وتنبح عليّ الكلاب

السائبة كذلك. ليلة أمس أرعدت السماء كما لم ترعد من قبل. احترقت النجوم وخلتها تسقط عليّ. لكنها لم تمطر قط.

* * *

في آذار ٢٠٠٤ قرأت مقالة في جريدة «نيويورك تايمز» عن غسل الموتى. تحدثت الصحفية عن رجل في الثالثة والثلاثين، اسمه رعد عبّود، يغسل الجثث منذ كان في الثالثة عشرة. ويتذكر الجثث التي كانت تأتي في الثمانينيات عندما كان النظام يعدم ضحاياه. ظنّ رعد أن الوضع سيتحسن بعد ٢٠٠٣ ولكن ما حدث هو العكس تماماً. يبدأ عمله في السابعة صباحاً ولا ينتهي إلا في الخامسة عصراً. يشعر بمسؤولية تجاه الموتى لكنه يكتئب كلّما سمع الأخبار لأنه يعرف أن الجثث ستتراكم تحت يديه. نفسيته تعبانة وقد اتخذ قراراً مؤخّراً بأنه سيكون آخر مغسلچي في عائلته «لن أسمح لابني أن يرث هذه المهنة، لقد دمّرتني.»

مسحت دمعة سقطت على خدي وأنا أقرأ المقالة. أعدت قراءتها حالما انتهيت. هزّتني تفاصيل وطقوس الغسل وظللت أفكر برعد وهول ما يلاقيه كل صباح. عندما وصلت إلى المكتب قصصت المقالة ووضعتها في ملف جديد. وبحثت في الانترنت عن الموضوع وتفاصيله. خطرت لي فكرة أن أكتب رواية عن رعد عبود ومن هم مثله. ثم شعرت بالذنب وكأنني أخون ودود والرواية التي أحلم بكتابتها عنه! ذهبت إلى مكتبة الجامعة واستخرجت عدداً من كتب الفقه التي تتحدث عن أحكام غسل الموتى وصورت الأجزاء الخاصة بالموضوع وأضفتها إلى الملف. وجدت لقاء صحفياً مع أحد المغسلچيّة فطبعته وأضفته إلى الملف. تخيلت أن سارد الرواية

سيكون من عائلة تمتهن هذه المهنة. وسيكون بغدادياً من الكاظمية، لا من النجف مثل رعد. ولكنه سيتجه نحو الفن منذ طفولته وسيرفض أن يكون مغسلچياً وسيسبب هذا صراعاً مع والده. تشكّلت الكثير من التفاصيل وفكّرت بها كثيراً حتى أصبحت حقائق واضحة بالنسبة لي وصرت أرى المغيسل والشخصيات تتحدّث. لكن كان عليّ أن أضع كل ذلك على الورق. ولم أكتب شيئاً. حاولت كثيراً ولم أنجح. وظل الملف كما هو.

* * *

أنا محاصر ومراقب. مثل الطير في محبس. لا سماء لي. بم التعلّلُ؟ لا أهلٌ ولا وطنُ. معتقل. وجريمتي أنّني أعرف وأريد أن أعرف. قد تظنني مجنوناً يهذي، ولن ألومك. فلا أحد يصدّقني. ومعظم الذين أفشيت لهم سري وأشركتهم محنتي في الماضي، وهم قلّة قليلة، ظنوني معتوهاً. وبدلاً من أن يحاولوا تفهّم محنتي، تصدّقوا عليّ بالشفقة التي أمقتها. إنهم لا يرون ما أراه ولم يخبروا ما خبرته. ولا يمكن أن يتخيّلوا العذاب الذي أعيشه. وقد لا يدركون أن عدسات الكاميرات في كل مكان، وعيون العسس كذلك. ولا يدركون أننا في سجن كبير وكل تحركاتنا وأفكارنا مرصودة ومسجّلة بدقّة. حتّى هذه الرسالة التي أخطها لك الآن، أنا على يقين من أنهم سيقرأون كل كلمة فيها ويقلّبون معانيها ويرفعون بها تقريراً قبل أن تصل إليك. يقولون لي إنني لم أعد في السجن وأنني أهذي. فلا قضبان ولا حرّاس. لكنهم لا يرون ولا يبصرون. أختنق. أختنق ولا أموت. ولا مهرب من كل هذا. المهرب الوحيد هو الموت. لكنني أعرف ألّا شيء بعد الموت، ولا «بعد» سوى

العدم، وإلا كنت انتحرت منذ سنين لأنتقل إلى كينونة أخرى أقل عذاباً من هذه. لا شيء سوى العدم. نعم. ولا جحيم إلا هذا الذي نعيشه الآن. أنا أؤمن بما يقوله كالڤينو عن الجحيم. ثمّ أن الموت سيعلن انتصارهم عليّ. قد لا أنتصر عليهم أبداً، لكنّني لن أعلن الهزيمة ولن أعترف بها مهما كان الثمن. سأموت واقفاً على أفكاري. ستتساءل بالتأكيد: لماذا أكتب لك إذاً؟ لا أعرف. لا أمل لي في أن تتفهّم أوتتقبّل كلياً رؤيتي للأمور على حقيقتها. وما شأنك أنت أساساً؟ هل تورّطت بالتعرّف عليّ؟ لعلّك ذريعة، وسامحني على هذا التعبير، للتخاطب. لعلني أخاطب نفسي فيك. كان يمكن أن أكونك وتكونني، لكن عبث التاريخ (عبث الأقدار). لكنني سأعود إلى كالڤينو وما كتبه في مدنه اللامرئية. لقد حفظت هذه الفقرة: «إن الجحيم، إن وجد، ليس شيئاً سيكون. بل إنه هنا. الجحيم الذي نعيش فيه كل يوم والذي نكوّنه نحن بوجودنا معاً. هناك طريقتان للتخلص من معاناته. الأولى سهلة للكثيرين: أن تقبل بالجحيم وتصبح جزء منه حتى لا تعود تراه. الثانية خطرة وتتطلب اليقظة والقلق: أن تفتش وتعرف كيف تتعرف على مَن وما، ليسوا جحيماً، في خضم الجحيم، ثم ابق عليهم، اعطهم فضاء!» وأنا، يا سيدي، أراهن مرة أخرى، وربما أخيرة، على أنك لست جزء من الجحيم.

* * *

نصحني رئيس القسم بشراء سيارة. «سيكون الشتاء قاسياً جداً ومن المستحيل التنقل مشياً على الأقدام في هذه المدينة. أنصحك بشراء سيارة.» أعجبني تصميم الـ«هوندا، إلمنت» فاشتريت واحدة

سوداء. أعطاني البائع وثيقة تسجيل مؤقتة ولتحويلها باسمي كان عليّ أن استصدر إجازة سياقة خاصّة بولاية نيوهامپشير. وبما أنه لدي إجازة سياقة من ولاية ماساتشوسيتس فظننت أن الأمر سيكون سهلاً لكن الموظفة في دائرة السيارات، والتي كانت في بدايات الخمسينيّات، ترتدي نظارات سميكة، وشعرها رمادي محبوس في تسريحة عمرها عقدين، قالت لي إنّ القوانين الجديدة تتطلب تزويدهم بنسخة من شهادة الميلاد. ضحكت وقلت لها:

«لا أمتلك نسخة من شهادة الميلاد.»

«لماذا. أين هي؟»

«في بغداد.»

«لماذا؟»

«لأنني ولدت هناك.»

«ألا يمكن أن تتصل بهم وتطلب أن يرسلوها لك؟»

«يا سيدتي، هل قرأت الأخبار مؤخراً أو شاهدت التلفزيون؟ هناك مخطوطات عمرها مئات السنين وآثار وأراشيف احترقت وضاعت. من سيبحث عن شهادة ميلادي بعد كل هذا؟»

«أنا آسفة، لكن هذا هو القانون. لا أستطيع أن أكمل المعاملة بدون شهادة الميلاد.»

«ما الغرض من هذا التعقيد؟ كنت أسكن في ولاية ماساتشوسيتس واستصدرت إجازة سياقة هناك بكل سهولة.»

«لقد حاول عربي، مثلك، التسلل عبر الحدود من كندا إلى هنا قبل سنتين كي يذهب بعدها ويفجّر مطار لوس آنجلس.»

«وهل تعتقدين بأن الإرهابيين سيظلّون يكررون نفس الخطة حتى بعد أن تفشل؟»

«لا أعرف يا سيدي. هذه ليست مهمتي.»

اتصلت بمكتب محامي الجامعة كي يساعدني في الموضوع ووعد أن يحاول. لكنه أبلغني بعدها بتشدد السلطات بهذا الخصوص «أعرف أنه عبث، لكن ليس باليد حيلة.» بعد شهر انتهت مدة التسجيل المؤقت للسيارة وأخذت سيارات الشرطة توقفني كلما لاحظوا أن تاريخ انتهاء التسجيل قد فات. وبالرغم من أنني كنت أشرح لهم مشكلتي التي تمنعني من استصدار إجازة سياقة ومن تسجيل السيارة في الولاية وبالرغم من تعاطفهم معي أحياناً فإنهم كانوا يسجّلون مخالفة يتوجب علي دفعها كل مرّة. وتراكمت المخالفات التي لم أدفعها حتى أصبح مجموعها أكثر من ستمئة دولار. وخرجت ذات يوم لأجد أن الشرطة وضعت قفلاً حديدياً ضخماً حول العجلة الأمامية اليمنى للسيارة يمنعها من الحركة. ووجدت إخطاراً وردي اللون موضوعاً تحت ماسحة الزجاج يأمرني بدفع مجموع المخالفات أو الظهور أمام المحكمة خلال شهر من تاريخ الإخطار.

ذهبت إلى المحكمة لأشرح تعقيدات القضية. كانت القضايا التي سبقت قضيتي تتعلق بجرائم سرقة أو اعتداءات خطيرة. جاء دوري بعد شاب كان متهماً بطعن زميله في العمل بعد شجار. عندما شرحت للقاضي مشكلتي وبّخ الإدعاء وقال له «هل يحب أن أضيّع وقتي في أمور كهذه؟» والتفت إليَّ قائلاً «أنت أستاذ جامعي. تصرّف. بع السيارة.» أمرني بأن أدفع نصف الغرامات.

وفي آخر المطاف بعت السيارة إلى تاجر السيارات الذي باعني إياها بخسارة. واشتريت جزمة ثقيلة للثلج. وفي الأيام التي كان

الثلج يسقط فيها بغزارة كنت أخوض فيه في طريقي إلى المكتب وأسبُّ أسامة بن لادن وجورج بوش والجزائري الذي حاول عبور الحدود.

* * *

«يجب أن نقنع/ الأحياء/ بأن الموتى لا يمكنهم أن يغنّوا»

* * *

أسمع الحسّون يغرّد. أفتح عينيّ، فأراني تحت شجرة محمّلة بالثمار، لا أعرف لها اسماً، وقد حطّ الحسّون على أحد أغصانها. يتوقّف عن التغريد. يثني رأسه وينظر إليّ كأنّه يعرفني. حين أمد يدي لألمسه يطير بعيداً ويهتزّ الغصن. ألمح الثمرة الخضراء، كأنّها ليمونة. لكنها ليست ليمونة. حين أمسكها تذوب وتصبح قطرات ماء. تتبلل يدي وتختفي الشجرة.

* * *

ظلت شقتي في هانوفر بدون تلفزيون. فمشاهدة الأخبار على القنوات الأمريكية كانت تصيبني بمزيج من الاكتئاب والغضب. كما أنها ستضيع الوقت الثمين الذي أحتاجه لإكمال الأطروحة. ولم يكن باستطاعتي الحصول على القنوات العربية أصلاً لأن الكليّة لم تكن تسمح بوضع الصحون على سطوح البنايات التي تمتلكها لأسباب تتعلق بجماليات المكان! وبدون الصحن لا يمكن الحصول على الرزمة العربية. وبعد أن قرأت انتقادات كثير من العراقيين لتغطية القنوات العربية أدركت أنه أفضل لصحتي النفسية. مع ذلك

كنت أغشّ وأخلف بوعودي لنفسي. فبعد شراء عشائي من حانوت الطلبة في الكليّة كنت أذهب في بعض الأماسي إلى القاعة التي أدرّس فيها في الصباح، وكانت قريبة من مكتبي، ومزودة بشاشة كبيرة لعرض الأفلام التعليميّة أثناء المحاضرات. وكنت أعرف أنها مرتبطة بشبكات التلفزيون، فأشاهده هناك على الشاشة الكبيرة. أطفئ النور وأشاهد الأخبار الأمريكيّة في الظلام. وبعدها برنامج كوميدي لممثل أسود اسمه «ديف شابيل» يسخر فيه من النظام السياسي وعنصرية وطبقيّة المجتمع. وفي الحادية عشرة والنصف من كل ليلة كان موظف الأمن يمر في جولته اليوميّة لإقفال القاعات. أول مرة كلمني بخشونة «ماذا تفعل هنا؟ القاعة مغلقة. يجب أن تخرج.» فقلت له «أنا أستاذ وأدرّس في هذه القاعة ولدي مفتاح.» طلب مني أن أريه هويتي ففعلت. ظل يفتح الباب كل ليلة ويوشك على أن يقول شيئاً، ثم يقول «آه، أنت طبعاً.» ويذهب.

في بداية فصل الخريف وصلتني رسالة من كيت، إحدى الطالبات التي كانت في السنة الأولى من صف اللغة العربية الذي كنت أدرّسه تقول فيها إنها بصدد تأسيس جمعية «طلاب ضد الحرب» وسألتني إن كنت مستعداً لتقديم المشورة لها ومساعدة المجموعة. استغربت أنها لم تحادثني وجهاً لوجه ثم تذكّرت أنها خجولة. وافقت وطلبت منها معلومات أكثر. ردّت بأنهم يخططون للقيام بفعاليات لتوعية الطلاب حول آثار الحرب السلبية وسيحاولون تنظيم سلسلة محاضرات. كتبت مشجّعاً ومعرباً عن تحمّسي للفكرة وأنها ضرورية لتحريك الحوار بخصوص الحرب في الكلية وبين الطلاب. في الأسبوعين الذين أعقبا حوارنا الإلكتروني شاهدت نسخاً من إعلان بحروف كبيرة، معلقة على الجدران

ومساحات الإعلانات في بنايات الجامعة وفي المكتبة يهتف: «هل أنتم غاضبون بسبب الحرب؟ فلنفعل شيئاً إذاً.» ويدعو، بحروف أصغر حجماً، الطلاب المهتمين بالموضوع لحضور الاجتماع التحضيري الأول. لم أتمكّن من حضوره شخصياً لأن موعده تضارب مع اجتماع القسم الشهري. في اليوم التالي كنت أعيد الواجبات للطلاب في نهاية الدرس وسألتُ كيت عن الاجتماع. فابتسمت ابتسامة مرتبكة وقالت «للأسف، لم يكن عدد الذين جاءوا كبيراً، سبعة فقط، لكنهم متحمسون. وأرجو أن يزداد عدد أعضاء الحركة مستقبلاً.» حاولت ألا أظهر خيبة أملي. وقلت لها «المهم أنها بداية. لا تترددي في طلب أي شيء منّي.»

سبعة طلاب من بين ستة آلاف. نسبة تعيسة فعلاً ولكن لماذا أفاجأ، فمعظم هؤلاء الطلاب من عوائل غنية والكثير منها يمينيّة محافظة. الحرب وتكاليفها بعيدة عن عوالمهم ومشاغلهم، وإن كانت قريبة فهم يؤمنون بمنطقها.

أعجبتني فكرة أولى فعاليات المجموعة وهي غرس ورود بيضاء ترمز إلى ضحايا الحرب في الساحة الرئيسية والوقوف أمامها بصمت في الصباح الباكر ثم إبقاؤها لمدة يوم كامل. وهكذا يراها الطلاب منذ نصف الساعة التي تسبق ذهابهم إلى الحصة الأولى في الساعة الثامنة وحتى المغرب. استيقظت أبكر من العادة وذهبتُ إلى المكان المحدد للوقفة حسب البريد الإلكتروني الذي أرسلوه لي. وجدت أعضاء المجموعة ومعهم كيت يقفون بصمت أمام الورود التي غرست بالقرب من واحدة من أشجار الدردار العملاقة. يحملون لافتات كتبوا عليها: «أوقفوا الحرب الآن.» «كلّا للحرب» «نعم للسلام» أبطأ بعض الطلاب مشيهم ليلقوا نظرة على المشهد

الغريب في الصباح الباكر. لكن الأغلبية الساحقة استمروا في مشيهم إلى صفوفهم واكتفى بعضهم بإلقاء نظرة سريعة لا مبالية، بينما ضحك البعض الآخر. أحصيت عدد الورود وكان ٣٧ حاولت أن أفهم لماذا هذا العدد بالذات ولم أجد تفسيراً منطقياً. في الثامنة إلا عشر دقائق جمع أحد رفاق كيت اللافتات وشكر المشتركين وانفضوا كل إلى صفه. اقتربتُ منها وسألتها عن عدد الورود «إنه يمثل عدد الجنود الأمريكان الذين ماتوا في العراق إلى الآن: ٣٧٠، وردة لكل مئة». وقبل أن أسألها عن العراقيين قالت من تلقاء نفسها «للأسف لا نعرف بالضبط عدد العراقيين الذين ماتوا». واتفقنا في المجموعة أن من الأفضل سياسياً أن نركّز في البداية على خسائر جيشنا وسنسلط الضوء على المدنيين لاحقاً.

* * *

محطة قطار (غريب أن أحلم بقطار ولم أركبه إلا مرة واحدة إلى الموصل)، لكنها لا تشبه المحطة العالمية في بغداد، ولا تشبه أي محطة أخرى في أي مكان. أقف وحيداً على الرصيف وهناك قطار على وشك الانطلاق. يعلن صوت جهوري النداء الأخير للقطار، لكنه لا يقول شيئاً عن وجهته أو اسم المدينة التي يقصدها. لا أفهم ما يحدث. أنظر إلى شبابيك القطار فأبصر أهلي وأصدقائي يلوحون من الشبابيك ويشيرون إليّ بالإسراع. أمشي نحو أقرب باب كي أستقلّ القطار. يقول لي رجل يرتدي بدلة زرقاء وقبعة يقف بجانب الباب: هذا القطار ذاهب إلى المستقبل. أين تذكرتك؟ أبحث في جيوبي عن تذكرة فلا أجد شيئاً. يقول لي إنه لا يستطيع أن يسمح لي بالصعود ولا يمكن أن أشتري التذكرة على

القطار. علي أن أذهب إلى مكتب التذاكر في الطابق الأرضي. استدير كي أبحث عن مكتب التذاكر فأشاهد قطاراً آخر على الجانب الثاني. وأرى وجوه أهلي وأصدقائي يلوّحون من الشبابيك ويشيرون إلي بالإسراع. اتجه نحوهم فأرى نفس الرجل يكرر: هذا القطار ذاهب إلى الماضي. أين تذكرتك؟ ويكرر ما قاله لي قبل ثوان. لا يمكنك الصعود بدون تذكرة!

* * *

في بداية ٢٠٠٥ اتصلت بي صحفية تعمل في صحيفة «ذا ڤالي نيوز» قائلة إنها تعد تحقيقاً عن آراء العراقيين المقيمين في المنطقة بخصوص الانتخابات البرلمانية التي كانت تجري في العراق. ترددت أول الأمر وسألتها إن كان هناك ما يكفي من العراقيين في المنطقة؟ كنت أعرف عن الأستاذ العراقي الذي يدرّس في قسم التاريخ منذ سنوات والذي ترك العراق عام ١٩٨٣ والذي كان غريب الأطوار. التقيت به مرّة واحدة فقط بعد وصولي وفشلت محاولاتي في التقرّب منه. كتبت رسالة إلكترونية واقترحت أن نشرب القهوة واتفقنا على موعد لكنه بعث رسالة اعتذار، ثم تعللّ بالمرض. ثم سمعت بعدها أنه يفضّل العزلة وليس لديه أصدقاء أساساً. يعيش بعيداً عن الجامعة ولا يأتي إلا للتدريس يومين في الأسبوع. «نعم، هناك ثلاثة منكم. هناك طالب من العراق جاء على منحة «فولبرايت» هذا الفصل. ألا تعرفه؟» «كلا» وافقت وأجبت على أسئلتها التي كانت ساذجة، كالعادة. استغربتْ عندما قلت لها إنني لن أشارك في الانتخابات. «لماذا؟ هناك مراكز اقتراع في نيويورك وواشنطن. ألا تريد أن تمارس حقّاً ديمقراطيّاً يموت

الناس من أجله؟» «لا أؤمن بشرعية أي انتخابات تجري في ظل احتلال عسكري. كما أنني لا أستطيع أن أشارك في انتخابات وأنا أعيش على قارة أخرى بينما يحرم مِئات الآلاف من العراقيين من التصويت.» «من الذي حُرِم من التصويت؟» «أهل الفلوجة، مثلاً.»

بعد نشر المقال كتبت قارئة تعليقاً على موقع الجريدة تتفق معي فيه. لكنها كانت الوحيدة بين عشرة تعليقات لقرّاء آخرين استهجنوا ما قلته ووصفني بعضهم بـ«ناكر الجميل.» كان ألطفهم قارئاً متقاعداً عرّف عن نفسه بأنه عسكري سابق وكتب «لعل من مظاهر الانحطاط الأخلاقي في بلدنا أن يسمح للسيد البغدادي بالتدريس في جامعاتنا وبغسل أدمغة الشباب بشكل منظّم وأن يتقاضى راتباً على ذلك.»

* * *

«اصهر أحزانك كلّها، واصنع منها رمحاً، وابحث عن ساعد قويّ، ليصوّبه إلى قلبك.»

* * *

اشتقت إلى كيمبرج فزرت علي هادي ليومين. سهرنا نشرب ونتسامر. وخفت، مرة أخرى، بأن الرثاء والحزن قد يصبحان ترفاً. لم ترفق بي آلهة النوم تلك الليلة. ولم تساعدني قراءة رواية لزيبالد. لديه تلفزيون في غرفة نوم الضيوف. فتحته لعله ينجح في إثقال جفنيّ وينقذني من الأرق. التنقّل بين القنوات يشبه النبش في القمامة. بحثت عن مزيج مناسب من الضجيج والضوء ليضجرني وينيمني. في الثانية صباحاً أستقررت على قناة «بي بي إس.» مقدم

برنامج «آنتيك رود شو» يدور ويتحدّث مع الذين يعرضون أنتيكات لتقييمها وبيعها. ساعات قديمة، قطع أثاث، لوحات. تعثر الكاميرا على امرأة عادية المظهر في أواخر الخمسينيات تقف بفخر بجانب معروضها.

«ماذا لديك هنا يا سيدتي؟»

«إنه مهد من مهود السكان الأصليين الهنود من الجلد الحقيقي، مصنوع باليد.»

«واو. جميل جداً. ومن أين حصلت عليه؟»

«هو لجدي الذي كان جندياً. وورثته أنا عن أبي.»

«وكم قيمته؟»

«قيل لي إنه يمكن أن يباع بـ ٤٦ ألف دولار»

«واو، تهانينا»

«شكراً»

أتشبّث بالمهد، لكن مقدم البرنامج يبتعد عنه وتتبعه الكاميرا. أطفئ التلفزيون وأدع الظلام يحتلّ المكان من جديد. والأشباح أيضاً. أحاول، في الظلام، أن ألمس المهد قبل أن يتم إفراغه ووضعه في مدار «الحضارة» كي يصبح «وثيقة ثقافية». مداره السابق الآن مسكون بالإشباح. شبح ڤالتر بنيامين يحوم في الغرفة: قلتُ لك «ليست هناك وثيقة حضارة ليست، في ذات الوقت، وثيقة للبربرية»

* * *

تريد أن تكتب رواية عنّي؟

ابتسم قلبي حين قرأت هذه الجملة في مكتوبك الذي أفرحني

كثيراً وصوله. لا أخفيك سرّاً أنني شعرتُ بشيء من الزهو. فلطالما فكّرت أن حياتي، ما مضى وما تبقّى منها، جديرة بأن تكون رواية رائعة، لا بل حتى فلماً سينمائياً مبهراً. لكنّني أدرك أيضاً أن الملايين في هذا العالم مقتنعون بأن حيواتهم ملاحم تنتظر من يدوّنها. لكن الكآبة انقضّت وأرعبت الزهو الذي طار بعيداً كطير. كأن الزهو لا يليق بي إذ يتجرّأ على عرش الكآبة وسلطانها الذي أقامته داخلي. فكيف يغامر ببناء عشّ له بالقرب منها؟ لا أقصد، بالطبع، أن الفكرة، بحد ذاتها، هي سبب الكآبة. كلا. فأنا أؤمن، وهذه ليست مبالغة ولا بلاغة، بأن البشر كتبٌ (والعكس أيضاً صحيح). نحن مخطوطات ومسوّدات كتب. ولكن، لكي نكتمِل ونُقرأ، يجب أن نموت. عندها فقط سوف نُعْرَف. فالأشياء تعرف بتمامها. التمام هو الاكتمال. وكذا الأشخاص. لا يمكن إجراء التشريح الكامل لجسد إلا بعد الموت. عندها يمكن أن تدرس كل الأنسجة والطبقات والتجاويف. و«آركيولوجيا الإنسان» لا يمكن أن تبدأ إلا عندما يكون جثة!وهكذا فربما عليك أن تنتظر حتى تحين الساعة وأهبط إلى العالم السفلي لأهيم هناك مثل أهلي وأجدادي، ومعهم، لكن دون أن أعود كما أعود دائماً. عندها يمكن أن تكتب روايتك. ولك مطلق الحريّة في أن تستخدم اسمي الحقيقي. لكن هناك مشكلة أخرى يا عزيزي. نحن جميعاً كتب. نعم. ولكننا نختلف أيضاً في تواريخنا وأجناسنا الكتابيّة ونوع الورق وطريقة التغليف والحبر والخط والبنط. ها أنذا أكتب كورّاق. المهم، نحن كتب وأنا كتابٌ فُقِدَ جزء منه إلى الأبد. هذا ما يخيّل لي ولكنّني أشعر بأنّه حقيقة ملموسة. لقد مزق أحدهم عدداً كبيراً من أوراقي وسرقها أو أخفاها أو أحرقها. ولو كنت أعرف ما كان مكتوباً في

تلك الأوراق لهانت المعضلة. لكنّني لا أعرف. منذ سنوات وأنا أبحث عنّي فيّ ولا أعثر، بل أتعثّر وأتبعثر. هناك فراغات وبياضات شاسعة في رأسي. ولا أستطيع أن أدخل يدي وأدون عليها ما كان، أو ما أظنّ أنّه كان. أتذْكُرْ، يا صديقي، الأيام الخوالي حين كان البث التلفزيوني بقناتين فقط؟ وينتهي بعد منتصف الليل بساعة أو أكثر؟ ويختتم بالسلام الجمهوري وبعدها يظهر ما كنّا نسميه «النمش»؟ تلك النقاط الرمادية والبيضاء المتذبذبة وكلها تتدرب على لفظ حرف الشين. هناك مساحات في ذاكرتي وحتى حياتي ينقطع فيها «البث.» أحياناً حتى النقاط الرمادية والبيضاء تختفي هي الأخرى. ويختفي صوت الـ«ششششش» ويطغى السواد. فلا أصوات ولا ألوان.

* * *

دعاني أستاذ مساعد في قسم العلوم السياسيّة لحضور صفّه عن السياسة الأمريكيّة للحديث عن العراق والحرب. وقال لي إن عراقياً آخر سيكون حاضراً أيضاً لنشترك في مناظرة. كانت القاعة كبيرة توزع فيها حوالي سبعين طالباً في المدرّجات. كان قد كتب لي في رسالة إلكترونية بأنّه يريد منّي أن أتحدث لمدة ربع ساعة قبل أن أجيب على أسئلة الطلبة. حاولت أن أتحدّث بموضوعية عن تناقضات خطاب الحرب وأهدافه الاستراتيجيّة بعيداً عن أوهام الديمقراطية وذكّرت بما فعله الحصار الاقتصادي بالمجتمع العراقي وأشرت إلى العنف المتصاعد وضرورة إنهاء الاحتلال بأسرع وقت وتسليم العراق إلى الأمم المتحدة. شكرني الأستاذ واستغرب مما قلته عن الأمم المتحدة التي لا تتمتع بثقة عالية وطلب أن نعود إلى

هذه النقطة فيما بعد. كان الضيف الآخر هو رحيم. الطالب العراقي الذي كان قد فاز بمنحة «فولبرايت» للدراسة في الكليّة. طرق باب مكتبي ذات يوم وقدّم نفسه وقال إنه سمع بوجود أستاذ عراقي وأحّب أن يتعرّف عليّ. دردشنا قليلاً وسألته عن كيفيّة حصوله على المنحة فقال إنّه كان يعمل مترجماً مع الجيش الأمريكي وإن الضابط المسؤول كتب له رسالة التوصيّة. حين جاء دوره تحدّث عن معاناة عائلته أثناء حكم صدام الذي أعدم أحد إخوته وقال إنّه جاء من العراق قبل شهرين وأنه يستغرب ما أقوله أنا، لكنه يفهم ذلك لأنني بعيد عن العراق. قال إن العراقيين يحلمون بالحرية منذ ثلاثين سنة وأن أمريكا ساعدتهم في الحصول عليها وهو يقدّر تضحيات الجنود الأمريكان من أجله ويشكر الشعب الأمريكي. صفقوا له بحرارة. نظر إلي وابتسم منتشياً بانتصاره.

* * *

للخراب أيضاً لوح محفوظ، في مكان ما، في العالم السفلي، كتب عليه اسم كل ما ومن سيموت ويندثر. أراني أطير كل ليلة وأقرأ ما هو مكتوب وأعود لأدوّنه في فهرسي.

* * *

دخلت إلى قاعة الصف مبكراً كعادتي ووضعت قدح القهوة التي اشتريتها على الطاولة وحقيبتي على الكرسي. أخرجت الكتاب وملف الواجبات المصحّحة ووضعتهما على الطاولة. بحثت عن القرص الممغنط المرافق لكتاب اللغة العربيّة لأضعه في جهاز القاعة استعداداً لبدء الحوار مع الطلاب وتمرينهم على استخدام

العبارات الخاصة بالدرس. والذي تظهر فيه شخصية مها، أمريكيّة من أصل مصري، وتتحدث عن حياتها باستخدام جمل عمليّة ومفيدة: «أنا اسمي. والدي يعمل. والدتي تعمل. أنا من أصل. أنا أسكن في.» دخلت سندي، إحدى الطالبات التي تأتي هي الأخرى مبكرة، ويبدو أنّها تذهب إلى قاعة الرياضة بعد الصف مباشرة لأنها تأتي دائماً بالملابس الرياضية وجلست في المقدمة كعادتها بعد أن حيتني: «غود مورننغ» فذكّرتها، كما أفعل دائماً، أن تستخدم العربية قدر الإمكان خصوصاً أنّنا تعلّمنا «صباح الخير» فاعتذرت وحيّتني بالعربيّة. أعددت القرص الممغنط بحيث يكون في الموضع المطلوب ونبدأ بتمرين المحادثة بعد امتحان إملاء قصير كنت أصرّ عليه لتقوية مهارات الكتابة وتعلّم الكلمات الجديدة. بدأ الطلاب يتوافدون وأنا أعيد إليهم واجباتهم المصحّحة. اقترب مني تيم. طالب أشقر بشعر قصير جداً وأنف مفلطح وشيء من النمش منثور على خديه. فرحت أنّه استخدم عبارة «عندي سؤال» الموجودة في الكتاب مع عبارات أخرى مفيدة مثل: «كيف نقول؟» أو «ما معنى؟» والتي طلبت منهم استخدامها بالعربية دائماً ويمكنهم بعدها أن يطرحوا السؤال نفسه بالانكليزية لأنهم لا يمتلكون المفردات بعد فما زلنا في السنة الأولى.
وفاجأني بسؤال غريب:

«يا أستاذ. متى نتعلم فعل الأمر؟»

أجبته بالانگليزية:

«ليس بعد. ما زلنا في بدايات المضارع وأمامنا الماضي ومن ثم الأمر. لماذا؟»

«هناك أفعال أمر أريد أن أتعلّم كيف أقولها بالعربية.»

«مثلاً؟»

«اركع! قف! ارفع يديك! ارجع إلى الوراء!»

استغربت من طلبه. ورفعت سندي حاجبيها. فسألتُه:

«وما حاجتك لها؟»

«بعد التخرّج هذا الربيع سألتحق بالجيش وأذهب إلى العراق أو أفغانستان. وستكون هذه العبارات ضروريّة. أنا أدرس على نفقة وزارة الدفاع. لدي منحة.»

سكتّ.

«نحن لسنا في البنتاغون هنا. الكتاب الذي نستخدمه للمدنيّين ولتعريف الطلاب بالثقافة العربية.»

«أوكي أستاذ. هل يمكنك أن تكتب لي هذه العبارات على ورقة؟»

«كلا.»

«أوكي. شكراً.»

شعرت بغضب شديد فخرجت من الصف وذهبت لأغسل وجهي في الحمام وألتقط أنفاسي. كان الملل من تدريس اللغة العربية قد بدأ يتسرّب إلي حتى قبل أن يطلب مني هذا الطلب العجيب، لكنني في تلك اللحظة قرّرت أنه علي أن أفعل المستحيل لأجد وظيفة في جامعة أخرى لا أدرّس فيها إلا الأدب لكي أبتعد عن قلّة الأدب هذه.

* * *

أقلتُ لك إنّني أسمع ما تقوله الأشياء؟ نعم، أسمعها. وهي تعرفني وتناديني باسمي أحياناً وتناشدني أن أصغي. تتحدث أحياناً

كما يفعل البشر، بهدوء وبمنطق يمكن فهمه بسهولة. لكنها تئن، وتدمدم أيضاً، وتصرخ. وأسمع صراخها بوضوح مؤلم. ولا أفهمه. كلا، هذا ليس صحيحاً. أفهمه جيداً لأنني أعرف أنها هي أيضاً تعاني ما أعانيه. وتعجز في كثير من الأحيان عن قول ما يعتمل في داخلها. فتصرخ بكل ما أوتيتْ من قوة ومن بؤس ومن غضب ومن يأس. وماذا أفعل حين أسمع صراخها الذي لا يتوقّف؟ في البداية كنت أغطي أذنيّ بكفيّ. لكن ذلك لم يخرس الصراخ. أبعده قليلاً فحسب. ثم شعرت بتأنيب الضمير ولمت نفسي على نرجسيتي. أضعف الإيمان هو أن أتضامن مع الأشياء وأصارخها. نعم «أصارخها.» ما قرأته صحيح والنقطة ليست زائدة. لعلني أنا الذي نحت هذا الفعل! لم أقرأه في أي مكان من قبل. وهكذا قررت ألّا أتجاهل صراخ الأشياء. لا يكفي أن تفتح قلبك على مصراعيه. القلب لا يكفي. فتحت أذنيّ. وكلّما صرخ بي شيء (أو كائن) كنت أحاول أن أهدئ من روعه فأنجح أحياناً. وأفشل كثيراً. فأضم صراخي إلى صراخ الشيء، أصرخ به ويصرخ بي حتى أهلك من التعب. اعتدت هذا الأمر وأصبح طبيعياً بالنسبة لي. لكن بني البشر، والغالبية الساحقة منهم بلا قلوب، أو بقلوب طرشاء لا تسمع ما أسمع، كانوا يهربون بعيداً عنّي حين أتصارخ. وإن اقترب أحدهم فإنه إنما يقترب ليجبرني على أن أكفّ! ويظنون أنّها علّة ويمكن للطب أن يشفيها. أنا أعرف أنّها موهبة نادرة. ذات مرة حلمت أن كل الذين يتمتعون بهذه الموهبة اجتمعوا على خشبة مسرح وكأنّهم في أوركسترا. ارتدوا ملابس سوداء أنيقة وجلسوا على كراس في صفوف منتظمة. وحين دخلتُ أنا وقفوا جميعاً ووقف الجمهور يصفّق بحرارة. انحنيتُ احتراماً للجمهور ثم

استدرتُ وصفّقتُ لأعضاء الأوركسترا وأشرت لهم بالجلوس. لا آلات ولا أوراق أمامهم. فالحناجر تكفي. ولم يكن أمامي سوى العصا التي التقطتها وأشرت لهم بها أن ابدأوا! فبدأوا. وتصاعد صراخهم إلى الأعالي. يطير عبر قبّة المسرح المفتوحة إلى السماء حيث آذان الآلهة الطرشاء. وماذا يحدث بعد ذلك في الحلم؟ كلما سقط أحد الصارخين يأتي رجلان ويسحبان جسده إلى كواليس المسرح ويسرع صارخ جديد ليحل محله. ثم أسقط أنا أيضاً من التعب وأستيقظ.

أي الأشياء تحادثني؟ قد تسأل. كلها. ورقة يتيمة مقطوعة من كتاب، تطير في الشارع. حصاة تائهة تؤلمها دعسات المارّة. غيمة خائفة تهرب من مصيرها. رأس خس يرتجف أمام سكين. طابوقة يذبحها بنّاء بفأس. تمثال حزين يختنق ببول المارّة. غصن شجرة قصم ظهره. كلمة في قاموس لم يعد يستخدمها أحد. قطرة ماء تتشبث بفم الصنبور قبل سقوطها و و و

والحيوانات أيضاً تحادثني طبعاً. ذبابة جائعة. قطّة سائبة. حمار هرِم تعب من عبوديته. حسّون يناجيني من محبسه.

والموتى من البشر، لا الأحياء. الموتى ينادونني. قرأت جملة لبول كلي ذات مرة يقول فيها: أعيش مع الموتى بقدر عيشي مع الأحياء.

* * *

كانت المكتبة في دارتموث تغلق أبوابها في الحادية عشرة ليلاً، لكنها تبقي بناية واحدة قديمة شبه منفصلة مفتوحة على مدار الساعة. وقضيت فيها ساعات طويلة أعمل على إكمال الأطروحة.

لم أكن أعمل على الأطروحة في مكتبي لأنني أضيع الوقت بالعودة إلى مواقع الأخبار والجرائد عشرات المرات. كانت المكتبة شبه فارغة معظم الوقت باستثناء حفنة من الطلاب يسهرون لإكمال بحث أو الدراسة لامتحان في اليوم التالي. كان نظام التدفئة في البناية من الطراز القديم، يعمل ببخار الماء. ولم يكن يعمل بصورة جيّدة، فكنت أضطر لارتداء المعطف في كثير من الأحيان. في تلك الليالي الثلجيّة بدا أبو نؤاس بعيداً جداً وغريباً. كنت أتعب وأشعر بنعاس طبعاً واستعين بالقهوة. خرجت ذات ليلة لأشتري قدحاً من محطة الوقود التي كانت على بعد ربع ساعة مشياً ونسيت أن أرتدي قفازات اليد وكان البرد شديداً. في طريق العودة شعرت بأصابع يدي اليمني التي كنت أحمل بها قدح القهوة تتقرس ولم أستطع أن أدفنها في جيب المعطف مثلما فعلت بأختها. عندما دخلت إلى المكتبة كنت قد فقدت الشعور في أطراف أصابعي فخفت أن أصاب بالشلل، ووضعتها أقرب ما يمكن من المدفأة البخارية وفركتها لأكثر من نصف ساعة حتى استعادت الحياة.

* * *

بعد ستة أشهر من إكمال تدقيق الترجمة دعاني روي لحضور أول عرض رسمي للفلم وكان في مدينة بوسطن، المجاورة لكامبرج، حيث كان يعرض ضمن مهرجان للأفلام الوثائقية البديلة. طلبت منه تذكرة إضافيّة لعلي هادي الذي افترضت أنّني سأنزل في بيته لحضور الفلم وأنّه سيرغب في مشاهدته أيضاً. امتلأت القاعة بالحضور وكان رد فعل الجمهور إيجابياً جدّاً ولم يكن ذلك مفاجئاً

فالمنطقة معروفة بليبراليتها وبمعارضتها للحرب. سألني روي إن كنت أرغب في أن أكون معه ومع لورا للإجابة على أسئلة الجمهور بعد الفيلم لكنّني شكرته واعتذرت. فرحت أنّه بدأ حديثه بتوجيه شكر خاص لي وقال «المترجم الذي رافقنا إلى بغداد حاضر معنا اليوم.» وطلب مني الوقوف وصفق لي وتبعه الجمهور. وكانت معظم الأسئلة والتعليقات عن السياسة الأمريكيّة والوضع في العراق ولم تكن عن الفلم نفسه. الكثيرون انتقدوا الإعلام السائد وروايته عن الحرب وعدم حضور العراقيين كبشر. البعض كانوا يسألون «ما الذي يمكن أن نفعله الآن؟» أثنى علي هادي على الفلم وهمس بأذني إنني كنت قاسياً جداً في نقدي لبعض الهفوات وإنه أفضل بكثير مما توقّع. ورفع يده ليتكلّم وامتدح المخرجين وفريق العمل على «إيصال أصوات العراقيين إلى هذه القارّة وتذكيرنا بإنسانيتهم.» عرّفت روي ولورا عليه في نهاية الأمسية.

* * *

«الذاكرة تفعل هذا: تجعل الأشياء تبدو صغيرة، تضغطها. (فتبدو مثل) الأرض للبحّار.»

* * *

كان غداء الأربعاء الحدث الاجتماعي الأهم لأساتذة الجامعة. فهو اليوم الذي يقدم فيه فندق «هانوفر إن» التابع للجامعة غداء مفتوحاً لكل أساتذة الجامعة. لم يكن الطعام سيئاً، وخصوصاً الحلويّات. كنت أحياناً أذهب برفقة بعض الزملاء من القسم وتكون الأحاديث مملّة عن بيروقراطيات القسم ومتاعب التدريس. وعندما

أتأخّر عن موعد بدء الغداء كنت أضطر للجلوس على الموائد المتبقيّة والتعرّف على أساتذة آخرين. وكان هذا يذكرني بمقولة «الجغرافيا مصير» وإن كان مؤقتاً. فالبعض لطفاء يرحبون بالمرء ويحاولون أن يدردشوا. والبعض الآخر من النوع الصامت أو الذين يستمرّون بأحاديثهم حتى بعد قدوم شخص جديد إلى المائدة. بعد أسابيع قليلة من وجودي في الجامعة كنت أكرر للأصدقاء الذين يسألونني عن الحياة الاجتماعية: الأغلبية الساحقة من الذين يعيشون هنا أما أصغر منّي بسبعة عشر عاماً (أي الطلاب) أو أكبر منّي بسبعة عشر عاماً. لكنّني التقيت بواحدة من اللواتي كنّ في فئتي العمريّة ولم تكن متزوّجة (أغلبيّة الأساتذة مستقرون ولديهم أطفال وبيت جميل وكلب!). سيدة ألمانيّة أستاذة مساعدة في قسم السينما. طويلة، أنيقة، شقراء، بعينين خضراوين. كنت أجلس لوحدي على طاولة أتناول السلطة وأقرأ الجريدة حينما سألتني إن كان بإمكانها أن تجلس وكانت تحمل صحنها. طويت الجريدة وبدأنا نتحدّث. كانت قد عيّنت ذلك الفصل مثلي. وكانت قد درّست في فلوريدا لسنتين وقبلها درست في لندن. فتنافسنا في ذمّ هذه القرية الصغيرة والطقس البارد وفقر الحياة الاجتماعيّة فيها واشتياقنا للمدن الكبيرة ولمطاعمها. لكنها قالت «النكن عادلين. برنامج السينما ممتاز وهو المتنفس الوحيد.» وافقتها الرأي وقلت لها بأنّني أذهب كثيراً. فقالت «نعم، لقد رأيتك هناك أكثر من مرة. يجب أن نذهب سوية من الآن فصاعداً.» وذهبنا لمشاهدة فلم لارس ڤون ترير الجديد «دوغڤل» وذهبنا بعدها إلى الحانة القريبة لنتحدّث عن الفلم الذي أعجبني كثيراً. لم تكن هي متحمّسة بنفس القدر وقالت إنه لا يرقى لأعماله السابقة ولكنها أعجبت بحماستي.

انتهى بنا الأمر في شقتها ونمنا معاً تلك الليلة. شعرت أن مداعباتنا كانت «آليّة» وافتقدتْ الحرارة المطلوبة. لكن ربما قرر كلانا عدم التفريط بهذه الفرصة. لم أستطع النوم فارتديت ملابسي في الثالثة صباحاً وعدت مشياً إلى شقتي. بعثت لي رسالة إلكترونية بعد يومين واقترحت أن نتعشّى لكنّني تحججت بانشغالي بتصحيح امتحانات الطلاب. لم تحاول بعدها.

* * *

إنّي أرى ما لا ترون وأسمع ما لا تسمعون.

* * *

بعث لي صديق برسالة يلفت نظري فيها إلى إعلان عن وظيفة أستاذ مساعد متخصص في الأدب غير الأوربي في إحدى كليّات جامعة نيويورك. كان التعبير غريباً وخمّنت أنّهم يلقون بشبكة كبيرة، كما يقال، كي يحصلوا على أكبر عدد ممكن من الطلبات. قرّرت أن أحاول فليس هناك ما أخسره. في أسوأ الأحوال سأحصل على رحلة إلى نيويورك للمقابلة وأقضي ليلتين هناك. أرسلت سيرتي المهنيّة مع رسالة ونسخ من مقالتين كنت قد نشرتهما. بعد أسبوعين من تقديم الطلب رن هاتفي وكانت رئيسة لجنة التوظيف على الهاتف تطلب ترتيب موعد لحوار مع أعضاء اللجنة. أجريت الحوار بالهاتف بعد أسبوع ولم تكن الأسئلة صعبة. بعدها وصلت رسالة إلكترونية تعلمني بأنني مدعو لزيارة الجامعة وإلقاء محاضرة.

لم أكن قد نمت أكثر من ساعتين، ألقيت محاضرة عن المجون

وأهميّة أبي نؤاس في الثقافة العربيّة أثارت الكثير من الأسئلة. أنهكتني اللقاءات مع الأساتذة والطلاب التي استغرقت النهار بأكمله. قررت أنني لن أحصل على الوظيفة. كانت هذه سياستي لكي أدرأ عن نفسي خيبة الأمل. ولذلك جاءت بعض أجوبتي في آخر مقابلة مع عميدة الكلية ومساعدها غريبة ومستهترة بعض الشيء.

سألتني «هل ستفتقد شيئاً في نيو هامپشير أو تشتاق إليه فيما لو عرضنا عليك الوظيفة؟» استغربتُ سؤالها. لكنني أجبتها بصراحة «لون السماء.» فقد كان لونها مختلفاً. أكثر عمقاً وصفاء. «ومن الذي سيأتي، أو تأتي، معك من هناك لو حصلت على الوظيفة؟» تذكرتُ وهي تسألني أنني كنت قد قرأت في إحدى المقالات أن أسئلة كهذه مخالفة للقانون لأنه ليس من حقها أن تعرف شيئاً عن حياتي الشخصية إذ قد يكون لذلك تأثير على قرار التعيين. لكن لعلها تسأل لتعرف حجم الشقة التي سأحتاجها. كنت قد سمعت أن لديهم طلبات كثيرة على الشقق التي تملكها الجامعة. لا أدري لماذا قلت لها «ثلاث زوجات وأحد عشر طفلاً.» لكنها لم تبتسم، لا هي ولا مساعدها الذي كان يجلس بجانبها. أدركت أن النكتة فشلت فشلاً ذريعاً فسارعت إلى القول «عفواً، كنت أمزح. فأنا أعيش لوحدي.» لم تضحك واكتفت بابتسامة متوتّرة. سألتني «هل لديك قطط أو كلاب؟» «كلا، لكنني أحب القطط، الفارسية بالذات، وإذا كان ذلك سيحسّن من فرصي في الحصول على الوظيفة فسأكون سعيداً بتربية قطة.» ضحكتْ هذه المرة وابتسم المساعد. أضفتُ «سأقول لك بصراحة إنني نشأت في بغداد وهي مدينة كبيرة. وبالرغم من أنني أحب الطبيعة والهدوء إلا أنني أعشق المدن،

ونيويورك مدينة المدن. أعرف أنني سأكون سعيداً هنا.» الجملة الأخيرة كانت مبالغة مطعّمة بكثير من التفاؤل والأمل.

لكنني كذبت. فما سأفتقده هو جولاتي في الغابة (أو ما تبقّى منها) المجاورة للكليّة والتي لم أكتشفها إلا بعد مرور سنة ونصف على وصولي. كان زميلي البريطاني قد نصحني بأن أستكشف الغابة وضفّة النهر لكنّني انشغلت وأجّلت الموضوع. في نهاية ربيع السنة الثانية مشيت شرقاً إلى آخر بناية من بنايات الكليّة ووجدت خلفها طريقاً يمر بجانب بحيرة صغيرة اسمها «أوكوم» ثم يتفرّع إلى طريقين، أحدها يؤدي إلى ملعب الغولف المجاور والتابع لنادي أرستقراطي للأغنياء الذين يسكنون في المنطقة المجاورة، والآخر يؤدي إلى الغابة. شعرت بسكينة لم أعهدها من قبل وأنا أمشي تحت أشجار الدردار العالية. كان بإمكاني أن أسمع عجيج نهر كونيتكت الذي يحاذيها والذي يفصل بين ولاية نيوهامپشير وڤرمونت إلى الشمال والغرب. وازداد فضولي بخصوص أصول الأسماء والكلمات عندما سكنت في نيوهامپشير فعرفت أن كونيتكت تعني «بجوار النهر الطويل» واتضح أن «أوكوم» كان رجلاً من قبيلة الموهيغان عاش في أواخر القرن الثامن عشر اعتنق المسيحيّة وأصبح من المبشّرين وكان أول رجل من السكّان الأصليين ينشر كتاباً بالانكليزية. سمعت نقار الخشب أكثر من مرّة يسجّل رسائله على خشب الأشجار. لكن منظر تلك العائلة الصغيرة من الغزلان التي رأيتها ذات مرة والذي ذكّرني بمخطوطة ودود، بالغزال والفريسة، كان الأجمل. الظبية الأم تتوسّط غزالين وخلفهم أيّل بقرنين طويلين. حرّكت الظبية أذنها اليمنى ذات الحواف البيضاء. توقفتُ عن الحركة حالما رأيتها. وتساءلت ما الذي تفعله

هنا يا ترى؟ ثم أدركتُ أنها لا شك تطرح نفس السؤال. حرّكت الأم ذيلها الأبيض. ثم هربت العائلة بعيداً داخل الغابة.

بعد أسبوع من المقابلة اتصّلت بي العميدة لتعرض علي الوظيفة وتفاوضني بخصوص الراتب.

* * *

بعد يومين من وصولي إلى نيويورك وترتيب الشقّة اتّصلت بي شقيقتي وفاء من اليونان لتبارك لي على الوظيفة الجديدة. ذكّرتها بحوار كان قد جرى بيننا قبل حوالي ربع قرن في بيتنا في بغداد. ربما كنت في الحادية عشرة يومها. كنا نشرب الشاي ونأكل البقصم وقلت لها «لمن أكبر أريد أعيش لو بپاريس لو بنيويورك» فقالت لي «هاي أحلام وأوهام. الواحد لازم يصير واقعي.» أنكرت قائلة «آني عمري ما گلتلك هيچ شي!» «بلي، آني أتذكّر كلّش زين.» «أوف يا نمير، ليش تظلّ تدوّر دفاتر عتيگة؟ حتى لو گتلك غير چنت أريد أحميك من خيبة الأمل وكسران الخاطر.» «ميخالف مسامحچ. بس إذا إبنچ الصغيّر يكون عنده أحلام شجعيه مو تضربيه كفخة واقعية.» «بسيطة، هسّة صرت دكتور راح تعلّمنا شلون نربّي أولادنا. المهم راح تعزمنا نجي عندك لولا؟» «تفضلوا، أهلاً وسهلاً. بس الشقّة مو چبيرة. يعني تنامون عالگاع.»

لكنها لم تزرني إلى الآن.

* * *

«طفل مشوّش. كل حجر يجده، كل زهرة مقطوفة، وكل فراشة اصطادها تمثل له بالفعل ذخيرة مجموعة وحيدة وفريدة. هذه

العاطفة تظهر وجهها الحقيقي، هذه النظرة القاسية لهندي يحترق، لكنها قلقة ومهووسة، لدى جامعي التحف، المتبحّرين، والمولعين بالكتب. إنه صياد منذ مولده. يصطاد الأرواح، التي يتشمم أثرها في الأشياء، وبين الأرواح والأشياء يقضي أعواماً، يظل خلالها الناس غائبين عن مجال بصره. الحياة بالنسبة له مثلما في الأحلام: فهو لا يعرف شيئاً مستقرّاً، وكل ما يحدث له هو، في اعتقاده، لقاء، صدمة. أعوام تجواله هي ساعات في غابات الأحلام. وإلى هناك يجر فريسته لينظّفها، ويثبّتها، ويجرّدها من قواها السحرية. يجب أن تصبح هذه الأدراج ترسانة، أو حديقة حيوان، أو متحف جريمة، أو قبو كنيسة. طفل مختبئ. وهذا العالم يظهر له نفسه بطريقة عجيبة الوضوح، فيقترب منه بهدوء. على هذا النحو فإن الشخص المشنوق هو وحده من يدرك معنى الحبل والخشب.»

* * *

منطق الجدار

كنتُ مُذْ كان هذا البيت. وضعوني هنا، شيئاً فشيئاً، حتى اكتمل بدني. وكسوني كسوة حسنة ثم صبغوا وجهي. ورأيتهم يفعلون الأمر ذاته للثلاثة الذين يقفون معي هنا، إلى يميني ويساري وقبالتي، والرابع الذي يستند على رؤوسنا. لكنهم جميعاً خرس لا ينطقون. ولا أخالهم يبصرون أو يسمعون. كم ناديتهم في السنين الأولى وحاولت أن أحدّثهم. ثم يئست واكتشفت أنّني كنت أحدّث نفسي. نفسي التي تحدّثني. كأنهم ولدوا ميتين. وأنا الحي الوحيد هنا. وكم مرّت أيام حسدتهم فيها على عمائهم وطرشهم وخرسهم.

وكم تمنيت لو أن هذا الضجر الذي يعشش حولي يشهر سيفاً كي يقتل قدرتي على أن أبصر وأسمع كل شيء. لأنني تعبت من هذا الوزر. وتعبت من الفراغ والوحدة ومن الانتظار.

أمّه هي الوحيدة التي لم تتعب من الانتظار. حتّى أبوه لم يعد يدخل هنا منذ سنين. دخل مرتين بعد غيابه ولم أره بعدها أبداً. أمّا الأم فلم تكن تغيب أكثر من أيام أو أسابيع. لتعود وتطل بعدها. تفتح الباب الذي يقابلني. وتكبس زر الضوء. ثم تأتي إلى الشبّاك الذي على يساري وتفتح ستائره لتدخل الشمس وتوزّع الدفء. تفتح الشبابيك فتتنفس الغرفة قليلاً. تدور فيها، تتفقد الأشياء وترتّبها وكأنّه على وشك العودة. تهمس لنفسها أحياناً «ينرادلها تنظيف» فتأتي بمكنسة وتطرد الغبار الذي تراكم، ينتظر على الأرض هو الآخر. وكأنها تطرد معه أي شك في عودة الابن. ثم تأتي بطاسة مليئة بالماء وبقطعة قماش. وتبدأ بمسح الغبار عن الطاولة الصغيرة ودولاب الملابس والشبابيك. وعن المرآة التي علقها أبوه منذ سنين طويلة على جبهتي. تجيء إليها وتمسحها بعناية ثم تثبتها في مكانها. أنظر في سواد عينيها المتعبتين اللتين تنتظران خلف نظاراتها الكبيرة لكنها لا تراني. لقد كبرت وغزا البياض شعر رأسها. ووزعت السنين بعضاً مما توزعه على جبينها وزوايا عينيها ويديها. ولكن كل هذه السنين لم تفلح في أن تسلبها إيمانها بأنّه سيعود.

كنت أسمعها تدخل في الليل بين حين وآخر وتنام في سريره لوحدها. أسمع صوت أبيه يناديها فلا تجيب. أو تقول «نايمة هنا، خلّيني.» وأسمع بكاءها. أذكر كيف كانت تنام معه في السرير عندما كان طفلاً. تغنّي له. وكم عانت كي تفطمه. قاوم ممّيّة

الحليب ببكاء لا يتوقّف. كان يدفعها بيديه بغضب. فتضطر للمساومة أحياناً وتعطيه حلمتها ليسكت.

مع أنني لم أرضعه ولم أحتضنه أو أقبّله. اللهم إلا بعينيّ اللتين راقبتاه كل تلك السنين. راقبتاه كيف ينام ويصحو. يلهو ويدرس. سهرتا معه وعليه في الليل والكل نيام. عيناي راقبتاه يكبر. وكنت أودعه، مثل أمه، كل يوم حين يقف أمام المرآة، قبل أن يخرج.

وحين بدأ يرتدي الخاكي أخذ يغيب كثيراً، لكنه كان يعود مرة كل شهر. آخر مرة رأيته فيها كانت قبل ذلك الشتاء المزلزل الذي كاد يكسر ظهري. ومن يومها وأنا وأمّه ننتظر.

لم تكن أمّه تخاف الموت إلا لأنها كانت تعرف أنه سيحرمها من أن تكون في البيت عندما يعود ابنها. والآن حتى البيت لم يعد.. بيتاً. وأنا، أيضاً، لم أعد جداراً.

* * *

كان عليّ أن آخذ رحلة مبكرة للعودة من سانت بول، مينيسوتا، إلى نيويورك بعد إلقاء محاضرة في جامعة مينيسوتا. هناك محل واحد يبيع الفطور والقهوة في هذا المطار والطابور طويل جداً. المدنيون فيه أقلية. أما البقيّة فجنود يبدو أنهم في طريقهم إلى جبهات العراق أو أفغانستان. يبدو أن هذه أول «سفرة» لهم وأنهم أنهوا تدريبهم للتو. أعرف ملامح الجنود الذين يعودون من الجبهة. متعبون ومستنزفون. كأنهم ماكنات معطوبة. كنت أرى خرائط الموت والخراب في العراق على وجوه العائدين من جبهات القتال مع إيران.

معظم هؤلاء من البيض، من الطبقات الفقيرة، مع بعض السود

واللاتينو. أدرك بأن معظمهم أيضاً ضحايا لماكنة اللامساواة والاستغلال والتفرقة الضخمة التي تديرها روما. بعضهم يبدو وكأنه نجح في الاحتفاظ بشيء من البراءة في وجهه. لكنهم سيتقنون أدوارهم بسرعة. كان أحدهم يقبض بيمناه على العمود الحديدي وهو ينتظر في الطابور. يحرك سبابته إلى الأمام والخلف وكأنه يضغط على الزناد. هل بدأ بإطلاق الرصاص على العراقيين من الآن؟

* * *

أعود إلى الماضي وأنام على السكة التي يسير عليها الزمن كي أجبره على التوقّف وتغيير وجهته.

* * *

عرّفني الفهرس على أجمل امرأة قابلتها في حياتي. كنت أجلس في الجهة الشرقية من متنزه واشنطن سكوير ظهيرة خميس ما. بانتظار ثلاثي الجاز الذي كان يأتي ثلاث مرّات في الأسبوع ليعزف. كنت أحب أن أستمع إليهم، خصوصاً عازف البوق الماهر. كان الفهرس الذي يحتضنه دفتري معي في حقيبتي. وأخرجته لأتصفحه وأعدت قراءة منطق السدرة ثم واحدة من رسائل ودود لي. وقاطعني صوتها:

«عفواً. هل هذا الخط فارسيّ؟»

عندما رفعت رأسي والتفتُّ نحو الصوت على يميني رأيت وجهها. كنت أعرفها من قبل. سوداء. شعرها أسود قصير. عيناها بنيّتان وشفتاها مليئتان. ترتدي جاكيتة من الجلد الأسود وقميص

أخضر بياقات كبيرة جداً. وبحضنها علبة بلاستيكيّة تأكل من سلطة موجودة داخلها بملعقة بلاستيكيّة. أظافرها طويلة ومصبوغة بألوان مختلفة ونقوش.

«كلا، عربي.»

«جميل جداً.»

«شكراً.»

كنت قد ظننتُ أن الزمن الذي كانت الكتب أو الجرائد العربية تحوز فيه على تعليقات الإعجاب من الغرباء قد ولّى إلى غير رجعة. ذات مرة قالت لي مضيّفة على الطائرة «ما أجمل شكل الحروف. يا ليتني أستطيع أن أتعلّم كيف أكتبها!» لكن كل هذا تغيّر بعد ١١ أيلول. فتحولت معظم نظرات الفضول الممزوج بالإعجاب إلى نظرات توجّس وريبة. وبدأتُ، مثل الكثيرين من العرب، أتلافى، بلا وعي، حمل كتب عربية معي عندما أسافر بالطائرة وأستعيض عنها بكتب بالإنكليزيّة. قد تكون نيويورك استثناء، بالطبع.

«هل هي لغتك؟»

كان سؤالها بسيطاً، لكنه في تلك اللحظة اكتسب عمقاً لم أكن قد أدركته. هل هي لغتي؟ تعودنا أن نقول «لغتي الأم» أو «لغتي الأولى» لكن «لغتي»؟ أنا؟ لم أشأ أن أتفلسف أو أن أبدو أكاديميّاً أكثر من اللازم، فأجبت، رغم شكّي بإمكانية أن تكون أي لغة، كما أتخيلها كوناً بأكمله، مُلكاً لفرد واحد «نعم» ثم تذكّرت أين كنتُ قد رأيت وجهها من قبل «أنت تعملين في محل بيع القهوة على شارع بليكر، صحيح؟» ابتسمت. «نعم. كنت أعمل هناك يومين في

الأسبوع، لكنني أعمل الآن طوال الوقت. اسمي مرايا» «مرايا اسمك له معنى جميل بالعربيّة. اسمي نمير.» «أعرف، قال لي هذا أحدهم ذات مرة. لكن أهلي لم يعرفوا ذلك. أنا مرايا، مثل مرايا كاري. وما معنى اسمك؟» «الماء العذب.» «جميل.» «اسمك أجمل» ضحكت ونظرتْ إلى ساعتها وأضافت «آسفة، عليّ أن أعود إلى العمل. انتهت فترة الغداء. آسفة.» مسحت فمها بمنديل ورقي ووضعته في العلبة البلاستيكية الشفّافة التي كانت بجانبها. غطّتها بغطاء أخضر اللون. ووضعتها في حقيبتها ابتسمت وقالت «استمتعتُ بالدردشة يا نمير. باي» «وأنا أيضاً. باي.»

راقبت مشيتها وهي تبتعد نحو الشارع. هل كانت تعنيها حقاً؟ «سأراك» أم أنها تقصد أنّني سأمر على المحل وأشتري القهوة؟ ربما تكون هذه هي العبارة التقليدية التي خطرت ببالها. كم مرة أقول أنا نفسي لشخص ما «سأتصل بك» أو «سأراك» دون أن أعنيها. أقولها أحياناً وأتمنى في سرّي ألا أرى ذلك الشخص لفترة طويلة! لاحظت أنني أتعامل مع عبارة بسيطة وكأنني أدرس مخطوطة أو قطعة أثريّة. كفى!

* * *

للحظة جدران بيضاء وسقفها شاشة نرى عليها حيوات اللحظة وذاكرتها. فكل لحظة كانت لحظات أخرى، لكن قلّما تتذكّر اللحظة حيواتها السابقة. وهناك باب وسط كل جدار. أفتحه فأرى لحظة أخرى: جهاز وقطعة فوقه مكتوب عليها: للهبوط والانتقال إلى تاريخ آخر. الخراب هو ما سيضمّنا جميعاً. اللحظة جرح.

* * *

«سأسألك سؤالاً هل يغني الموتى؟»

* * *

الليل يحتل ثلثي الصورة. وظلامه يحتل النصف الأعلى من فم الطفلة الفاغر، الذي يبدو ككهف يحاول لسانها الهرب منه على ظهر صرخة. لكنه سيفشل، بالطبع، فهو صغير مثلها. والألسنة لا تفلح في الهرب. لا نسمع شيئاً. فالصورة خرساء، وطرشاء، لا تسمع شيئاً ولا تصدر صوتاً. لا تملك الصورة إلا أن ترى -فهي ليست عمياء- كيف يتوزّع الضوء والظل، وأين تتموضع الكتل والأجسام والألوان. حافة دائرة الضوء تلامس أنف الطفلة وتضيء نصف وجهها فتظهر صفحته اليمنى التي تسيل عليها دموع حمراء تتساقط من عينها اليمنى. عيناها شبه مغمضتين وهما خارج دائرة الضوء الرئيسية. نهايات شعرها البني تغيب في الليل. ترتدي فستاناً رمادي اللون، أكبر من حجمها (لعله كان لأختها الكبيرة؟) يصل إلى قدميها، تطرّزه ورود حمراء. الأرض أمامها رماديّة، قد تكون من الكونكريت أو الإسفلت الذي يبدو فاتحاً لشدة الضوء، وفي قلب دائرة الضوء الأقوى بقع حمراء. إلى اليسار هناك بسطال عسكري ترابي اللون يدوس على حافة دائرة الضوء. مقدمته داخلها وبقية البسطال خارج الدائرة، لكننا نرى قدمه الأخرى وبدلته الخاكية المبقّعة. ونرى جسده حتى الوركين لكننا لا نرى ما فوقهما لأنه خارج الصورة كليّاً. نرى، بوضوح، ماسورة رشّاشه وفوقها مصدر الضوء القويّ.

* * *

أخرجتُ ثلاثة مكعّبات ثلج من القالب البلاستيكي لأضعها في كأس الماء البارد الذي طلبته هي، بعد أن فكّرتْ بما عرضتُه عليها: قهوة، أو عصير. فلم يكن لدي أي كحول. وعندما خرجت من المطبخ حاملاً كأس الماء وجدتها قد تسمّرت أمام الصور والقصاصات التي كنت قد علّقتها على الجدار. كنت قد نقلتها من هانوفر بعد مجيئي وأضفت لها الكثير. التفتت عندما سمعت وقع خطواتي تقترب. مسحت عينيها بحركة سريعة ثم أخذت كأس الماء وهي تشكرني. سألتها إن كانت تبكي؟ «ربّما» إجابتها المفضلة، والمحبّبة. القناع الذي ترتديه نَعَمُها ولاؤها في كثير من الأحيان. استلطفت هذه الـ«ربّما» في البداية وعددتها جانباً من شخصيتها المميزة. ثم أسرعت قائلة: «كلّا، هناك ذرّة غبار في عيني.» طلبتُ منها أن تجلس وأشرتُ إلى الكنبة ثم استأذنتها الذهاب إلى الحمام. دخلت إلى غرفتي التي كانت تفضي إلى الحمّام. تبوّلتُ ثم قرّرت أن أصوبن وجهي لأن طبقة دهنية تجمّعت على مساماته كالعادة. نشّفت وجهي ونظرت إليه في مرآة الحمّام قبل أن أعود إليها. جلستْ على الكرسي الذي أمام الطاولة، معطية ظهرها للجدار الذي كنتُ قد علقت وألصقت عليه الصور والقصاصات. كأس الماء، نصفها فارغ، في يدها اليمنى وهي تنظر عبر النافذة إلى منظر الشارع الممتد بين بنايتين عاليتين. «الشقة صغيرة لكن المنظر الجميل.   يعوّض.» «شكراً» «هكذا إذاً يعيش الأساتذة في جامعتكم؟» «هناك طبقات. أولئك الذين لديهم كتب أو عائلة وأطفال يسكنون في شقق أكبر.» ضحكتْ «إذاً عليك أن تسرع» سألتها «أسرع في نشر الكتب أو إنجاب الأطفال؟» ضحكت ثانية «الخيار يعود لك. أيهما أسهل؟» «لا أعرف، لكنني

سأجرب حظي مع كتاب واحد، على الأقل، وإلا فقدت وظيفتي» «هل لكل هذه الصور المعلقة على الجدار علاقة بكتابك؟» «نعم، لها علاقة ولكن ليس بالكتاب الأكاديمي، بل بمشروع آخر» «ما هو؟» «لا أعرف بالضبط» «come on أأنت من أولئك الذين لا يحبّون التحدّث عن كتبهم؟ لن أسألك إذاً بعد الآن» «كلا، صدّقيني، لا أعرف بالضبط، مازلت أجمع المعلومات والصور وأحاول أن أتبيّن طريقي. صدّقيني، لا أعرف.» «هل له علاقة بالرجل الذي التقيت به في بغداد وحدثتني عنه؟» «نعم، نوعاً ما كنت أريد أن أكتب كتاباً عنه وعن مشروعه. لكنني انشغلت بإنهاء كتابي الأكاديمي في السنتين الأخيرتين. كما أنه رفض أن يكون موضوعاً لروايتي. وطلب منّي أن أؤجل الموضوع.» «وهل يجب أن يوافق؟» «كلا، ولكنني كنت أريد استخدام اسمه الحقيقي وتفاصيل من حياته.» «هممم. وهل أنهيت كتابك الأكاديمي؟» «بقي أمامي فصل واحد سيأخذ مني شهرين أو ثلاثة» «ممتاز» «ماذا عنكِ أنتِ؟» «ماذا عنّي. لستُ كاتبة.» «هل أنت عازفة؟» «كلا، مستمعة. درست التاريخ وقرّرت أن آخذ سنة أو اثنتين لأفكر بخطوتي القادمة»

* * *

منطق العود

لا اسم لي. إخوتي الذين ولدوا بعدي أعطاهم أبي أرقاماً. أما أنا فبلا رقم، لأنني الأول. لا أب لي إلا أبي. ولي أكثر من أمّ. واحدة في الهند وأخرى في جبال كردستان. أعرف كيف ولدتُ. لا

لأنني أبصرتُ ولادتي، بل لأنني أبصرتُ كل إخوتي يولدون، كما ولدت، واحداً بعد الآخر. وكلهم نسخ منّي، مع فروق طفيفة. لأننا ولدنا في نفس البقعة وسوّتنا يد واحدة. هيكلنا واحد، لكن أضلاع بعض إخوتي من الزان أو الصندل، أو مزيج من الإثنين. وأضلاع البعض الآخر من الماهاغوني أو الجوز. أما أنا فأضلاعي من السيسم، كما كان أبي يردد دائماً وهو يشير إليّ.

رأيتُ أبي يصنع إخوتي. كم مرة رأيته ينشر الأضلاع ويكدّسها فوق بعضها البعض. ثم يأخذ الضلع الأول ويضعه فوق لهب خفيف. يثنيه ويقوّسه بعناية. ثم ينيّمه على منتصف القالب الذي يشبه بطن امرأة حبلى. ويثبّت نهايتيه بقطعتين من خشب الجام في المقدمة والمؤخرة تكونان مثبتتان بالقالب. ثم يعيد الكرّة مع الأضلاع الأخرى التي تصطف إلى اليمين واليسار وتلتحم مع جاراتها بالغراء. فيكتمل الظهر. يتركه حتّى يجف ويتماسك.

ثم يأخذ لوحاً من خشب الجام للوجه. يقصه ويصقله ويثبّت عليه فتحات القمرية والشمسية ويزخرف اسمه عليها «عمر المفتي.» ويضع الغزالة التي ستمسك بنهايات الأوتار. ثم يثبت الوجه على الظهر ويصقل حافاته ويلصقهما ببعضهما البعض. بعدها يضيف الزند، ثم المشط وبيت الملاوي. ويثبت العتبة التي ستعبر عليها الأوتار. ثم يجيء بالأوتار ويربطها ويشدها. ويترك العود. ثم يعود إليه ويشد الأوتار أكثر ثم يدوزنها.

وهذه هي اللحظة الأولى التي أتذكرها من عمري. عندما شعرت بأصابعه تدغدغ أوتاري بعد أن أكملني. كان لوحده في محله هذا. وظل يعزف عليّ لساعتين. ثم قبّلني كأني حبيبته وركنني على الكرسي وجلس ينظر إليّ وهو يشرب شايه كما يفعل. بدا

فخوراً بما صنعته يداه. وحدّثني كأنني بشر وقال لي «إنتَ ما راح أبيعك. بيك بركة البداية وأتفاءل بيك. وتظل ويّايَ.»

أبصرته ينفخ الروح في إخوتي كل هذه السنين. بمزيج من الفرح والحزن. فكل أخ كان يرحل عاجلاً أم آجلاً. يأتي أهل الطرب ويشيرون إلى إخوتي فيحملهم أبي إليهم. يعزفون عليهم ويتعاملون على السعر ويرحل أخ آخر دون أن أراه. وأظل أنا لوحدي مع أبي.

لكنه لم يجئ منذ ثلاثة أيام.

* * *

كان لديّ ما يكفي من القهوة لأسبوعين، لكنني تعمدت الذهاب إلى محل «بورتوريكو إمبورتنغ» بعد ثلاثة أيام. عندما دخلت كانت الفتاة البيضاء التي أراها عادة هناك تطحن القهوة لرجل وقف ينتظر. خمنت أن مرايا قد تكون في المخزن الداخلي تجلب شيئاً ما. مشيت بين صفّي الأكياس الضخمة التي كانت تحوي أنواع قهوة من أماكن بعيدة وغريبة. من إندونيسيا والفلبين إلى تنزانيا وبورندي وجامايكا والبرازيل، طبعاً، مع تنويعات لذيذة مطعمة بالبندق والشوكولاتة والڤانيلا، أو البرتقال، ودرجات مختلفة من التحميص. كنت قد جرّبت الكثير منها. أحياناً يجتذبني الاسم لوحده. اشتريت مرة قهوة لأن اسمها «عطر السماء» أعجبني. قرأت أنّها تحصد من غابات على ارتفاع شاهق فوق مستوى سطح البحر. أشتري عادة نصف رطل من كل نوع. وأحياناً تفتنني قصة القهوة وتحوّلاتها. مثل «مالابار مانسون» التي كانت

تشحن في زمن الاستعمار البريطاني من ساحل مالابار في جنوب شرقي الهند إلى أوربا على متن سفن خشبيّة شراعيّة في رحلة طويلة تدور فيها السفن حول رأس الرجاء الصالح. وتنضج القهوة بفعل الرطوبة والرياح البحرية المدارية على مدى أشهر وتكتسب قواماً ومذاقاً خاصين. ولكن بعد افتتاح قناة السويس قصرت الرحلة وفقدت القهوة نكهتها. لكن شركات القهوة ابتكرت طريقة جديدة بالقيام بتحميص القهوة ثم تخزينها إلى أن يحين موسم الريح المداريّة فيعرضونها للرياح النديّة بتخزين حبوب القهوة في أماكن مفتوحة وتعريضها لرياح المونسون. أعبّ عطرها وأنا أطحنها في مطبخي وأستعيد حكايات سفراتها.

لم أكن أعرف أو أحب القهوة قبل هجرتي من العراق. كنّا نشرب الشاي الذي ما زلت أحبّه. لكنني توقفت عن شربه بعد أن تركت البيت. لم أستسغ شاي الأكياس. ولا أعرف لماذا لم أقتنع بعمل إبريق شاي كامل لشخص واحد. ظل الشاي بالنسبة لي مشروباً عائلياً يحتسى مع العائلة أو مع الأصدقاء في مكان عام. أما القهوة فهي مشروب الفرِد وزاد العزلة والسهر. وبما أن الطعم والنكهة مهمان بالنسبة لي فأخذت أبحث عن أنواع القهوة الجيّدة. وساعدتني سنين كاليفورنيا كثيراً في تنمية ذوقي. سمعت الفتاة البيضاء تودّع الزبون وهو يخرج. اقتربت مني وسألتني إن كنت بحاجة إلى مساعدة. فقلت لها إنّني لا أبحث عن شيء محدد. ثم أضفت «هل مرايا هنا؟» «كلا، لا تعمل يوم السبت.» شعرت بخيبة أمل وأنا أنظر إلى أنواع الأقداح والأكواب وماكنات الإسبرسو المعروضة في إحدى زوايا المحل. عليّ أن أنتظر إلى بداية الأسبوع القادم. شكرت الفتاة وأنا أخرج. وذهبت إلى

مقهى دانتي الذي كان قريباً لأقرأ كتاباً عن حياة ڤالتر بنيامين وأرشيفه.

* * *

رأيت في المنام قبل يومين مرة أخرى بأنني بلبل لكن القفص الذي كنتُ فيه كان عظام إنسان آخر، لعلّه أنت. وكان صوت قادم من بعيد يقول لي. طر فالسماء قريبة! أسمع نبضَ قلبك كأنه طبل عملاق. ولكي أطير كان عليّ أن أمزّق رئتيك وأقتلك. وبقيت حائراً متردّداً!

* * *

«شقّتك قبر جماعي!» قالت وهي تنظر إلى الجدار مرّة أخرى.

«هل يعني هذا أنني ميّت؟»

«كلا، أنت حيّ. لكن كأنّك تحرس الموتى.»

«أتعرفين أنّني أحب المقابر كثيراً؟»

«لماذا؟»

«لا أعرف. منظرها يجتذبني. تناسق القبور والحشيش الأخضر. الأسماء والتواريخ المنقوشة. أشعر بالسكينة فيها. عندما كنت في بوسطن زرت واحدة من أجمل المقابر في البلد في ماونت أوبرن. لا بد أن تزوريها في يوم ما.»

«بدأت أخاف من أنّك قد تكون مصّاص دماء.»

ضحكتُ بصوت عال.

«أنا كائن ليليّ. أحب أن أقبّل الرقبة وأن أعضّها برفق أو حتّى بدونه أحياناً. لكنني لست مصّاص دماء.»
ضحكت بغنج ولم تقل شيئاً.

* * *

ورأيت أنني أعيش في بلد بعيد، كل شيء فيه نظيف ومنظّم. حياة هادئة بلا حروب ولا طوائف ولا أديان. وللمهاجر واللاجئ كل الحقوق والحريّات التي يحلم بها البشر. حتى الحيوانات محترمة ولها حقوقها. وقد تطوّر العلم والتكنولوجيا إلى درجة تسمح للإنسان أن يسافر إلى المستقبل أو الماضي بهدف الزيارة أو الإقامة، بشرط أن يكون بالغاً بالطبع، وأن يتمتّع بصحة جيّدة، وألّا يكون من أصحاب السوابق. وعرفتُ، حتى وأنا أحلم، أنني أحلم، لأنني كذبت على استمارة الطلب. وكتبت بأنّني لم أسجن ولا مرّة وأنّني لا أعاني من مشاكل صحيّة وأمضيت الاستمارة بلا تردّد. كما عرفت أنني أحلم لأنني كنت أتكلم لغتهم بطلاقة. حتى أن الموظفة الشقراء، التي ذكرتني بممثلة رأيتها ذات مرة في فيلم سويدي حزين تموت في نهايته، قالت لي «لقد أتقنت لغتنا بشكل كامل. كيف تخلّصت من لهجتك؟» ضحكتُ طبعاً وقلت لها: «شكراً لهذه المجاملة. الفضل يعود لمدارسكم.» أجروا فحوصات كثيرة ودقيقة بأجهزة حديثة في مستشفى نظيف تنبعث فيه موسيقى كلاسيكيّة في كل مكّان وتبتسم الممرضات بحنو أمومي. خفت أن أسقط في الفحوص الطبيّة، لكنني نجحت. يسمحون بالسفر باتجاه واحد فقط: إمّا المستقبل أو الماضي. كان موقعهم على الإنترنت قد وضع رسالة تؤكد إن وزارة الزمن تدرس الآن إمكانية السماح

للمواطنين مستقبلاً بالسفر إلى الوجهتين. لم أكن معنياً بالمستقبل بالطبع. كما أنني أظن أن البشر ينقسمون إلى نوعين: أولئك الذين يهربون من الماضي وأولئك الذين يهربون إليه.

* * *

هل الحياة هي أيضاً رواية، غير مكتوبة، تعيش فيها عشرات الشخصيّات الرئيسية والثانويّة؟ (ودود يقول نحن كتب أو مخطوطات.) خطرت لي فكرة أن الحياة رواية خرافية الحجم لا يمكن أن تنتهي أو تكتب كاملة وأنا أراه للمرة المائة ربّما. لا أعرف اسمه، وقد لا أعرفه. أراه كل يوم تقريباً، وأحياناً أكثر من مرّة في ذات اليوم، ولكنني لم أتحدث إليه أبداً. مع أنني أريد أن أعرف قصته. لا أريد أن أزعجه. المرة الوحيدة التي قلت له فيها شيئاً كانت قبل أشهر في مطعم «ويندیز» القريب من الجامعة على جادة برودواي كنت في طريق العودة من واحدة من جولاتي الطويلة وكان على أن أتبوّل ولم أستطع الانتظار حتى أصل إلى شقتي. دخلت إلى المطعم واتّجهت نحو الحمّام. رأيته هناك يقترب من باب الحمّام الخاص بالرجال من الجانب الآخر وبيده قدح من الورق السميك. وصلنا في نفس الوقت تقريباً. ربما سبقني هو بثوان. كانت الإشارة تحت مقبض الباب حمراء فوقفنا ننتظر أدوارنا. اتّكأ على الحائط وأخذ يهزّ القدح الفارغ وينظر إلى جوفه، كأنه يتأكّد من وجود نرد لا يراه أحد غيره. ثم يدلق النرد اللامرئي الذي كان في القدح على الأرض. ويعيد الكرّة. يتجنب النظر مباشرة إليّ أو إلى أي شخص. بل يبدو وكأنه ينظر إلى مكان بعيد. «يتجنّب» ليس الفعل المناسب هنا. لا أظن أنّه كان معنيّاً

بأي شخص آخر أساساً. لم أره مرة يحاول التحدث مع أحد أو يطلب شيئاً، كما يفعل بقية المشرّدين. باستثناء القهوة والماء، وكان يحصل عليهما من المقاهي المجاورة بصمت. كان يرتدي ما يرتديه عادة في ذلك الوقت من السنة: قميصاً خاكياً ذا فتحة صدر واسعة تصل أكمامه حتى مرفق الساعد. وسروالاً هفهافاً بذات اللون، أطول من اللازم. تمزّقت حافاته الرثّة واسودّت من المشي والدعس. ينتعل صندلاً مطّاطيّاً أسود اللون يظهر جوربيه (السوداوين معظم الأحيان). يحمل حقيبته الصغيرة ذات اللون الرملي والمصنوعة من قماش خشن. فارع الطول، كرمح قديم. شعره الأسود مجدول على طريقة «الراستافاري» تحتضنه قبّعة صوف سوداء كبيرة تذكّرني بقبّعة بوب مارلي. ولهذا ظننت، ولزمن طويل، أنه قد يكون من أصل جامايكي. عيناه بنيّتان مليئتان بالحزن الصافي المعتّق وأنفه شامخ فوق شارب ولحية كثّين. لم يكن يعتني بمظهره كثيراً. لكنني كنت قد رأيته ثلاث أو أربع مرات متربعاً على الأرض قرب مشبك التدفئة على شارع «غرين» يمسك بمرآة دائرية صغيرة جداً وبيده ملقط يشذّب به بعض الشعرات الزائدة على خدّه.

سمعت صوتُ الماء في المغسلة، ثم عويل مجفّفة اليد الهوائية وبعدها صوت قفل الباب وهو يفتح. تحولت العلامة من الأحمر إلى الأخضر. فتح الباب وخرج شاب أشقر يرتدي قميص كرة سلّة لفريق «ميامي هيت» مسرعاً واعتذر على بقائه طويلاً. «تفضّلْ» قلت له. لكنه أشار بيده التي تحمل القدح أن أدخل أنا قبله دون أن ينظر إليّ. كررت «تفضّل، أرجوك. لقد كنت هنا قبلي.» هزّ رأسه وأشار بيده ثانية. شكرته ودخلتُ. عندما خرجتُ كان ما يزال واقفاً هناك.

شكرته وابتسمت، لكنه لم يقل شيئاً وهو يهم بالدخول. كنت سأسأله عن اسمه، لكنني كنت متأكداً أنّه لن يجيب.

يمشي دائماً بمفرده. لا علاقة له بتجمّعات المشرّدين الذين يجلسون على المصاطب بالقرب من المكتبة، أو على الجانب المقابل لمقهى «ثنك» أحياناً. ولم يكن يتقرفص أو ينام أمام «مطبخ الحساء» على شارع ميرسر. ولا يقف في الطابور لتناول الوجبات التي تقدم للفقراء والمشردين في الداخل. في أيام الشتاء الباردة يلتحف بطانية زيتونية اللون وينام على الرصيف على شارع غرين فوق مشبك التهوية الكبير الذي يزفر الهواء الدافئ. يمشي بتؤدة ويحادث نفسه، بهدوء وبصوت واطئ، دائماً بالإسبانية، لا بالانكليزية. قد ينفعل أحياناً في جداله مع نفسه أو مع الأشباح التي كان يصارعها، فيرفع يده اليمنى ليؤكد على نقطة ما، لكن ذلك لم يحدث كثيراً في السنة الماضية ومنذ بدأت أراقبه. لم أره يصرخ أبداً أو يتشاجر مع أحد.

ذات مرة كنت أشرب القهوة مع زميل في مقهى «باني إي شوكولاتي» على تقاطع وايفرلي وميرسر ورأيناه يمشي على الرصيف المجاور للمقهى باتجاه برودواي. «هاهو المشرّد النخبوي» قلتها بصوت عال. فسألني زميلي، الذي كان من بورتوريكو «لماذا تقول هذا؟» «لأنه لا يتحدّث مع أحد. لا يختلط ببقيّة المشرّدين.» «نعم، طبعاً، لأنه مازال يحارب في مكان بعيد» «ماذا تقصد؟» «أنا متأكد أنّه حارب في باناما أثناء الغزو الأمريكي. أسمعه يدردم بالإسبانية. يقول أشياء عن باناما. كنت أقف خلفه في الطابور لشراء القهوة من «ديليون» ذات مرة وسمعته يتحدّث وكأن المعركة مستمرّة. ألم تر القطعة المعدنية التي حول رقبته؟ عليها رقمه العسكري ورتبته.»

«ماذا كانت رتبته؟ هل تكلّمت معه؟» «ألقيت عليه التحيّة وحادثته بالإسبانية وسألته إن كان يحتاج أي مساعدة» «وماذا قال؟» «فك أوف!» ضحكتُ وابتسم هو. «بالإسبانية أم بالانكليزية؟» «بالإسبانية. لديه عبارة واحدة يردّدها كثيراً» «ما هي؟» «إيستوي آكي» «وما معناها؟» «أنا هنا.»

أنا هنا.

نحن هنا.

* * *

«ليست الذاكرة أداة لاستكشاف الماضي بل هي حيّز. حيّز يمر به المرء مثلما الأرض هي الحيّز الذي تدفن فيه المدن القديمة. وعلى الذي يريد أن يقترب من ماضيه المدفون أن يتصرف مثل شخص يحفر. وأهم من كل شيء، عليه ألا يخاف من أن يعود، مراراً وتكراراً، إلى نفس الموضوع: وأن ينثره كما ينثر المرء التراب، وأن يقلّبه كما يقلّب التربة.»

* * *

لا أتذكر زمناً لم أكن أكتب فيه. منذ أن تعلمت رسم الحروف والكلمات وأنا أكتب بلا توقّف. وحتّى قبل ذلك كنت أخربش كثيراً. كل الأطفال يخربشون، لكن جدتي، التي ماتت قبل أن أكمل الثامنة، كانت تردد إنها لم تر أبداً طفلاً يخربش مثلي حتّى أنها لقبتني «أبو شخابيط.» كم كنت أحب خط الكلمات على سطور الورق في دفاتر المدرسة. أكمل كل الواجبات حال

عودتي من المدرسة وحتى قبل أن أتناول طعام الغداء. ولم تكفني الدفاتر، فكنت أكتب على كل قطعة ورق أجدها في أي مكان. الجدران هي الأخرى كانت أوراقاً هائلة تغريني بالكتابة. كنت أملأها وأنا واقف ثم أجيء بكرسي أتسلّقه وأقف عليه لأملأ تلك البقع التي لا أصل إليها. وكانت العواقب وخيمة. نهرني أبي وعاقبني أكثر من مرّة لأنني ملأت جدران بيتنا بالجمل التي كنت أسطّرها بأقلام الرصاص. كانت الصفعة التي أنهت «مرحلة الجدران» قوية. ظلّ خدي محمرّاً بعدها لساعات. خافت أختي وبكت مع أنّها لم تكن تكتب على الجدران مثلي. كسر القلم الذي كان بيدي وحذّرني «هاي إيدك أكسرها مثل هذا القلم إذا تشخبط بعد. افتهمت؟» ثم حذّر أمّي التي هرعت لتحميني من غضبه قائلاً: «ما أريد أشوف ولا حَرُف عالحيطان بعد. افْتِهَمْتي؟ الظاهر إبْنِچ راح يطلع عَرْضَحالچي.» حاولت أمي تهدئته كالعادة ومسحت دموعي يومها وقبلتني وهمست «يالله مِيْخالف. باچر آخذك لسوگ السراي أشتريلك دفاتر وأقلام. اكتب شگد ما تريد حبيبي، بس مو عالحايط يا إبني. الله يخلّيك.» سألتها «شنو عرضحالچي؟» فقالت «واحد يگعد گدام المحاكم يكتب عرايض للناس.»

بعدها بأيام جاء رجلان صبغا كل الجدران بلون أبيض مائل إلى الصفار. واختفت كلماتي كلها تحت طبقة لزجة ظلّت رائحتها القوية في البيت لأسبوع وكأنها تحذرني من الاقتراب.

أوفت أمي بوعدها لي وأخذتني إلى سوق السراي واشترت لي «درزن» من الدفاتر وحزمة أقلام ومقطاطات ومسّاحات ملوّنة «أمّ الريحة.» عندما كنا على وشك الخروج من سوق السراي سمعت

طيراً يغرّد. بحثتُ عن مصدر الصوت فوجدته في قفص معلق أمام أحد المحلّات. اقتربتُ من القفص فرأيت طيراً بدا كأنه يرتدي حلّة من الألوان في حفلة تنكريّة. يتناوب البرتقالي والأسود والأبيض على وجهه. تاج رأسه أسود. وريش صدره أبيض بحافات رملية اللون. الجناحان مزيج من الأصفر والأسود. بدا سعيداً باهتمامي به. لاحظ صاحب المحل وقوفي قرب القفص. سألته «شنو هذا عمّو؟» فقال «هذا حسّون وليدي.» سحرني صوته وألححت على أمّي أن تشتري لي واحداً. «أكو منّه هنا بسوگ الغزل إذا تَرْدين.» قال لها صاحب المحل. لاحظتُ ترددها فتظاهرتُ بأنني على وشك البكاء وأنا أقول «الله يخليج، يوم، الله يخلّيج.» «زين، حبيبي، زين.» مشينا إلى سوق الغزل الذي كان عامراً بكل أصناف الطيور والقطط والكلاب، كلها في أقفاص تنتظر. استفسرت أمّي عن الحساسين ووجدنا رجلاً يبيعها داخل السوق. تعاملت أمّي مع البائع على سعر الطائر مع القفص بينما انشغلتُ أنا بالتمعّن بصديقي الجديد. سمعتها تستفسر منه عمّا يمكن أن يأكله وعن الاعتناء به. أردت أن أحمل القفص الصغير بنفسي لكنّني لم أقو على ذلك فحملته أمّي وأوقفت سيارة أجرة كي نعود إلى البيت. وضعتْ القفص بيني وبينها على المقعد الخلفي. علّقناه في الممر بين المطبخ وبين غرفة الضيوف بالقرب من الشباك الكبير. وكنّا نخرج القفص ونضعه في الطارمة في العصرونيّات. عندما عاد أبي إلى البيت يومها سمع غناء الحسّون قبل أن يراه. أعجبه صوته لكنه هزّ رأسه وقال لها عنّي «راح تدلّعيه للولد. مو زين.»

أخذتُ أجلس بالقرب من القفص أكتب واجباتي وأقرأ وأملأ

دفاتري بالقصص والحسّون يغرّد. شعرت وفاء بالغيرة لأنّني قلت لها إنّه حسّوني أنا فقط.

كنت أدوّن كل شيء. أسماء أشخاص ومدن وبلدان وكل الكلمات الجديدة التي أتعلمها كل يوم. كلمات الأناشيد والقصائد. جمل مفيدة وجمل غير مفيدة، وهي الأجمل. كل ما يحدث لي وحولي في المدرسة والشارع والبيت. وحتى ما لم يحدث ولا يمكن أن يحدث. وما يجب أن يحدث. والآن أعرف أنني كنت أكتب لأكتب، أولاً وأخيراً، و ربما لأمحو الحدود بين الواقع الممل والخيال أو أبقيها مفتوحة. في العاشرة من عمري أسّست مجلة أسبوعية كتبتها بخط يدي ووزعت نسخها السبع على الأطفال في شارعنا في العطلة الصيفيّة.

كنت أريد أن يقرأ الجميع ما أكتبه. أطلب من أمّي أن تقرأ ما أكتبه. تفعل ذلك وتبتسم «عفية بالشاطر.» أمّا أبي فكان يفرح أحياناً لكنه كان يستغرب من قدرتي على «اللغوة» و«الخريط».

لكن هذه الرغبة خفّت تدريجيّاً وضمرت عندما أصبحت في المدرسة الثانوية. لا أعرف ما السبب. ربما لأنني بدأت أدرك أهمية الكتابة كفعل وأهميّة الأدب؟ وباستثناء الاشتراك في النشرات التي كانت تعلّق على الجدران وعند الكتابة لدرس الإنشاء، لم أعد أُطلع الآخرين على ما أكتبه البتة. أخذت أحتفظ بدفاتري لنفسي. وبمرور الزمن تولدّت عندي رهبة قوية من فكرة الكتابة نفسها. بدأت أخاف من بياض الورق وأخاف من أن ما أكتبه سيكون تافهاً. مزقت دفاتري وألقيت بالغالبية الساحقة منها في الزبالة. لم أعد أفكر بأنني سأكون كاتباً بالضرورة.

في السنة الأولى في الجامعة سأل الأستاذ الذي درّسنا مادة

النقد الأدبي في أول محاضرة: «منو يكتب بيكم؟ شعر أو نثر؟» فوجئت بالأيادي ترتفع. عدد الطلاب في شعبتنا أكثر من ثلاثين ونصفهم يكتبون؟ لم أرفع يدي يومها ولم أقل شيئاً. كنت أتابع كل ما ينشر في الجرائد والمجلات الأدبية وكنت أقرأ بنهم، لكنني لم أحاول أن أنشر أي شيء. ولست نادماً على أنني لم أنشر نصاً واحداً طوال تلك السنوات وحتى الآن.

* * *

انقطعت مراسلاتي مع ودود لحوالي سنة ونصف. لكنّه لم يغب عن بالي وكنت أفكّر فيه بين الحين والآخر وأعود إلى فهرسه وأتصفحه. كنت منهمكاً بالتدريس وبأكمال أطروحتي التي اشترط عقدي مع كليّة دارتموث أن أنهيها خلال سنة ونصف. لم أشعر بفرح حقيقي بعد تسليم الأطروحة والدفاع عنها وحصولي على الدكتوراه بعد كل تلك السنين. فلم يكن اللقب يعنيني أصلاً لا أنكر أنّني شعرت بأن حملاً ثقيلاً أزيل عن كاهلي. لكنني شعرت بفراغ وبحزن. قال لي علي هادي الذي أقام عشاء احتفالياً في بيته بمناسبة حصولي على الدكتوراه إنه شعور طبيعي يشبه الحزن الذي ينتاب الأمّهات بعد الولادة. «كلما تخَلِّص مشروع چبير طوّل سنين وصرفت بي جهد راح تحسّ بهالشي. ماكو مفرّ.»

بعد انتقالي إلى عملي الجديد في جامعة نيويورك بأربعة أشهر وجدت في صندوق البريد في الجامعة مظروفاً كبيراً. عرفت من العنوان أنّه من القسم الذي كنت أعمل فيه في كليّة دارتموث. عندما فتحته وجدت رسالة من السكرتير يقول فيها إن عدداً كبيراً من الرسائل الشخصيّة وصل إلى عنواني في القسم من العراق خلال

الأسابيع الماضية وتراكم. قال إنه يرفقها كلّها وطلّب منّي أن أعلم المرسلين بتغيير عملي وعنواني لكي يتوقّفوا عن إرسال الرسائل. عرفت من الخط على الظروف أن الرسائل كلها من ودود. فوجئت بالطبع. فضضت الرسائل وقرأتها واحدة بعد الأخرى وأنا جالس في مكتبي. استغربت أنهّا لم تكن رسائل، فمعظمها كان بلا تحية ولا مخاطبة أو توقيع ولم تكن مؤرّخة. بعضها عبارة عن نصوص يسرد فيها ودود وقائع حدثت معه بشكل جميل ومتسلسل وبإيقاع داخلي أحياناً. فرحت وأنا أقرأها وقلت لعلّه استجاب لطلبي ويريد أن يساعدني في كتابة الرواية عنه، مع أنه كان قد راوغ عندما فاتحته بالأمر. لكن معظم النصوص الأخرى كانت شذرات شعرية وتأمّلات مكتوبة على قصّاصات. وأربعة منها هلوسات غير مفهومة. وضعت المظاريف في علبة كنت قد خصصتها لمظاريف ودود وأضفت الرسائل إلى الدفتر لتكون مع الفهرس. وحرت كيف سأجيب على هذه الرسائل؟ كتبت له بعد يومين أنني فرحت كثيراً باستلام وقراءة نصوصه التي تأخّر وصولها لأنني انتقلت إلى مدينة أخرى وطلبت منه ألّا يبخل عليّ بالمزيد وأن يرسل ما يكتبه مستقبلاً إلى عنواني في نيويورك.

* * *

هذه ذاكرتي بكل كنوزها، وبكل الخراب الذي فيها، أمامك. فخذ ما تشاء.

* * *

شيئاً فشيئاً أخذت أدخل إلى البناية من مدخل الخدمة الخلفي واستخدم مصعد الخدمات للوصول إلى مكتبي على الطابق الخامس. هذا المصعد أقل ازدحاماً من المصاعد الرئيسيّة التي تزدحم بالطلاب والأساتذة. لكنني أدركت أنني أخذت أفضّله لأسباب أخرى، منها تلافي المجاملات الخاوية والمحادثات المزعجة. مثلاً، ذات مرة وقبل أسبوعين من عطلة الربيع سألتني زميلة دخلت المصعد الرئيسي: «هل ستعود إلى بغداد في العطلة الربيعيّة؟» صدمني سؤالها. فالأخبار في الأسابيع التي سبقت ذلك اليوم كانت طافحة بصور الجثث والانفجارات والحرب الأهلية كانت مستعرة. كانت تعرف جيداً أنني من بغداد لأنها كانت عضوة في اللجنة التي وافقت على توظيفي ولكن يبدو أنها نسيت أنني هاجرت عام ١٩٩٣ لعنتُ الآلهة والوجود بأكمله بصمت وقلت لها بهدوء: «كلا، سأظل في نيويورك.» لدي أشياء لا بد أن أكملها. «آه، العمل لا ينتهي، أتفهّم وضعك. حاول أن تستمتع بالعطلة مع ذلك.» «أنت أيضاً.» أقنعتني تلك المحادثة بهجر المصعد الرئيسي. مصعد الخدمة خال معظم الوقت. أحياناً يدخل فيه عمال التنظيف والصيانة وأغلبهم من السود أو المهاجرين اللاتينو فنتبادل ابتسامات وتحيّات صادقة دون أن نتظاهر باهتمام مزيّف. وأحياناً أجد نفسي، خصوصاً في الليل، مع أكياس النفايات الشفّافة المتخمة بالورق الذي يتم جمعه من سلال القمامة لكي تتم إعادة تدويره. فأفكّر بالحبر وبكل الكلمات التي سيتم دفنها في مقابر النفايات.

* * *

رأى في المنام مرة أخرى أنّه في قفص من عظام إنسان. ظنّ أنّه طير. ثم عرف أنّه قلبٍ. ولكي يطير عليه أن يمزّق رئة ويقتل صاحب القفص. وظل حائراً متردّداً.

* * *

أتسلل إلى فهرس ودود وأخبئ أشلائي وهلوساتي في ثنايا دقيقته. أطيل دقيقته.

* * *

وتحسب أن اللحظة جِرمٌ صغيرٌ وفيها انطوى العالم الأكبر.

* * *

وصلتُ قبل الموعد بربع ساعة كعادتي. منذ انتقلت إلى نيويورك وإلى هذه المنطقة في مانهاتن بالذات؛ «الڤلج» (القرية) أصبح كل شيء قريباً من شقتي ويمكنني أن أمشي إليه خلال ربع ساعة: مكتبي، مكتبة الجامعة، المقهى، المطاعم، نادي الجاز، المتنزّه، السوق، مستوصف الجامعة، عيادة الطبيب، وحتّى الحانوتي لا يبعد أكثر من عشر دقائق مشياً. وحدها المقبرة بعيدة جداً، خارج المدينة، لأن المدينة تزدحم بالأحياء. وقفتُ أمام مدخل البناية على شارع لافاييت. واجهتها من الحجر الأحمر، بنيت قبل أكثر من سبعين سنة (التاريخ محفور على طابوقة فوق المدخل) لكن يبدو أنها جُدِّدت مؤخراً. بحثتّ عن اسم الطبيبة «سارا فريدمان» على لوحة الأزرار النحاسية. وجدته وضغطت على الزر الذي كان بجانبه، فجاء صوتها «نعم.» ذكرتُ اسمي فتبعه

الأزيز الذي يأذن لي بالدخول. كنت قد حجزت الموعد إلكترونياً عبر الموقع الخاص بالتأمين الصحّي. قرأت بعض المراجعات التي أثنت على الطبيبة وعلى تعاملها مع المرضى. أخذت المصعد إلى الطابق الرابع وضغطت على زر آخر إلى يمين باب المكتب وسمعت أزيزاً أقل نشازاً من ذاك الذي أصدره الباب الرئيسي. فتحت الباب ودخلت إلى غرفة انتظار كبيرة بلا نوافذ تتوسطها كراس جلدية وثيرة وإضاءة خافتة. كانت الأرضية من الخشب الذي يتألم بصوت مسموع عندما يمشي عليه المرء. جلست على واحدة منها وقلّبت المجلّات التي كانت على الطاولة. اخترت عدداً من مجلة «نيويوركر» لأنني كنت أحب الرسوم الكاريكاتيريّة فيها. لن يكفي الوقت لقراءة مقال كامل. كان هناك أربعة أبواب لأربعة مكاتب، كلها مغلقة. لم أعرف أياً منها سيكون وجهتي. بعد دقيقتين فتح الباب الذي كان إلى أقصى اليسار وشاهدت شابّاً يخرج من المكتب و خلفه رجل أصلع في منتصف الخمسينيّات، خمّنت أنّه طبيبه يقول له «سأراك الأسبوع القادم.» عدت إلى الكاريكاتير بعد أن تبادلت نظرة سريعة مع الشاب الذي بدا وكأنّه من أولئك الذين يعملون في وال ستريت. كان يرتدي بدلة رمادية أنيقة وربطة عنق حمراء ويحمل حقيبة جلدية صغيرة. أسرع إلى الخارج.

بعدها بقليل فُتِح باب آخر إلى اليمين وخرجت منه فتاة في بداية العشرينيّات ذات شعر طويل. ترتدي تنورة سوداء وبوت جلدي أسود يصل إلى ما تحت ركبتيها. بدا لي وكأنها تجفف دموعها بمنديل. مشت إلى الباب دون أن تنظر بعد أن ودّعتها سيدة لم أتبيّن شكلها بسبب أشعة الشمس القادمة من شباك كبير داخل المكتب الذي وقفت عند بابه. سألتني: «السيد بغدادي؟»

عندما أجبت «نعم» طلبت مني أن أدخل. أعدتُ المجلّة إلى الطاولة وحملت نفسي إلى مكتبها. أغلقتْ الباب ورائي وأشارت لي أن أجلس على كنبة جلدية تتسع لشخصين كانت إلى اليسار. وجلست هي على كرسي من نفس النوع يقابل الكنبة وبيننا طاولة خشبية واطئة عليها صحن خشبي مربّع بداخله زهور مجفّفة تحيط بشمعة كبيرة بيضاء. استكشفتُ مكتبها بنظرة سريعة حالما جلست. الجدران بلون حليبيّ هادئ. السقف عال كما في البنايات القديمة. هناك نسخة ورقيّة مؤطرة لواحدة من لوحات ميرو على الجدار الذي يقابلني. شهاداتها مؤطرة بخشب غامق. إلى اليسار شباك كبير يستقبل الشمس بحفاوة وتحته مكتبة صغيرة فيها ملفات وكتب لها علاقة بالطب النفساني. وضعتْ الحاسوب الصغير على حجرها وطلبت مني بطاقة التأمين الصحي فناولتها إياها. أدخلت معلوماتي في حاسوبها. كانت في بدايات الأربعينيّات. شعرها بني فاتح متوسط الطول يصل إلى كتفيها. عيناها خضراوان. بشرتها بيضاء صافية. أظافرها طويلة ولكن بلا طلاء وبلا خواتم. ترتدي بلوزة سوداء بفتحة على شكل رقم ٧ وقلادة فضيّة. وتنورة خضراء تظهر بدايات فخذيها عندما تجلس. قلت لنفسي وهي تدخل المعلومات: إنها جميلة، ويمكن أن أمتّع نظري على الأقل إذا شعرت بالملل أثناء الجلسة. نهداها مازالا يقاومان الجاذبيّة الأرضية وجاذبية الزمن. هذا ما خطر ببالي وهي تمد يدها لتعيد البطاقة إليّ. ثمّ تذكّرت الحمّالات الدافعة الخادعة ورواجها هذه الأيّام. وضعتْ حاسوبها على طاولة جانبية صغيرة إلى يمينها بعد أن أخذت مفكرة كبيرة كانت عليه. فتحتها والتقطت قلماً أسود كان بداخلها.

«أوكي. كيف يمكن أن أساعدك سيد بغدادي؟ لماذا أنت هنا؟»

«لأن صديقتي قالت لي إنني يجب أن أجرّب العلاج النفساني.»

«آها، هذه ليست بداية جديدة؛ القدوم هنا من أجل شخص آخر. يجب أن تدرك وتقتنع بحاجتك للعلاج.»

سكتّ ثم قلتُ:

«لو لم أكن مقتنعاً جزئياً لما جئت.»

«ولماذا، برأيك، حثّتك صديقتك على أن تبدأ بالعلاج؟»

«تقول إنني أُعاني من كآبة شديدة. ولديّ «بي تي إس دي.»»

«وهل تتفق معها؟ ما رأيك أنت؟»

«ملايين الناس مكتئبون. هذه ضريبة الوجود في هذا العالم.»

«لم تجب على سؤالي. هل أنت مكتئب؟»

«نعم، لا شك أنني مكتئب منذ سنوات طويلة، ولكن لا أريد أن آخذ أيّة حبوب.»

«العلاج ليس بالحبوب بالضرورة. بالكلام.»

«أنا أتكلم مع نفسي طوال الوقت. كما أنّني تعبتُ من الكلام. أتكلم كثيراً في المحاضرات أمام الطلاب، وهذا يكفي.»

«لكن الكلام هنا، ومعي بالذات، يختلف.»

«سنرى.»

«هنا يمكنك أن تقول كل شيء و أي شيء بدون عواقب وبدون رقابة.»

«ماذا عن الرقابة الذاتية؟»

«ستتخلص منها تدريجيّاً. هل تعتقد أن كآبتك ازدادت مؤخراً؟»

«ربما.»

«كيف؟»

«أشعر بأنني منهك عاطفياً ووجوديّاً. و «لا شيء يعجبني» كما قال شاعر أحبّه كثيراً. ليس هذا جديداً ولكنه ازداد مؤخراً بشكل رهيب.»

«هل يمكن أن تقول المزيد؟»

«أقوم بمهامي الأساسية كما هو مطلوب في عملي. ألقي محاضراتي وأصحح بحوث الطلاب وأحضر الاجتماعات المملّة. لكنني لا أتفاعل مع البشر وأتفادى ذلك قدر الإمكان، باستثناء صديقتي طبعاً. أهمل أشياء كثيرة. لا أفتح صندوق البريد وأترك الرسائل والفواتير تتراكم بلا سبب. في البريد الإلكتروني لا أرد إلا على الرسائل العاجلة. آخذ مصعد العمال كي أتفادى الأحاديث السخيفة في المصعد الرئيسي مع زملائي. أفضّل العزلة وكل ما أفعله حين أكون وحيداً هو مشاهدة الأفلام بشكل متواصل لساعات ومتابعة الأخبار طبعاً، للأسف. لكنني توقفت عن قراءة الكتب وحتى الروايات. أقرأ الجرائد طبعاً والشعر أحياناً. أحاول كتابة رواية منذ سنوات لكنني لم أكتب أكثر من صفحات سخيفة. أعاني من أرق شديد. أؤدي مسؤولياتي حينما يتعلق الأمر بالآخرين، لكنني أهمل كل ما له علاقي بي أنا شخصيّاً.»

«صدّق أو لا تصدّق. ولا أقصد أن أقلّل من معاناتك البتّة. لكن وضعك ليس سيئاً جداً.»

«أعرف، ولذلك ترددت في المجيء أصلاً. لأن هذه مشاكل برجوازية سخيفة تحدث للكثيرين. هناك مجاعات وحروب و.»

قاطعتني قائلة:

«كلا، ليست سخيفة. المعاناة حقيقيّة وخاصّة لكل شخص بغض النظر عمّا يحدث في العالم. لكن أهم شيء هو ألا تحاول أن تلعب دوري أو تصادره. دعني أنا أقرّر وأقيّم. هل يمكنك أن تخلع قبّعة الأستاذ الجامعي عندما تكون هنا؟»

«سأحاول.»

سألتني إن كانت علاقاتي مع عائلتي صحيّة. فقلت لها إنني لم أحادث أبي منذ أكثر من عقد وأن أمّي ميّتة وأنني أهاتف أخي الصغير وأختي مرة كل شهر أو شهرين. قالت إنّنا يجب أن نركّز على علاقتي مع أبي في الزيارات اللاحقة.

«آسفة ولكن انتهى وقت الجلسة ولدي مريض آخر خلال خمس دقائق. يمكن أن نستمر ولكن أريد أن أعرف إن كنت ستلتزم بالمجيء مرة في الأسبوع. وأفضّل أن تجيء في نفس اليوم والوقت كل أسبوع. من المهم أن يصبح الأمر طقساً وجزء أساسياً من حياتك.»

* * *

منطق الأسير

ولد حسن الأسير، واسمه الحقيقي حسن جاسم اللَّحّاف، في محلة خان لاوند في منطقة الفضل في بغداد عام ١٨٩٢ وعمل مع والده وإخوته في خياطة اللحفان. يقال إنه كان شجيّ الصوت منذ

صغره. وأغرم بالمقام وبقراءته. ويعود الفضل لاكتشاف موهبته إلى قارئ المقام الشهير أحمد الزيدان الذي كان يزور محل جاسم اللحّاف لشراء لحاف جديد عام ١٩٠٣ وسمع الصبي يغنّي فانبهر برخامة صوته وقوّته. سأله إن كان يرغب في أن يتعلّم أصول المقام ففرح الصبي. لكن أباه رفض الفكرة ونهره عندما فاتحه بها بعد ذلك. أخذ حسن يتردد على مقهى مجيد كركر في الفضل الذي كان يملكه الزيدان والذي كان ملتقى لقرّاء المقام. يجلس القرفصاء خارج المقهى ليستمع إلى قرّاء المقام. ورآه أبوه ذات مرة وهو يمر أمام المقهى فغضب وضربه وأمره بالعودة إلى البيت. لم تنجح عقوبات الأب وتهديداته بالطرد بإبقاء حسن بعيداً عن مقهى مجيد كركر. رقّ قلب الزيدان عليه حين رآه يبكي ذات مرة فاستفسر منه عن الخطب. وعندما عرف بمشاكله مع أبيه عرض عليه أن يجد له عملاً في المقهى. وأقنع الچايچي أن يأخذه كمساعد له. غضب والد حسن في البداية وطرده من البيت فنام لعدة أيام في المقهى. لكن أمّه نجحت في إقناع أبيه بأن يوافق على عودته إلى البيت. واشترط عليها أن يعطيهم أجره مقابل غيابه عن العمل مع الأب.

وتشرّب حسن أثناء سنين العمل تلك في المقهى أطوار المقام واستوعب أصوله. فأخذ عن الزيدان وروبين بن رجوان وصالح أبو دميري. واعتنى الزيدان به إذ توسّم فيه موهبة فذّة. فأخذ يصطحبه معه في حفلاته وشجّعه على الأداء. وغنّى حسن الأسير المقام لأول مرة في حفلة عام ١٩١٢ عندما كان الزيدان متوعّكاً وطلب منه أن يحل محلّه. وأبلى بلاء حسناً وبرز اسمه بعدئذ بين محبّي المقام حتى بات ينافس رشيد القندرچي وتفوّق على أستاذه.

بعد أن نشبت الحرب العالمية الأولى وانضم العثمانيون إلى

الألمان أعلن النفير العام. وحاول الأسير أن يهرب من الحرب فاختبأ في أحد البساتين في الصليخ. لكنهم قبضوا على ثلاثة من إخوته وأخبروا عائلته أنهم لن يطلقوا سراحهم حتى يسلِّم نفسه. فسلّم نفسه وسيق مع آخرين كي يحاربوا الروس. أخذهم القطار إلى سامراء ومن هناك مشوا أسابيع طويلة حتى وصلوا إلى جبال القوقاز حيث كانت جبهة الحرب. رأى معظم الذين حاربوا معه يموتون برداً وجوعاً. لم يمت هو لكنه فقد بصره إثر إصابة شوهت عينيه. أسره الروس وظل هناك خمس سنوات عاد بعدها إلى بغداد. كان أبوه قد توفّي وهو في الأسر وورث إخوته محل اللحافة. رحب أهل المقام بعودته من الأسر ودعوه للغناء. لم يفقد صوته حلاوته، بل اكتسب بحّة زادته شجى. لكنه لم يعد لوحده، فقد بدا واضحاً أن الحرب وأشباحها عادت معه وظلت تلاحقه. فكان يفرط في الشرب وهو يغنّي ويصرخ ويسبّ ويصارع أشخاصاً لا وجود لهم ثم يبكي كالأطفال. توقّفت الدعوات وأخذ معظم أصدقاؤه يتهرّبون منه باستثناء عازف جوزة اسمه صالح شميل. اعتكف في غرفة في البيت وانقطع عن العالم. في عام ١٩٢٥ بدأ بطرس وجبران بيضا، صاحبا شركة بيضافون بتسجيل المطربين العراقيين لطبع أغانيهم على اسطوانات علامة الغزال وتسويقها. سمع وكيلهما في بغداد عن صوت الأسير لكن البعض حذره من إدمانه وانفجاراته. كان صالح شميل أحد عازفي التخت الذي رافق قراء المقامات. وكذّب على الوكيل وأكّد له أن الأسير لم يحتس العرق منذ سنتين وأنه سيسجّل بدون إثارة مشاكل، فوافق. ثم كان على صالح أن يقنع الأسير، الذي كان في حضيض اليأس، على الموافقة على التسجيل. رفض في البداية، خصوصاً أن الشرط

الأساسي كان أن يتوقّف عن الشرب لأسبوع. ظل صالح يلّح عليه واستثار غيرته بأن ذكر أسماء كل من سجّلوا. ثم راقت له فكرة أن يظل صوته موثّقاً حتى بعد أن تصبح عظامه رميماً. ترك العرق مؤقتاً وأخذ يتدرّب ليستعيد مرونة صوته. واصطحبه صالح إلى الغرفة التي تحوّلت إلى استوديو للتسجيل وسجّل لهم لمدة ثلاث ساعات. قال له الأستاذ درسة بعد أن انتهى من التسجيل إن الاختيار سيكون للأخوة بيضا في بيروت وأنهم لن يطبعوا كل الأغاني. وكان الطبع يتم في معمل في برلين:

ألا فاسقِني خمراً وقل لي هيَ الخمرُ
ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهرُ
و ما الغبْنُ إلاّ أن ترَانيَ صاحيا
و ما الغُنْمُ إلا أن يتعتعني السكرُ
فبتنا يرانا الله شرَّ عِصابة
نجرّرُ أذْيالَ الفسوقِ ولا فخرُ
و خمارَة نبهْتها بعد هجعة
و قد غابت الجوزاءُ ، وارتفعَ النسرُ

إن شكوت الهوى فما أنت منّا
تحمل الصد والجفا يا معنّى
قم من النوم واطرد الهمّ عنّا
يا مليحاً إذا مشى يتثنّى
قم لقد قامت الطيور تغنّي
أيكون الحمامُ أطرب منّا

تدّعي مذهب الهوى ثم تشكو
أين دعواك في الهوى يا معنّى
ما عشقناك للصفات ولكن
نحن قوم إذا نظرنا عشقنا
كنت مثل الحمام تألف ليلاً
صرت مثل الغزال تنفر عنّا
كلما دارت الزجاجة درنا
يحسب الجاهلون أنّا جننّا

(رست)

طبلة: شاؤول هارون زنگي

جوزة: صالح شميل

قانون: عزوري هارون

«حسن أفندي الأسير» اسطوانات بيضافون.

بعد خمسة أشهر وصلت اسطوانة بيضافون إلى حسن بيد صالح. فرح كثيراً. تحسّسها حسن وشمّ رائحتها ثم طلب من صالح أن يصفها له ويقرأ له ما كتب عليها. حدّثه عن الغلاف الورقي الأصفر ووصف له جهازي الغراموفون و«اسطوانات بيضافون» المكتوبة بأحرف كبيرة وتحتها: «بيروت، القاهرة، برلين. بطرس وجبرا بيضا.» لم يكن حسن مهتمّاً بهذا بالطبع لكن صالح كان يمتحن صبره. وأكمل صالح بصوت دراماتيكي «حسن أفندي الأسير» «إن شكوت الهوى» مقام رست. «والباقي؟» سأله؟ «الباقي موجود عدهم» حزن حسن الأسير وشعر بخيبة أمل، لكن صالح شجّعه قائلاً «يالله بابا، لازم تفرح. راح يسمعوك بالقاهرة وببيروت وبحلب. وبالبصرة هم يبيعون.»

لم يكن يمتلك جهاز غراموفون. فكان يضع الاسطوانة في حضنه وهو يشرب وحيداً في البيت ويغنّي لها. عندما اشترى صالح جهاز غراموفون دعاه إلى بيته ليستمع إلى صوته وهو يغني. توقّع أن يشعر بسعادة أكبر من التي شعر بها. استمعوا يومها إلى رشيد القندرچي ومحمد القبانچي فسأل حسن صالح «بشرفك، آني مو أحسن منهم كلهم. بس غير عميت وتبهدلت بالأسِر.» فأجابه صالح «إنت لو بس تصحى وتعوف العرگ يا عيني.»

لكنّه لم يترك العرق ومات عام ١٩٣٢ محتضناً ربعية عرق قبل أن يكمل الأربعين. لم يتزوج ولم يترك وراءه شيئاً سوى تلك الأسطوانة التي كانت الدليل الوحيد على مروره على هذه الأرض. كانت هناك نسختان من أغانيه، واحدة في مكتب بيضافون في برلين، والأخرى في بيروت. دمّر قصف الحلفاء في الحرب العالمية الأولى مكتب الشركة في برلين وتولّت الحرب الأهلية في لبنان تدمير أرشيف بيروت. ظلّت الاسطوانة اليتيمة التي في بغداد في غرفة حسن مع ملابسه وبعض الحاجيات. عندما انتقل ابن أخيه وخطيبته إلى الغرفة وضعوا الحاجيات في صندوق صغير ركنوه في باحة المنزل. بعد أشهر كان بائع العتيگ يمر أمام البيت فاشترى الصندوق بأكمله. باع الملابس إلى تاجر لنگات، أما الأسطوانة فقد أقنع صاحب مقهى بشرائها. وظلت آهات الأسير تتردد في المقهى كلّما حالفه الحظ أو كان مزاج صاحب المقهى، الذي كان يصرّ على اختيار الأغاني بنفسه، ملائماً. ثم جاءت أجهزة أخرى جديدة أجبرت سابقاتها على التقاعد. واختفت آهات الأسير واسطوانته في صندوق جثم في مخزن لسنين طويلة ينتظر النار التي ستلتهمه في يوم ربيعيّ عام ٢٠٠٣.

* * *

حكيت للطبيبة النفسانيّة عن أمي وكيف أنّني كنت أوّل من اكتشف، بالصدفة، انتشار السرطان في جسدها. كنت أرتدي ملابسي وأتهيّأ للخروج ذات مساء فسمعتها تصرخ بصوت عال. هرعت إلى غرفتها فوجدتها ترتجف بقوة في السرير ويداها في الهواء. وكميات كبيرة من اللعاب تسيل من فمها المفتوح وعيناها مغمضتان. صرخت بها «ماما، ماما، هاي شبيچ؟» أمسكت ذراعيها المتخشّبين لثوان. هززتها وحاولتُ أن أحتضنها. مسحتُ اللعاب بكم قميصي وأنا أناديها كي تستيقظ مما ظننته كابوساً. بعد عشرين ثانية فتحت عينيها وفوجئتْ بوجودها في أحضاني. قالت إنها كانت نائمة لأنها كانت تعاني من صداع مزمن زادت حدّته في الأسابيع الأخيرة ولا تتذكّر ما حصل. لعله كان كابوساً. قبّلتني على خدي وتأسّفت ثم قامت وذهبت إلى الحمام لتغسل وجهها. ألححت عليها كي تذهب إلى الطبيب لأن ارتجافها كان غريباً جداً. كعادته، قلل أبي من أهميّة الموضوع. «هاي من ورا الچاي اللي تظل تشربه.» رافقتُها إلى عيادة الطبيب. بعد الفحوصات أشار الطبيب بإجراء أشعة الرنين المغناطيسي في أقرب وقت. ذهبنا إلى المستشفى وأضحكتني يومها حين أناموها على ما يشبه الجارور الذي يدخل قلب الجهاز ويظل فيه حوالي ساعة تلتقط فيها الأشعة الملوّنة. قالت «هذا شنو؟ عبالك تابوت. ديدربونا عالموت يا ربّي؟» بعد يومين اتصلت بنا سكرتيرة الطبيب وطلبت أن نحدد موعداً. طلب أن يتحدّث معي لوحدي أولاً على أساس أن اسمي هو المكتوب في استمارة المعلومات. وشاهدت الخوف في عينيها. أدركت أن هناك وضعاً استثنائياً. قال لي إن السرطان كان قد انتشر في جسدها ووصل إلى دماغها. صعقتُ لأنها كانت قد أجرت عملية استئصال

الثدي قبل سنتين وكل الفحوصات بعدها أثبتت عدم وجود أي خلايا خبيثة. لكنه قال إن هذا يحدث، للأسف. حتى بعد الشفاء من سرطان الثدي فإن بعض الخلايا السرطانيّة تتخفى وتسبح نحو أجزاء أخرى من الجسم. سألته عن إمكانيات العلاج فقال لي إنّها يجب أن تدخل المستشفى وأنه سيأمر بالعلاج بالإشعاع وسيعطيها أدوية، لكن احتمالات الشفاء ضعيفة، عشرة بالمائة. سألني إن كنت أعتقد أنها مستعدة لأن تسمع الخبر، فقلت له إنها امرأة قويّة مرّت بالكثير في حياتها. خرجتُ وطلبت منها أن تدخل. جلسنا أمامه وأعاد ما قاله لي وأضاف تفاصيل أخرى واضطررت أن أترجم كل شيء لها. «لن أكذب عليك سيدتي. الوضع صعب جداً لكن جسد الإنسان قوي ويمكنه أن يقاوم وينهض من جديد.» أدمعت عيناها وأخرجت منديلاً من حقيبة اليد لتمسح دموعها، لكنها شكرته «ثانكيو» وقالت لنفسها ولي «هاي إرادة الله. الله كريم.» كان رد فعل أبي غريباً. قرأتُ بعض الخوف على وجهه عندما أخبرناه لكنني لم أجد حزناً حقيقيّاً. قبّلها على جبينها وقال لها «لازم نگول لأهلچ» وكأنها ماتت. أخذ يلومها بعدها على الكيمياويّات التي كانت تستخدمها في التنظيف وإفراطها في ذلك وكأن لذلك علاقة بالموضوع. تدهور وضعها بسرعة غريبة. كأن الخلايا السرطانية، بعد اكتشافها، لم تعد تحاول التخفّي والاختباء خلف خلايا وأنسجة أخرى. أثناء إجراء العلاج بالإشعاع وبعد إجراء فحوصات أخرى تبيّن أن السرطان كان قد وصل إلى رئتيها أيضاً.

سمح لي عملي في تدريس العربية بشكل خصوصي وحر بجدول مرن وكنت قد ادّخرت مبلغاً لا بأس به فتوقفت عن التدريس مؤقتاً لكي أكون معها كل الوقت.

أما أبي، فكان يجيء إلى المستشفى في الليل بعد العاشرة وبعد انتهاء عمله في الإشراف على محطة الوقود. في الأيام الأولى كان يقبّلها على جبينها بعد أن يدخل، لكنه أخذ يكتفي فيما بعد بوضع يده على رأسها. ثم يجلس ليشاهد التلفزيون المعلق في الزاوية اليسرى من الغرفة. لا يقول الكثير باستثناء أسئلته الآلية أو يقول لي «روح ارتاح بالبيت شوية إذا تريد.»

أرادت شقيقتي، وفاء، أن تأتي من اليونان حيث كانت تعيش منذ عام ١٩٨٩ مع زوجها اليوناني الذي كان يعمل في السفارة اليونانية في بغداد لتكون معنا. لكن معاملة تأشيرة الدخول استغرقت شهرين وعندما وصلت كانت أمّي في شبه غيبوبة بسبب المورفين الذي كانوا يزرقونها به في أيامها الأخيرة. انفجرت وفاء بالبكاء عندما وقفت بجانب السرير لأول مرة ورأت هزال جسم أمي وكيف أن الخلايا السرطانيّة كانت قد وصلت حتى إلى بشرة وجهها. «هاي مو ماما» لكن ماما ابتسمت حين استيقظت ورأت وفاء، ثم شاركتها البكاء. وبعدها بنصف ساعة قالت «كافي، ما أريد بچي ونواح. ضمّو البچي للجنازة. يكفيني اللي بِيَّه» أخذت وفاء تنام معها في المستشفى وترتاح في النهار في البيت وآخذ أنا مكانها حتى السادسة من مساء كل يوم. لطالما استسخفتُ أولئك الذين يقولون إن الميت يستشعر دنو الموت. قبل ساعات من موتها وبين غيبوبتين طلبت أمّي أن ترى شقيقي الصغير «أريد أبوس نصير.» اتصلتُ به من هاتف الغرفة وطلبت منه أن يأتي. «ليش، شكو؟» «ماما تريد تشوفك. سألتْ عنّك.» أخذ الحافلة وجاء بعد نصف ساعة. وبدا خائفاً كأنه يعرف هو الآخر. لم يكن هو يزورها إلا مرة في الأسبوع وكان يضطرب وينكمش عاطفياً ويتهرّب من

الموقف ولم ألمه على ذلك أبداً. عندما وصل كانت نائمة ولم يوقظها أحد منا. جلسنا صامتين وتقرفص هو على الأرض متكئاً على الجدار وسماعة «الواكمان» على أذنيه. بعد ثلاثة أرباع الساعة سمعناها تقول بصوت خافت «وين نصير؟» هب واقفاً واقترب منها. «تعال بوسني حبيبي. أريد أشمّ ريحتك قبل ما الله ياخذ أمانته.» شفتاها كانتا قد أصبحتا باهتتين كأنهما من ورق رقيق. أجهشت وفاء بالبكاء وهي تراها تحتضن نصير وتقبّله. بكى هو أيضاً. بعدها بخمس دقائق تلقفها المورفين من جديد. عدت مع نصير بعدها وسألني ونحن في السيّارة «شراح نسوي؟» فأجبته «شنگدر نسوّي يعني؟ ننتظر.» أيقظني رنين الهاتف في الخامسة صباحاً وصوت وفاء على الجانب الآخر تبكي وتقول «راحت ماما.»

دفنّاها في المقبرة الإسلاميّة في ڤرجينيا. وفي ثالث أيام العزاء خفّ عدد المعزّين من الرجال. وبعد الظهيرة لم يبق أحد غيري أنا وأبي ونصير الذي أخذ قيلولة. خرجت أتمشّى قليلاً وعندما عدت كان إثنان من أولاد جيراننا يلعبان كرة القدم في ساحة وقوف السيارات. وقفت أراقبهم فسدد أحدهم الكرة نحوي فأعدتها له. دعياني لأن أشاركهما اللعب. أدخلت نهايتي البنطلون تحت جواربي وشاركتهما اللعب لنصف ساعة أو أكثر ثم عدت إلى البيت. كان أبي ينظر من شباك غرفة الضيوف لكنّه لم يقل شيئاً.

عادت أختي إلى اليونان. وبعد وفاة أمّي بشهر أخبرني أخي نصير بأنه عاد مبكّراً من المدرسة ذات يوم فرأى أبي يخرج من البيت بصحبة امرأة وأنه يشك أنها عشيقته لأن الأمر تكرر أكثر من مرّة. حين سألته كيف يعرف أنها عشيقة أبي قال إنه عثر على علبة العوازل المطاطيّة في غرفة أبي وأنّه شم عطر المرأة في الغرفة وعلى

الشراشف. قلت له وأنا أعانقه وأداعب شعر رأسه وأحاول التخفيف عنه «شنو شرلوك هولمز إنتَ؟» تأكّدت بعدها أنّها عشيقته فعلاً لأن الأمر تكرر. كانت إمرأة هنديّة أصغر منه بكثير تعمل في محل يجاور محطة الوقود التي كان يديرها هو. واجهته وصرخت به «ما تستحي؟ بعد ما عدَّت شهرين؟» فأجاب بغضب «أدبسز. شلون تحچي ويّاي هيچي؟ إنت أساساً لازم تعتذر منّي» «آني أعتذر؟ على شنو؟» «لأنّك لعبت طوبة بالعزا.» «تقارن هاي بهذيچ؟» فصرخ بي «شنو ذيچ؟» «گَحُبْتَك الهنديّة» فصرخ بي «إطلع برا وبعد لا ترجع للبيت.»

* * *

منطق الجنين

لا يبصر شيئاً. بالرغم من أن عينيه اكتملتا ويمكن له أن يفتحهما. لكنهما مغمضتان. لا يبصر شيئاً. لكنه يحلم. ويحلم كثيراً لأنه يمضي معظم ساعاته نائماً. ليست أحلامه أحلاماً بالمعنى التقليدي. أي أن مفرداتها ليست أحداثاً ولا يمكن سردها بشكل متسلسل أو حتى غير متسلسل. فهي أطياف ملذّات ومسرّات في طور خام. لا يمكن وصفها بسهولة لأنها في حالة سيولة ولم تأخذ أشكالاً محددة بعد. هناك، بالطبع، بعض الألم، في الحلم. وفي اليقظة أيضاً.

لا يبصر. ولكنه يسمع كل شيء. للموسيقى تأثير إيجابي على مزاجه ويمكنها أن تسرع أو تبطئ ضربات قلبه الصغير. ولصوت أمّه وأنفاسها تأثير الموسيقى، أو الضجيج عليه، بحسب مزاجها.

يكاد قلبه يكون نسخة مصغّرة من قلبها هي. يعزفان ذات الإيقاع. وحتى بغياب أيّة أصوات أو مؤثّرات خارجيّة فإنّه يسمع ما يشبه هدير البحر. ويسمع نبض أمّه أيضاً. شهيقها وزفيرها. وسيفتقد هذا الهدير ويحن إليه إن وُلِد. لكنه قد يحاول التعبير عنه وعمّا رافقه باللغة التي سيكتسبها في السنين الأولى. اللغة التي ستكون الطريق الوحيد، أو ربما الأكثر وضوحاً، لترجمة كل شيء. ومع هذا وذاك، فهناك مشاعر ورغبات لا تستوعبها اللغة وتفشل في ترجمتها. فتتكفل بها الشفاه وأعضاء أخرى. لكن الكثير سيظل مطموراً ولن يطفو على السطح إلا في الأحلام والكوابيس.

هذا إن ولد!

لكنه لم ولن يولد.

* * *

لاحظت لورن، طالبة الماجستير التي كنت أعطيها دروساً خصوصية في العربيّة أنني كنت مهموماً فأخبرتها أنني بحاجة إلى سكن مؤقت. قالت إن الشابّة التي تسكن معها مسافرة لشهر ويمكنني أن أظلّ في شقّتها. سكنت مع لورن وبقيت في شقتها حتى بعد أن عادت شريكتها لأن علاقتنا تحوّلت من صداقة إلى صيغة أكثر حميميّة تشمل النوم في نفس السرير. كنت قد أخبرتها برغبتي في أن أترك ڤرجينيا لكن لم تكن لدي خطط محدّدة. بعد انتهاء الفصل الدراسي عرضت علي أن أذهب إلى كاليفورنيا معها بسيارتها ووافقت. شعرت بالحزن وبشيء من الذنب وأنا أودّع أخي الصغير لأنني كنت سأتركه لوحده مع أبي. سافرنا إلى كاليفورنيا بسيارة لورن، الجيب رانغلر الحمراء، ووصلنا إلى سان فرانسسكو

بعد ثلاثة أيّام. وظلّ هذا الشعور بالذنب يلاحقني. لكن لم يكن بإمكاني أن آخذه معي أو أن أعيله.

* * *

منطق الشريط

مستطيل من البلاستك، لونه بنّي غامق، لكنه شفاف بما يكفي للعين أن ترى البكرتين البيضاوين الصغيرتين في زاويتيه السفليتين. والقطع الصغيرة الأخرى التي يمر من فوقها أو بين أحضانها أحياناً شريط رقيق، بني اللون هو الآخر، يدور حول بكرتين أخريين تبدوان كعينين تحدّقان في عينيّ كل من يحدّق. وتكبر إحدى هاتين العينين أحياناً، كأنها تتورم، كلما التف الشريط حولها ليخفف ورم أختها التوأم، فتصبح أصغر فأصغر. ولولا الورقة الملصوقة على جانبي المستطيل A و B وما كتب على الجزء السفلي منهما: «SONY, CHF 60» لكان أشبه بوجه إنسان آلي صغير!

على جلد الشريط آثار صوتين (سينضم إليهما صوت ثالث في النهاية): رجلٌ كان في بدايات الثلاثينيّات عند تسجيل الشريط. وطفلٌ ما زال لسانه يحبو على سلالم اللغة. كلما يُفْتَحُ فك مسجلة صغيرة (أو كبيرة) وتُلْقَمُ المستطيل ويكبس الزر الملائم، يتحرك سن صغير في أسفل فكّها مغلف بقطعة اسفنجية. ويضغط على القطعة الرقيقة الصغيرة، النحاسية اللون، أسفل فم المستطيل، فتستنطق الشريط الذي يُجْبَرُ على المرور تحتها. وكلّما مرّ الشريط يعيد تلك الأصوات من الماضي كما سمعها أوّل مرة. المرّة التي لا زال الشريط نفسه يذكرها.

ثبّت الرجل المسجّلة الحمراء التي اشتراها عصر ذلك اليوم من الأسواق المركزيّة على طاولة خشبيّة صغيرة وضعها أمام الكنبة الوحيدة في غرفة الجلوس. سحب الستارة الصفراء لكي يسمح لأشعة شمس ما بعد الظهيرة أن تتسلل عبر الشبّاك. الطفل يجلس بالقرب من أبيه ويحرّك قدميه الحافيتين اللتين يسمح قصرهما بأن تتدلّيا على حافة الكنبة وتضرب اليمنى رجل الكنبة بكعبها. يسأل الطفل أباه عن الجهاز الجديد: «شنو هذا بابا؟» «مسجّل.»

يسأله عمّا يفعله ولماذا طلب منه أن يجلس بجانبه فيطلب الأب منه أن يصبر ويعده بما سيفرحه.

خشخشة وصوت زفير قريب من اللاقطة. في الخلفيّة ضحكات الطفل وصوته يقول: «يالله، بابا.»

الرجل: «اصبر ابني شويّة، أي، هسّة ديسجّل. شوف هذا الضوة الأحمر؟ يالله. تعال أقرب شويّة... شوف هاي هنا... يالله إحچي.!»

الطفل: «إحچي.»

الرجل: «وِلَك إحچي، علمود يطلع صوتك بعدين.»

الطفل: «وين؟»

الرجل: «هنا. شوف هذا الميكرفون هنا. راح يسمع صوتك ويسجّله عالشريط.»

الطفل: «صُدگ؟»

الرجل: «إي بابا صدگ.»

الطفل: «شا أحچي؟»

الرجل: «بكيفك. گول إنت منو. شسمك؟»

الطفل: «آني سومي.»

الرجل: «سومي، عفية. بس شنو إسمك الكامل؟»

الطفل: «ها؟ حُسام.»

الرجل: «حسام. عفية بالبطل. بابا شسمه؟ آني منو؟»

الطفل: «بابا... إنت. ناظم.»

الرجل: «عفْيّة بالشاطر. وماما؟»

الطفل: «أيسر.»

الرجل: «شاطر. زين، تعرف كوكوختي؟»

الطفل: «كوكوختي، وين اختي، بالحلة.»

صمت

الرجل: «وشتاكل؟»

الطفل: «وشتاكل؟ باجِلّة. وشتشرب؟ ماي الله. وين تنام؟ بأرض الله.»

الرجل: «عفارم (يصفّق). يالله صُفَّيگة لحسام. (يصفقان سويّة). ولك تعال وين رايح؟ بعد شتعرف؟»

الطفل: «أعرف.»

الرجل: «حجنجلي. يالله گولها!»

الطفل: «حجنجلي بجنجلي، صِعَدِت فوگ الجبل، لگيت گُبّة گُبْتين، صحت يا عمي يا حسين، هذا مقام السلطان، شيل رجلك يا عمران.»

الرجل: «عفية. بعد.»

الطفل: «بعد شنو؟»

الرجل: «بلبول.»

الطفل: «بلي يا بلبول. ما شفت عصفور. ينگِر بالطاسة.

حليب وياسة، على گبر تيتي، ما شفت حبيبي. تيتي. ما شفت حبيبتي.   بابا أريد أسمع صوتي.»

الرجل: «هسّة إبني. بس اصبر شويّة. غنّي غزالة غزّلوكي.»

الطفل: «غزالة غزّلوكي، بالماي دعبلوكي، گاعدة على الشط، گاعدة تمشّط، إجاها نومي.»

الرجل: «شگاللها؟ گومي مو؟»

الطفل: «گاللها گومي، هذا حصانچ، أشدّه واركب، على السكركب، سكركب البريّة، لتبچين عليّ، ابچي على حجولِچ، حجولچ باربعميّة، وجيرانچ حرامية.»

واستمرّ الطفل بتحفيز من الأب يردد: «عصفوري من كَفي طار، عصفوري فوق الأشجار، انزل انزل يا عصفور، أكل الحب بليا گشور، عصفوري چان صغيرون، ربيته على إيدي، لمّن كبر وتريّش، گام ينگّر بخدودي، طعمْته حبة عيني، وسْگيته دمعة عيني، كل الناس حسدوني، واخذوا عصفوري منّي.»

بعد سلسة الأغاني ضغط الأب على زر «stop» وألحّ الطفل أن يستمعا إلى ما سجّله الأب، فكبس «rewind» وعندما عاد الشريط إلى البداية كبس «play» وجلسا يستمعان. والطفل يضحك وهو يقرّب أذنه من السماعة الصغيرة في المسجلة الحمراء ليستمع إلى صوته بمزيج من الفرح والاستغراب. عندما وصل الشريط إلى آخر مقطع أوقفه الأب. سأله الطفل: «بابا. لمّن تجي ماما ما يخالف هيّ هم تغنّي؟»

«إي إبني، ميخالف.»

«آني أسوّي.»

«لا إبني.»

«ليش بابا.»

«هذا مو لعبة إبني. تعال أشغّلّك التلفزيون تشوف أفلام كارتون.»

فتح الأب التلفزيون وأشار للطفل بأن يجلس على كرسيه البلاستيكي الأخضر الصغير أمام التلفزيون ففعل. ثم حمل المسجّلة ووضعها على طاولة أعلى بجانب الهاتف. ذهب الأب إلى الحمّام، وبعدها إلى المطبخ وفتح الثلاجة بحثاً عن شيء ليأكله. استغل الطفل الفرصة فترك كرسيه وصعد على الكنبة كي يطول المسجّلة. عبث بالأزرار وأفلح في الضغط على زري «record» و «play» وأخذ يهمس: «طلعت الشمّيسة، على گبر عيشة، عيشة بنت الباشا، تلعب بالخرخاشة، صاح الديج بالبستان، الله ينصر السلطان، يا ملّتنه و...» ثم سمع صوت خطوات أبيه تقترب فنزل عن الكنبة وعاد إلى كرسيه يشاهد الأفلام المتحركة دون أن يوقف التسجيل.

أصوات شخصيات الأفلام المتحركة المنبعثة من التلفزيون ستظل في الخلفيّة. ثم سنسمع صوت الصحن المليء بالرقّي والجبن حين يمس سطح الطاولة التي وضعه الأب فوقها وجلس ليأكل. يضحك الطفل بين الحين والآخر ويتفاعل مع الصور المتحركة. بعد عشر دقائق يقول الأب: «هيانها أمّك رجعت.» صوت باب البيت يفتح ويغلق ووقع خطوات. «روح انطي ماما بوسة.» «ماما... ماما.» «هلو حبيبي. شلونك» «ها، الگوة. شلون چان يومِچ؟» «معاملات هواية. راسي ديوجعني. راح أخدّر چاي.» «يا ريت.» «وانت؟» «عال العال. طلعتْ من وكِت.» دردشا كثيراً يومها عن الشغل وعن السفرة التي كان الأب قد وعد بها إلى بحيرة الحبّانيّة

وعن ضرورة زيارة أهلها الذين عتبوا عليهم. أحاديث عادية ليست ذات أهميّة. لم تلحظ الأم المسجلّة إلى أن وصل الشريط إلى نهاية الوجه الأول وأحدث صوتاً مسموعاً حين توقّف. ولم يسجّل الشريط، بالطبع، ما قاله الأب في تلك اللحظة:

«ولك ملعون هاي شلون دبّرتْها؟ هذا ديسجّل كل هالوكت؟ خرا بشرفك يا لوتي.»

لم يسجّل الأب أي شيء على الوجه الثاني وكتب «حسام» على الغلاف الورقي للشريط. وكانت الفكرة أن يستمعوا جميعاً، وخصوصاً حسام، بعد سنوات، إلى صوته طفلاً. كبر حسام وكان يستمع مرة كل سنتين أو ثلاثة، لا إلى صوته هو بل إلى صوتيهما البعيدين بعد أن قتلتهما حرب في طفولته. والآن جاء دور الشريط ليلحق بهما إذ تحوله حممُ حربٍ أخرى إلى رماد وتترك حسام لوحده مع ذكريات خرساء.

* * *

«هل يمكن أن تحدّثني عن خلفيتك. اسمك غير مألوف. أين نشأت؟»

«ولدت في العراق. لكنني جئت إلى هنا عام ١٩٩٣.»

«آه، مثير. كم كان عمرك عندما تركت العراق؟»

«٢٣ سنة.»

«هل شاركت في حرب؟»

«كلّا. كانت الحرب قد انتهت عندما بدأت خدمتي العسكريّة.»

«ولماذا تركتم العراق؟»

«كان الوضع سيئاً جداً، خصوصاً بعد حرب عام ١٩٩١ باع أبي بيتنا وذهبنا إلى الأردن وبقينا هناك لعدة أشهر. واستحصل أحد أصدقائه هنا على عقد عمل له وجئنا معه.»

«هل تزور أقرباءك هناك؟»

«معظمهم هاجروا منذ سنوات طويلة. لم يبق لي الكثير من الأقارب.»

«متى زرت العراق آخر مرة؟»

«قبل ثلاث سنوات.»

«حدّثني عن الزيارة؟»

«ذهبت مترجماً لتصوير فلم وثائقي.»

«هل كنت سعيداً بالزيارة؟»

«كلّا. تفاقمت كآبتي بعدها.»

«لماذا؟»

«هذا، كما تقولون هنا، سؤال المليون دولار. من أين أبدأ؟»

«حيثما شئت.»

«هناك صديق أعرفه يقول إنه ليست هناك بدايات ولا نهايات حقيقيّة.»

«هل هذه فلسفة أم محاولة منك لتجنّب الموضوع.»

«يبدو أنّك لا تفهمين.»

«ساعدني على الفهم. تحدّث!»

* * *

اركع أمام جدار الكهف وأنقش عليه صورة شبّاك. أردد الشعر الذي أحفظه بصمت كي لا أنساه. يداي مربوطتان بحبل والذين

معي يضحكون. لكن ضحكاتهم بلغة أخرى. ستضحك. أليست كل الضحكات متشابهة؟ هل للضحك أقوام وأمم؟ نعم. هذا ما أراه في الكابوس. أتوسل إليهم أن يفكّوا قيودي وأعدهم أني سأريهم الشمس خارج الكهف.

* * *

لم أكن قد رأيته منذ عام ١٩٨٧ (كنّا آنذاك في نفس الشعبة في الصف الخامس الإعدادي في الثانوية المركزيّة) عندما غاب عن الصف في الشهر الثاني أو الثالث ولم يعد أبداً. سمعنا بعدها أن أباه، الذي كان يعمل مديراً عامّاً في وزارة التخطيط، استحصل موافقة خاصّة للسماح له بالسفر إلى الولايات المتحدة ليكمل دراسته هنا. ثم سمعتُ من صديق مشترك بعدها بسنوات أنّه بدأ يدرس الطب في إحدى الجامعات المرموقة في أمريكا. لم نكن أصدقاء مقرّبين لكننا لعبنا كرة القدم كثيراً وأذكر أنّنا تسكّعنا بعد الدوام في مجموعة واحدة أكثر من مرّة. وانقطعت أخباره بعد سفري حتى وصلتني رسالة بالبريد الإلكتروني، مكتوبة بالإنكليزيّة: عزيزي نمير، أرجو أن تكون بخير بعد كل هذه السنين. سمعت من أحمد عبد الخالق الذي التقيت به بالصدفة في أبو ظبي، أنّك تعيش في نيويورك. أنا في دبي منذ سنوات. لكنّني سأكون في زيارة عمل إلى نيويورك (التي أشتاق إليها كثيراً) الأسبوع القادم وستكون فرصة رائعة أن نلتقي بعد كل هذه السنين (كم سنة؟ ١٧ أم ١٨؟). أريد أن أدعوك على العشاء. سترتب سكرتيرتي الحجز وتبعث لك التفاصيل حال موافقتك. أتطلع إلى اللقاء. عدنان. تحت اسمه بسطرين قرأت التوقيع الذي يذيّل الرسائل أوتوماتيكيّاً. «نائب رئيس

مكتب الشرق الأوسط، غولدمان ساكس، القسم الدولي، مركز دبي المالي العالمي، شارع الشيخ زايد، دبي.» بحثت عن اسمه في الانترنت فوجدت أنّه يعمل مع غولدمان ساكس منذ سنوات طويلة وانتقل قبل أربع سنوات للإشراف على مكتبهم في دبي. كنت عادة أنظر إلى أولئك الذين يعملون في الاستثمارات ورؤوس الأموال بريبة وأقول في سرّي أنني محظوظ لأنني لست مضطراً للتعامل معهم. لكنني فرحت برسالته ولم أتردد في قبول الدعوة. قلت لنفسي إنها ستكون فرصة لاستعادة ذكريات أيام المدرسة الثانوية في بغداد و «تَطَقُّس» أخبار زملائنا الذين انقطعت أخبارهم عنّي. رددت عليه مباشرة برسالة قصيرة أعربت فيها عن فرحي وتطلّعي للقاء به بعد كل هذه السنين. في مساء نفس اليوم وصلت رسالة من سكرتيرته فكتبت لها أنني أفضّل مساء الخميس. ثم بعثتْ برسالة أخرى تحدد اسم المطعم: «فغز آند أولڤز» وتفاصيل الحجز.

لم آخذ قطار المترو لأن منطقة «الميتپاكنغ» على بعد ٢٥ دقيقة مشياً من شقتي. بالرغم من جولاتي الليليّة الكثيرة والمشي، إلا أنني نادراً ما كنت أذهب إلى منطقة چلسي. فهي تعج بالسياح وبمحال الأزياء الغالية التي احتلّت ما كانت فيما مضى مخازن ضخمة لبيع اللحوم بالجملة وتعبئتها أعطت المنطقة اسمها بالانگليزيّة «تعبئة اللحوم». وقرأت ذات مرة أنها كانت قبل سنين طويلة موضعاً تقف فيه بائعات الجنس ليلاً لعرض بضاعتهنّ. لكن لا أثر لهنّ اليوم لأنهنّ يستخدمن الإنترنت لترتيب الشغل. وصلتُ قبل الموعد بربع ساعة كعادتي. بدا من تصميم المطعم وهيئته أنّه جديد افتتح مؤخراً. الشبابيك واسعة تصل إلى السقف الذي كان هو الآخر عالياً. الإضاءة خافتة في الداخل الذي هيمنت على

تفاصيله تدرّجات لونين: الأبيض والأزرق اللذين يرمزان إلى ثيمة المطعم المتوسّطيّة. استقبلتني مضيّفة فاتنة بقصّة شعر قصيرة جداً وعينين خضراوين ترتدي فستاناً أسود قصيراً يكشف عن ساقيها. ذكرت لها اسمه فدعتني لانتظاره على البار لأنهم لا يجلسون الضيوف إلا حين يكتمل العدد وتركتني بابتسامة مُسْكرة.

رحّب بي النادل الواقف خلف البار وتبرّع بابتسامة بسيطة وهو يضع منديلاً أبيض وكأس ماء أمامي ثم ناولني قائمة المشروبات. قرّرت أن أتلذّذ بكأس نبيذ أحمر وبحثت عن سلالة أعرفها. فوجئت بوجود العرق على القائمة. ثم تذكّرت أن المطعم متوسطيّ والعرق مشروب رائج في اليونان وتركيا ولبنان، طبعاً. لديهم «كفرايا» اللبناني. لم أكن قد شربت العرق منذ سنتين، فطلبتُ كأساً. و أكّدت على النادل أن يأتي بالماء البارد والثلج على حدة كي أخلط البيك بنفسي. وتساءلت ما هو أصل مصطلح «پيك» يا ترى؟ عليّ أن أبحث عنه. لا شك أنّه من التركية أو الفارسيّة. جاء النادل بالعدّة وهو يقول: «هير إز يور أرااك» بالإفراط في مد الألف. نهره الصوت الذي يعلو في رأسي دائماً لتقويم لفظ المفردات، خصوصاً المهمّة: «عرگ، بابا، عرگ»! إنه الصوت الذي بحّ بعد تدريس العربيّة للأمريكان لأكثر من ثماني سنوات والذي يجب أن أسكته لأنني لن اضطر إلى تدريسها أبداً بعد اليوم. وضعت ما يعادل ضعف كميّة العرق من الماء فانقلبت شفافيته إلى لون «حليب السباع.» شممت عطر اليانسون وأخذت رشفة نفخت نسمة باردة على قلبي. جاء النادل بصحن صغير من الزيتون الأخضر والأسود وبأحجام مختلفة. ولم يكن من الذي يخرجونه عادة من العلب كما في المحلّات الأرخص من هذا المطعم، بل بدا واضحاً أنّه أمضى

ما يكفي من الوقت في خليط الزيت والحامض والبهارات. هل أخذت مراجعات المطاعم التي أقرأها في «النيويورك تايمز» تؤثر عليّ حتّى أفكّر بالزيتون إلى هذا الحد؟ في زمن ما كنت أقول لنفسي إن أفضل مهنة هي كتابة مراجعات الأفلام أو المطاعم. يا لها من متعة! ولكن الكتابة ليست سهلة طبعاً.

«سوري. تأخرّت عليك شوية.» قالها ووضع يده على كتفي. التفت وتعانقنا وقبلنا بعضنا البعض. كان يرتدي بدلة رمادية وقميصاً أبيض وربطة عنق حمراء ويحمل حقيبة جلدية صغيرة. لم يتغيّر كثيراً. باستثناء النظارات الطبيّة وتراجع شعره البنيّ عن الصدغين قليلاً. كل واحد منّا قال للآخر إنّه لم يتغيّر كثيراً. قال «تدري نص ربعنا هسّة صاروا صلعان.» فقلت «يجينا الدور.» «الله لا يگول!» ثم نظر إلى كأس العرق وقال «هاي شنو؟ بنيويورك وعرگچي؟» «شكو بيها؟» «لعد مو كاتب أطروحة على أبو نؤاس؟» «شمدريك؟» «رحت على موقع الجامعة دا أتجسس عليك.» «وشنو المشكلة؟ يعني إذا كتبت بحث على أبو نؤاس ما يصير أشرب عرگ؟ آني أحب كل أنواع المحرّمات. بعدين العرگ مشروب وطني!»

ضحك واستأذن قائلاً إنّه يجب أن يذهب إلى الحمّام بسرعة. «أخذ راحتك.» طلبتُ الحساب ودفعته. بعد أن عاد جاءت المضيفة ذات الابتسامة المسكرة وأخذتنا إلى طاولة في زاوية ووضعت قائمتي الطعام أمامنا وقائمة المشروبات في منتصف الطاولة. أخذها هو قائلاً «بس خلّي نشرب واين مو عرگ؟» «آني أحب الواين أساساً» «أحمر لو أبيض» «أحمر.» أصرّ على أن يختار بنفسه وقال إنّه أصبح «خبيراً» ويهوى جمع النبيذ. وأضاف «وآني عازمك اليوم.» «لا، ما يصير» «يصير. أرْد أحتفل. اليوم كمّلت

صفقة ممتازة وربحت كومة فلوس. فلا تهتم بالأسعار، أطلب شما تريد.» قالها ضاحكاً. أزعجتني الجملة الأخيرة قليلاً لكنني قررت أن أمررها. «مبروك. هسة خلّي نشرب وناكل وبعدين نشوف منو يدفع.»

طلب من النادل قنينة «Gigondas» وقال إنّها ستعجبني وذكر إنّه أمضى إجازة في منطقة حوض نهر الرون في فرنسا قبل سنة وزار القرية التي يصنع فيها هذا النبيذ وشربه. سألته إن كان يسافر كثيراً فقال إن ٩٠٪ من سفرياته هي للعمل وأنّ زوجته تشتكي لأنّه لا يمضي ما يكفي من الوقت معها ومع الأطفال. تعجّب من أنني لم أكن قد تزوّجت «بعدك صامد؟ آني تونّست هواية وبالآخر الواحد يزهگ ولازم يستقرّ.»

جاء النادل بالقنينة وعرضها على عدنان الذي نظر إلى الورقة الملصوقة عليها وهز رأسه. أزال النادل السدّادة بحركة لولبيّة ثم وضعها على الطاولة أمام عدنان. ثم صبّ قليلاً من النبيذ القرمزي اللون في الكأس التي كانت أمامه. رفعها عدنان وشمّ رائحة النبيذ وهو يهز الكأس بحركة دائرية. تذوّق النبيذ وأغمض عينيه. شعرت أنّه يستعرض بعض الشيء. حتى النادل رفع حاجبه وهو ينتظر. تذوّق عدنان المزيد ثم قال «ممتاز.» فصبّ النادل النبيذ في كأسينا. شربنا «نخب الأيام الخوالي.» كما قال هو. كان للنبيذ مذاق حريري فأثنيت على ذوقه في النبيذ والمطعم. أخرج محفظته من جيبه وأراني صورة زوجته مع ولديهما سامي ونور. واسعة العينين بشعر طويل. أمريكيّة من أصل عراقي تعرّف عليها في غولدمان ساكس هنا في نيويورك وتزوجها قبل خمس سنوات. قال إنّه يحبّها ولم يخنها أبداً. رفع سبابته اليمنى وهو يقول العبارة

الأخيرة وكأنه يخطب. اعتذر النادل لأنه قاطعنا ليأخذ طلباتنا.
اخترتُ سلطة الشمندر مع الجرجير والجوز وجبنة الماعز وصحن دجاج مشوي مع إكليل الجبل أما هو فطلب سلطة غازباچو مع طاجن مغربي. أعطينا قوائم الطعام للنادل. سألني عن صديقتي «من يا ملّة ويا موديل؟ شگرة؟» «لا، سمرة. سمراء من قوم عيسى. سودة.» «آني جرّبت كل شي، بس عمري ما طلعت ويّ سودة.» «عمرك خسارة.»

سألته:

«لعد عبالي إنت درست طب؟»

«على أساس أدرس طب وكمّلت المتطلبات الأوليّة سنتين وبعدين حوّلت إقتصاد. وسوّيت ماجستير إقتصاد وإدارة أعمال بجونز هوبكنز.»

«عجب؟»

«ليش لا؟ أكو أطباء هواية.»

«أي واقتصاديين هم أكو هواية.»

«هذا واحد من أحسن القرارات اللي أخذتها بحياتي. الأهل زعلوا بالأول، بس هسّة راضين.»

«وينهم هسّة؟»

«بعمّان. طلعوا بالـ ٢٠٠٠ آني لحّيت عليهم يطلعون وأجّرتلهم بيت هناك. إنت أهلك وين؟»

«بفرجينيا.»

«شوكت طلعتْ؟»

«١٩٩٣.»

تحدّث عن دراسته وكيف أن السنين الأولى كانت سهلة وممتعة. قال إنّ أباه كان يحوّل له ما يكفي وكان يعيش أحسن عيشة. لكن الوضع تغيّر بعد الحصار إذ أصبح من المستحيل تحويل أي شيء ولم تعد هناك قيمة للدينار أساساً. «أبويّ گال لي إبني خَلَص. بعد ما نگدر، لازم تعتمد على نفسك.» فعمل لأوّل مرة في حياته ومرّت عليه سنوات صعبة. لم يحصل على وظيفة في تخصّصه بعد التخرّج. لكنّه بدأ يعد تقريراً شهرياً عن الوضع الاقتصادي وآفاق وفرص الاستثمار في الشرق الأوسط واستغلّ البريد الإلكتروني الذي كان في بدايته آنذاك وأخذ يبعث التقرير إلى مئات العناوين التي كان قد جمعها في قائمة لأشخاص يعملون في مجال الاستثمار في «الأسواق النامية» كمّا سمّاها. تلقّى رسائل شكر وتشجيع من عدد بسيط ممن الذين كان يراسلهم لكن دون عرض عمل. وظل مداوماً على إعداد التقرير وإرساله لمدّة سنة ونصف حتى اتصل به ذات يوم صاحب صندوق استثمارات شهير ودعاه للحضور إلى نيويورك. فجاء إلى نيويورك من بالتيمور، وبعد المقابلة عرض عليه وظيفة مع فريقه. فانتقل إلى نيويورك وعمل معه لمدّة أربع سنوات اكتسب فيها خبرة وكوّن شبكة علاقات في عالم وال ستريت. ثم حصل على عرض مغر لمنصب مرموق مع غولدمان ساكس فعمل معهم. وبعد نجاحه طلبوا منه أن ينتقل إلى مكتبهم في دبي. عندما وصل في كلامه إلى دبي كنت أنا قد وصلت إلى آخر قطعة شمندر. وضعتُ عليها ما تبقّى من جبنة الماعز وكانت كسرة جوز قد التصقت بها. وقلت في سرّي «إنها فعلاً لذيذة ولكن السعر جريمة فعلاً؛ ١٦ دولاراً!» صبّ لي المزيد من النبيذ ولنفسه أيضاً وهو يسألني «إنت احچيلنا، دكتور! شلون صفى

بيك الدهر بنيويورك؟» تذكّرتُ أغنيّة «دكتور جرحي الأوَّلي عوفه. جرحي الجديد عيونك تشوفه.»

أخبرته عن رحيلي من ڤرجينيا إلى كاليفورنيا دون أن أذكر شيئاً عن الخلاف مع أبي. اكتفيت بالقول إنّني لم أكن مستعدّاً للعمل مع دوائر الحكومة الأمريكيّة ولا مع السفارات العربيّة فعملت مدرّساً خصوصيّاً لطلاب العربيّة دراسات الشرق الأوسط. فقال «هاي إنت من جماعة المثاليّات. أكو واحد فيلسوف گال إذا الإنسان ما يكون يساري بالعشرينات يعني ما عنده گَلُب. وإذا يظل يساري بالتلاثينات يعني ما عنده عقل.» «إي مو آني چنت بالعشرينات بوكتها. هسّة تريد تسمع لو تريد تتفلسف براسي؟» «ألعفو دكتور. تفضّل كمّل» أخبرته عن سفري إلى كاليفورنيا مع لورين وعملي في مزرعة اللوز التي يمتلكها والدها وكيف عملتُ في الحقل في البداية وفي قيادة سيارة خضّ الأشجار وجمع اللوز ثم الانتقال إلى المعمل للإشراف على آلات التقشير والتعبئة. أخبرته كم استمتعت بسنيني في كاليفورنيا لأنني أحببت الهدوء والعزلة وإيقاع العمل. مع أنّه كان أحياناً متعباً جسدياً. لكنه كان يشعرني بأنّني جزء من الأرض وفي تناغم مع مواسمها. لم أكن أشكو من الأرق في تلك السنين. كنت أنام ملء جفوني. وما زلت أشتاق إلى منظر أشجار اللوز حين يستيقظ جمالها بعد السبات الطويل في موسم البرد بين كانون الأول وشباط. بعد أن تكون قد التقطت أنفاسها وامتصّت ما تحتاجه من الأرض. أخبرته كيف كانوا يأتون بالنحل خصيصاً لكي يلقح الأشجار. وكيف كانت تنطق بالوردي والأبيض في أواخر شباط وحتى بدايات آذار. ثم تكبر الثمار حتى تبدأ بالتيّبس في نهاية تموز. ومن منتصف آب إلى تشرين الأول يتم هزّ الأشجار وبعد

عشرة أيام يتم التقاط اللوز. جاء النادل بالأطباق الرئيسية وكانت القنينة قد فرغت فسألنا إن كنّا نرغب بواحدة ثانية. وعندما جاء بها النادل قال له عدنان أن يصب بدون تذوّق. «زين وشودّاك من اللوز وكاليفورنيا لدراسة الدكتوراه؟» «اصبر جاييك بالحچي. راح تتفاجأ لأنه أكو شويّة تشابه بقصصنا.»

أخبرته كيف أنني أمضيت أوقات فراغي بالقراءة والترجمة لتقويّة إنكليزيّتي والحفاظ على عربيتي بنفس الوقت. وكان ديوان أبي نؤاس الكتاب الوحيد الذي كنت قد أخذته معي. فأخذت أترجم قصائده وبعثت بمجموعة منها إلى مجلة أكاديميّة تعنى بالترجمة تصدر عن قسم الأدب المقارن في جامعة بيركلي التي كانت على بعد ساعة ونصف من المزرعة. واتصل بي الأستاذ الذي يشرف على تحريرها بعد شهر ليثني على الترجمة ويخبرني بأنهم سينشرون اثنتين من القصائد. كان مسؤولاً عن سلسلة لنشر الشعر المترجم في دار نشر جامعة كاليفورنيا ونصحني بأن أقدّم عرضاً لنشر مختارات من قصائد أبي نؤاس مع مقدّمة. أخبرته أنّني بحاجة إلى الاستعانة بمراجع لكتابة المقدّمة فدعاني لأن أزوره في الجامعة ووعد أن يساعدني باستخراج هوية باحث زائر لكي أتمكّن من استعارة الكتب. استفدت من كرمه وانكببت على ترجمة المزيد من قصائد أبي نؤاس وأعددت مقدمة طويلة عن أهميّته وعن الخمريّات والمجون. وعندما أرسلتها له قرأها وأعجبته كثيراً واقترح علي أن أجعلها مشروعاً لدراسة أكاديميّة. وذكر أن قسم الأدب المقارن يعطي منحاً ويمكنني أن أتنافس للحصول على واحدة. كان عليّ أن آخذ امتحان الجي آر إي وأحصل على درجات عالية فيه لكي أزيد من فرصي. لم أكن قد فكّرت أبداً بأن أدخل الحقل الأكاديمي لكنّ

الصدفة والحظ ساعداني. ونجحت وتم قبولي بمنحة تشترط أن أدرّس العربيّة. فأكملت الماجستير في بيركلي. وبعدها تشجّعت وقدمت طلبات لدراسة الدكتوراه في أربع جامعات وحصلت على قبول في هارڤارد مع منحة. وبعدها درّست لسنتين في دارتموث أنهيت خلالها أطروحتي قبل أن أنتقل إلى جامعة نيويورك.

سألته عن بقيّة زملائنا من المدرسة وأخبارهم. فقال إن علي عبد الخالق يعمل مهندس نفط في الإمارات. نشأت الدبّاغ أصبح طبيباً مثل أبيه وهاجر إلى لندن في نهايات التسعينيّات ويجري عمليات تجميل هناك لأغنياء العرب وزوجاتهم «صار مليونير من وراهم. يسحب دهن من طيازتهم ويحطّه بوجههم وشفايفهم!» قلت له «دهن من طيازتهم لو سيليكون؟» «كلّه نفس الخريط.» لكن الخبر الذي فاجأني هو أنّ زيد التتنجي الذي كان معنا في الشعبة عمل وكيلاً لوزارة الاتصالات لمدّة سنة ونصف في وزارة إياد علّاوي، لكنه فقد منصبه بعد تغيّر الحكومة. «زيد اللي چان يلعب ويّانه طوبة؟» «إي» «أدري هو خوش ولد وچان كلّش ذكي، بس شنو مؤهلاته؟ عمره بعمرنا» «خلّص هندسة ويفتهم. وأبوه أسّس واحد من الأحزاب الجديدة.» «إي هذا المؤهّل الأهم.» «يظل أحسن من غيره.» تذكّرت كيف كان زيد بارعاً في تقليد الأساتذة وخصوصاً مضر، مدرّس الرياضيات البدين، والذي كان يسأل الطلاب دائماً بعد أن يخطئوا في الإجابة «إنت وين سُكناك؟» وكأن منطقة السكن لها علاقة بقدرتنا على استيعاب المعادلات الرياضية. ذكّرته بالأستاذ مضر واستمررنا بتقليب ألبوم الذكريات المشتركة. فؤاد، أستاذ الأحياء، الذي كان يتكلّم فصحى مرصّعة بألفاظ غريبة ويفرط في استخدام كلمة «بُغْيةً.» رفع عدنان كأسه وقال «والله

فرحان بشوفتك» «آني هم» «وعلمودك ضحيت بالـ هابي إيندنغ» لم أفهم واستفسرت عن قصده. فقال إن الشركات الكبيرة تقدّم لعملائها حزمة من الهدايا بعد المفاوضات الناجحة وتتضمّن عادة جلسة تدليك في «السبا» تتولّاها شابّة حسناء ممشوقة القوام شبه عارية تجعل المرء يشعر بأنه في الجنة. وتسأل الزبون عندما تشارف على الانتهاء من التدليك إن كان يرغب بـ«نهاية سعيدة.» ولكنّه ترك النهاية السعيدة اليوم ليتعشّى معي.

«وإنت عادة تاخذ النهاية السعيدة؟»

«طبعاً. زمال اللي ما ياخذها.»

«لعد مو أنت گلت ما تخون زوجتك؟»

«هاي ما تعتبر خيانة. آني حتى ما أطخ البنيّة بإيدي. هي تسوّي المسّاج وبعدين تكمّل المعروف لمّن يگوم صاحبنا ويضرب تحيّة وبعدين يبچي.»

انتظر النادل حتى انتهينا من ضحكاتنا المجلجلة ثم سأل إن كان بإمكانه أن يأخذ الصحنين الفارغين. أخذهما وعاد بقائمة الحلويّات. درستها وطلبت الـ«تيراميسو» مع قهوة عربيّة (كانت «يونانيّة» على القائمة) أمّا عدنان فطلب «كريم بروليه» مع كاپوتشينو.

استفسرت منه عن الصفقة التي أتمّها بنجاح. فقال إنه، إضافة إلى عمله مع غولدمان ساكس، أسس قبل سنة شركة استثمارات في بغداد وينوي أن يفتح فرعاً في أربيل. والهدف من وراء زيارته إلى نيويورك هو تقديم عرض لإقناع عدد من كبار المستثمرين بتمويل

شركته لشراء وبيع الأسهم في بورصة العراق. قال إن هناك تردّداً وتخوّفاً لدى الأغلبيّة لأن الوضع غير مستقر لكنه نجح في إقناع واحد من كبار المستثمرين بالدخول في شراكة معه. سألته:

«ليش هو أكو بورصة بالعراق؟»

«إي، بورصة صغيرة، بس بيها نشاط.»

«زين وشنو فايدة الاستثمارات والأسهم هسّة إذا البنية التحتية خربانة وأساسيات الحياة ليهسّة ما مضبّطة؟»

«لمن يصير استثمار كل شي يجي.»

«هاي نفس القوانة مال «تركل داون إكنومِكس.» «سلْمو كل شي للشركات الچبيرة وأصحاب الأموال والكل راح يستفيدون بالتدريج. وبس النخبة يستفيدون بالآخر.»

«هسّة إنت اقتصادي؟ هاي مو شغلتك.»

«ما يحتاجلها خبير بالاقتصاد. الأمور واضحة.»

قال لي بنبرة غاضبة:

«وانتو يعني شمسويين للعراق؟ ما تگُلّي؟ بس سلبيّات ودمدمة. إنت لمن توگف بقاعة الجامعة تتفلسف هذا راح يوكّل العراقيين خبز؟»

«ومنو گالك آني دا أفيد العراقيين لو گايل إنّه دا أفيدهم؟»

«يعني تريدنا نعوفها للشراگوة؟»

«وشنو الفرق بين حراميّة نادي العلوية وحراميّة الشراكوة؟»

قمت عن الكرسي وألقيت بالفوطة على الطاولة ومشيت إلى الحمام. ازداد غضبي وأنا أبتعد. استغربت أنّني ذكرت «نادي العلويّة» هكذا بدون مقدّمات. ثم تذكّرت ذلك اليوم الذي كنّا قد

قررنا أن «نضرب» آخر درسين ونتسكّع. واقترح ابن الشورچي أن نأخذ سيارة أجرة ونذهب إلى نادي العلويّة. كنت أسمعهم يتحدثون عن النادي وعن المسبح الذي يذهبون إليه في الصيف لكنني لم أكن قد دخلته. اعتقدت أنني سأدخل كضيف معهم. عندما وصلنا إلى النادي الذي كان بجانب فندق الشيراتون. نزلنا من سيارة الأجرة لندخل. ألقوا التحيّة على رجل يقف في المدخل اسمه «أبو عماد.» لا أدري كيف عرف ابن العاهرة! فقد سألني «إنت ابن عضو؟» ارتبكت قليلاً وقلت «لا.» قالوا له إنهم سيدخلونني كضيف ويمكن أن يدوّنوا اسمي في الدفتر. فقال «اليوم مو يوم ضيوف وبس العضو اللي فوگ الثمنطعش يگدر يدخّله.» كان الموقف محرجاً، فقلت لهم «طبّوا انتو وآني أروح عالبيت مو مشكلة.»

جدران الحمّام بلون شذري. وهناك موسيقى عذبة تنبعث من السمّاعات الداخليّة. حالما اقتربت من المغسلة فتح رجل أسود يقف بجانبها صنبور الماء ثم أخذ واحدة من المناشف البيضاء الصغيرة الموضوعة بجانبه واستعد لإعطائها لي حالما أنتهي من غسل يدي. سألته وأنا أضع دولارين في الطاسة التي وضعها أمامه عن الموسيقى فقال: «آسف، لا أعرف يا سيدي.» خرجت من الحمّام وسألت المضيفة عنها فقالت: «Fado.» كنت قد سمعت عن هذه الموسيقى التي نشأت في البرتغال. كنت قد قررت ألا أعود إلى الطاولة. مشيت إلى الباب الرئيسي وخرجت إلى الشارع. فكّرت بالفاتورة لكنّني تذكّرت أنه دعاني. فليدفعها من المال الذي سينهبه من العراق. ندمت أننا اصطدمنا قبل أن يصل التيراميسو الذي كنت قد طلبته. عدت مشياً إلى شقتي وتوقفت في طريق العودة عند محل على شارع وست ثرد لأشتري لوح شوكولاتة «فليك»

وتذكّرت جملة كانت تتردد في إعلان لماركة شوكولاتة أخرى، لكنها تنطبق على «فليك»: أحياناً تكون الشوكولاتة أفضل صديق.

* * *

منطق التوأم

كنا جارتين في رحم أمنا. وولدنا، الواحدة نسخة طبق الأصل عن الأخرى. حتى أن أمنا نفسها ظلت حائرة. لا تنجح في التمييز بيننا في كثير من الأحيان. فاقترحت عليها جدتنا أن تشد خيطاً ملوّناً حول معصم واحدة منا لتميزها عن أختها. فشدت خيطاً أحمر حول معصمي، أنا، أسيل، وتركت معصم هديل حرّاً. وعندما سألتها أمها لماذا شدّته حول معصمي، ردّت أنني أكبر هديل بدقيقة ونصف. بعدها بسنوات أهدتنا جدتنا سلسلتين من الذهب، عيار ١٨ تنتهي كل واحدة منهما باسم مصاغ بالذهب كي يدل على صاحبته. ودأبت أمنا على أن تلبسنا، نفس الملابس، كما جرت العادة مع التوائم. وحتى الطريقة التي كانت تمشّط شعرنا الأسود بها لم تكن تترك مجالاً لعلامة تسمح بالتمييز بيننا. وسيتعجّب كل من عرفنا لتطابق الملامح والصوت والحركات. وسنمل من سماع ذات العبارات، من الغرباء والأقرباء، ومن الإجابة على السؤال الأزلي: «إنتي أسيل لو هديل؟» ولكن الزمن (أو شيء آخر لا نعرفه بالضبط) سيتكفّل بالكشف عن اختلاف بسيط لكنّ تأثيره وتبعاته ستزداد شيئاً فشيئاً. عندما نجحنا من الصف الرابع إلى الخامس الابتدائي اشترى لنا أبونا أرغناً صغيراً. تنازعنا أول الأمر لأن كل واحدة أرادت أن تحتكره لنفسها. حتى أن بابا غضب وأخفاه في

غرفته. وهدّدنا بأنه لن يسمح لأي منّا أن تمسّه وأنه قرر أن يعطيه لابن أخيه. لكنه هدأ فيما بعد وغير رأيه بعد أن نجحت أمنا بالوصول إلى حل باقتراح يرضي الجميع وهو أن نتناوب على الأرغن. وفعلنا ذلك بنجاح وبإشرافها. وبعد تعرّف الأصابع الأوليّ على المفاتيح والنوتات وبعض التلعثم، حاولت أن أعزف أغنية أو لحناً أعرفه ونجحت. هديل تلقفت الأرغن بحماسة، لكنها خفّت وخبا انبهارها بعد محاولات بسيطة باءت بالفشل. ولعلها لم تكن تمتلك الصبر الكافي أو الرغبة. أو لعل أذنها لم تكن موسيقيّة بما فيه الكفاية مثل أذني أنا. تخلّت عن المطالبة بحصتها من زمن اللعب على الأرغن وتركته لي وأخذت أقضّي معه ساعات طويلة.
فرح أبي بموهبتي واشترى لي واحداً أكبر بعد سنتين. وكان من الطبيعي أن يثير إعجاب الأهل بعزفي، واهتمامهم وتحلّقهم حولي في المناسبات العائلية عندما أعزف الأغاني التي يطلبونها، غيرة هديل. والحق يقال إن غيرتها لم تكن مفرطة ولم تتعد حدود الغيرة «الطبيعية.» جربت هديل الرسم ولكن أصابها الملل بعد فترة. لكنها كانت تحصل على درجات ممتازة. شاهدتُ بالصدفة برنامجاً عن مدرسة الموسيقى والباليه في بغداد على التلفزيون وأعجبني نظام المدرسة كثيراً. عرفت أنني يمكن أن أحقق حلمي هناك وأتعلم الموسيقى وأعزف مع أوركسترا مثل التي كانت أراها على التلفزيون. طلبت من أمي التي كانت تشاهده معي أن تسجلني فيها بعد السادس الابتدائي. عندما فاتحت أبي تردد في الموافقة وشكّك في الفائدة من دراسة الموسيقي لمستقبلي! لكن ماما شرحت له أن منهاج المدرسة يتضمّن، إضافة إلى المنهاج الموسيقي، كل الدروس العاديّة مثل باقي المدارس. وبعد أن أحصل على شهادة

الثانوية العامة من الموسيقى والباليه سأدخل إلى الجامعة وأتخصص في حقل آخر أيضاً فاقتنع ووافق. اجتزت امتحان القبول الذي كان أسهل بكثير مما توقعت. واخترت آلة البيانو بالطبع. كانت المفاتيح أكبر بكثير مما تعودت عليه مع البيانو الكهربائي الصغير لكن أصابعي رقصت عليها برشاقة وثقة أبهرت لجنة الامتحان وقبلت مباشرة. استمتعت بالدراسة التي كانت متعبة لأن دوامي أطول بكثير والمدرسة بعيدة فكنت أصل منهكة إلى البيت. أما هديل فكانت تعوض عن غيرتها بالسخرية مني ومن معاناتي. تفوّقت وفي سنة التخرّج اختارني أستاذ البيانو، منذر، لأعزف أمام وفد زائر من ألمانيا. طلب مني أن أعزف مقطوعة قصيرة لشوبرت، «أمبرومبتو بي فلات» ففعلت. وكنت قد عزفتها عشرات المرّات من قبل. صفّقوا لي بحرارة بعد أن انتهيت. وعانقتني واحدة من أعضاء الوفد الثلاثة وفاجأتني بسؤال: هل أرغب بالدراسة في برلين؟ ارتبكتُ مبتسمة. ظنّت الضيفة الألمانية أنني لم أفهم ما قالته. فكررت السؤال وطلبت من الأستاذ منذر أن يترجم. «أسيل، يريدون ينطوج منحة تدرسين بالمدرسة العليا للموسيقى ببرلين.» لم أتمالك نفسي فصفقت فرحاً. في طريق العودة إلى البيت خفت ألا يوافق أبي أن أسافر لوحدي. لكنني كنت أعوّل على موهبة أمّي في إقناعه في نهاية الأمر. وهذا ما كان. سافرت بعدها بأربعة أشهر. لم تخف هديل غيرتها مني، لكنها بكت عندما ودعتها.

فتحت لي برلين أوسع الأبواب وتبنتني تلك السيدة، ربيكا أولمان، التي ساهمت في استحداث منحة للعازفات الشابات من الشرق الأوسط لدراسة الموسيقى في برلين حيث كانت تدرّس. وعرفت في برلين أنها واحدة من أفضل عازفات البيانو في أوربا. مع

ذلك، لم تكن البداية في برلين سهلة. كان عليّ أن أتعلّم الألمانية بسرعة وأتعوّد على برد برلين القاسي وبخل الشمس في شتائها. نظام التدريس كان صارماً والمنافسة حامية الوطيس. لكنني تألّقت وتم اختياري لأعزف في الحفل الختامي للسنة الأولى. عدت إلى بغداد في الصيف لأقضي العطلة مع العائلة. وفي السنة الثانية بدأت أعزف خارج نطاق المدرسة بعد أن رشّحتني أولمان لآخذ محلها مع كوارتيت برلين عندما اضطرت لإجراء عمليّة جراحية. ومن كوارتيت برلين كانت انطلاقتي لفرص أخرى. اشتركت في مسابقة باخ العالمية التي تقام في لايبزغ مرة كل سنتين وفزت فيها بعد أن عزفت «بارتيتا رقم ٢.» وقف الحضور وصفقوا لي لثلاث دقائق. وتوالت الدعوات لي لكي أعزف في ڤيينا وباريس ونيويورك.

كل هذا كان سيحدث وكنت سأصبح أشهر عازفة بيانو عربية في فاتحة القرن العشرين. لكنني لم أترك بغداد. ولم أدخل مدرسة الموسيقى والباليه. كلا. عزفت على الأرغن لساعات طويلة وشاهدت البرنامج عن مدرسة الموسيقى والباليه وكنت سأقدم طلب قبول وأنجح في الامتحان. لكن قبلها بعدة أشهر، في ذلك الشتاء الناري، كنّا جميعاً في السيارة التي قادها أبي بسرعة للوصول إلى بيت جدتنا، التي ألحّت علينا أن نأتي لأنّ بيتها آمن وليس قريباً من أي منشآت عسكرية قد تتعرض للقصف. لم تكن علامات المرور تعمل وكان بابا يبطئ قليلاً عند التقاطعات. لكنّه لم يبطئ بما فيه الكفاية عند أحدها. ولم يبطئ السائق الذي كان يسرع من اليمين هارباً، هو الآخر، إلى مكان آمن. ولم أعزف بعدها ولم تغر مني هديل.

* * *

لا أحب طعم القهوة التي يبيعونها في ستاربكس وأكره الشركة ودورها في انقراض عشرات المقاهي الصغيرة الجميلة في نيويورك و مدن أخرى كثيرة في العالم. ولكنني أحب مقاعدهم المريحة. وكلما وجدت مقهى «ثنك» مليئة وفشلت في العثور على مكان للجلوس (يحدث مرة كل أسبوع أو أسبوعين) أشتري قهوتي من هناك وأذهب إلى ستاربكس على زاوية وست فورث والمتنزه الكبير لأبحث عن كرسي أجلس فيه لأصحح الواجبات الأسبوعية لطلّابي، أو لأقرأ الجرائد وأقتل الوقت، كما يقولون بالانكليزيّة، (مهما قتلته، ينبعث في اليوم التالي). وكلّما ذهبت إلى ستاربكس كنت أجده هناك في نفس الزاوية، حتى في العطل حين يخف عدد الطلاب. حتى قلت لنفسي أنه ربما يكون جزءاً من أثاث المكان، لولا أن الذين يديرون هذه المحلّات ينزعجون عادة من الذي على شاكلته. لكن العاملين هناك كانوا لطفاء معه ولم أرهم يزعجونه أبداً، ربما لأنه هو الآخر لم يكن يشكّل مصدر إزعاج للزبائن. يجلس دائماً في الزاوية تحت صورة من تلك التي تعلّق كثيراً في فروع ستاربكس وتظهر فيها شوارع المنطقة المحيطة بالمحل كما كانت في بدايات القرن العشرين، بالأسود والأبيض. عربات تجرّها الخيول وباعة يقفون على الرصيف يبيعون الفواكه والخضروات للمارّة.

كأنه شخصية هاربة من مسرحية حزينة. في بدايات الخمسينيّات. شعر أبيض مشعّث، تخفيه قبعة صوفيّة يضعها في حقيبته الجلدية القديمة التي يركنها إلى يمين الطاولة على الأرض بعد أن يخرج منها أوراقه ويفرشها على الطاولة. أحياناً يأخذ الطاولة المجاورة إن كانت خالية ويضعها بمحاذاة طاولته كي تتسع

لمزيد من الأوراق. في المرّات الأولى التي رأيته فيها (في خريف ٢٠٠٥) من بعيد خمّنت أنه يعمل على بحث أو ما شابه. لكن عندما ذهبت إلى دورة المياه ذات مرة وكان الطريق إليها يجبرني على المرور بالقرب من موضع جلوسه، وقفت أنتظر في الطابور القصير خلف شخصين. وسمحت لنفسي أن ألقي نظرة متفحصة على أوراقه الموزعة على الطاولة. على بعضها كلمة واحدة فقط مكتوبة بحروف كبيرة، قرأت hope, pain, truth (الأمل، الحقيقة، الألم). كنت سأقول له أتعرف أن كلمتي «ألم» و «أمل» في العربية من نفس الحروف؟ بعض الأوراق بيضاء تماماً، وعلى بعضها دائرة أو حرف واحد فقط. لم أر حاسوباً أو حتى قلماً. كان ساهماً ينظر عبر زجاج الشباك إلى الشارع. عيناه خضراوان. حليق الذقن. تميل بشرته إلى الحمرة. يرتدي قميصاً أبيض بمربعات زرقاء صغيرة، ذكّرني بستائر مطبخ رأيتها في مكان ما، وبدلة زرقاء، بلا ربطة عنق. وحذاء رياضة «Newport.» كان أحياناً يغيّر مواضع الأوراق وترتيبها وينظر إليها قليلاً قبل أن يعود إلى الشباك. شاهدته بعدها مرات عديدة وكنت أتعمد الذهاب إلى الحمّام لكي استرق النظر إلى أوراقه التي لم تتغير كثيراً. وظلت فيها بياضات كثيرة. و.

آخر مرة رأيته كانت في صيف ٢٠٠٦ واختفى بعدها.

* * *

أسئلة بديهيّة لا تحلم بجواب:

هل اللحظة هي ذاتها في كل مكان؟ أم أن كل لحظة مرتبطة بمكانها في هذا الكون؟ إذا كان الاحتمال الأخير هو الصحيح

فهناك أكثر من زمن واحد. هناك بلايين الأزمنة التي قد تتقاطع مع بعضها البعض لكنها لا تتطابق أبداً.

* * *

الأسلاك الشائكة تلتف وكأنها تنسج شبكة عنكبوتية تحاول حجب المشهد عنّا. بعضها، تلك الأكثر قرباً إلى العدسة، لا تظهر بوضوح. لكن هناك ما يكفي منها لكي تظهر دوائر أخرى واضحة بأسنان شرسة منتظمة. في الزاويتين اليمنى واليسرى العليا يمكننا أن نجدها تحيط بالمكان ذي السطح الرملي بالتفافات أكثر كثافة. على الرمل آثار أقدام كثيرة تحيط بالرجل المستلقي على الأرض. ساقاه ممتدتان أمامه. وظهره قائم بزاوية ٩٠ كأنّه يتكئ على عمود لا مرئي. يرتدي جلابية بيضاء وشحّاطة جلديّة. يده اليسرى على جبين طفل صغير، لا يتجاوز الرابعة، مغمض العينين، يتكئ رأسه على ساعد الرجل الأيمن. فم الطفل مفتوح. شعره أسود قصير، يرتدي بيجاما خضراء. يد الرجل اليمنى تمسك بيد الطفل اليمنى وساعده يضم الجزء العلوي من جسد الطفل الذي امتد ساقاه بشكل مائل ووضع قدمه اليمنى الملوثة بالطين على قدمه اليسرى. وعلى بعد نصف متر منهما يمكننا أن نرى فردتي حذاء رياضة واضح من حجمهما أنهما يعودان للطفل. الشمس قاسية. وعلى رأس الرجل كيس أسود.

* * *

أنا سمكة، بلا زعانف

* * *

نافذة، تخترقها القضبان بالطول والعرض، باستثناء الجزء السفلي حيث يتقرفص رجل ضخم الجثة على بلاط أصفر اللون، مؤخرته عارية وعلى إليته اليسرى آثار كدمة. قدمه اليسرى تشرئب من تحت فخذه الأيمن يخنقها حبل ثخين مربوط بقضبان الزنزانة. يده اليمنى تستند على الأرض، يغطي الجزء العلوي من جثته قميص أحمر اللون بأردان قصيرة. يده اليسرى موثقة بحبل ثخين أيضاً إلى قضيب في سقف الزنزانة. رأسه مطأطأ وحول عينيه عصابة بيضاء مبقّعة بالدم.

نفس الرجل ذو الجثة الضخمة مسجّى على بطنه على أرض بنية اللون. الدشداشة البيضاء التي يرتديها مرفوعة تكشف عن إليتيه وساقيه. أرى آثار جراح وكدمات وظهره مصطبغ بالدم. يداه موثقتان ببعضهما البعض. على وجهه لحية خفيفة. شعره أسود قصير. عنقه ملوي إلى أقصى اليمين وهو يحاول أن يلتفت إلى أعلى، لكن العصّابة الترابية اللون تمنعه من أن يرى أي شيء. الكلب رمادي ضخم، يبدو على وشك الانقضاض على الرجل. رجلاه الأماميتان على ظهر الرجل المدمّى. في الخلفية قضبان وراءها ظلام وقضبان زنزانة أخرى في عمق الظلام.

* * *

قل إنّي أسمع ما لا تسمعون! و إنّي أرى ما لا ترون.

* * *

أحسست بالاختناق فقررت أن أخرج لأمشي. وأنا في طريقي

إلى المصعد خرجت جارتي الثمانينيّة، مسز كارترايت، من شقتها والتفتت نحوي حين سمعت صوت خطواتي. كانت ممّن أسميهم «سكان البناية الأصليون» أي أولئك الذين كانوا يعيشون في البناية قبل أن تشتريها الجامعة وتخصص معظم شققها للأساتذة والموظفين. وكان للسكان الأصليين عموماً مشاعر عدائية تجاه الجامعة ومرارة لديهم بعض الحق فيها. يشعرون بأنهم فصيلة مهددة بالانقراض. «آه، يا بروفسور؟، لم أرك منذ فترة طويلة. ولكنك بالتأكيد مشغول.» «كيف حالك سيدة كارترايت؟» «جيدة. لدي ورك جديد أحاول التعوّد عليه.» «مبروك» «ما زال هناك الكثير من الألم لكن الوضع أفضل من قبل.» «هذا ممتاز.»

دخلنا إلى المصعد وكبستُ الزر لينزلنا إلى الطابق الأرضي «لقد التقيتُ بشخص من بلدك الأسبوع الماضي. كنت مدعوّة إلى بيت حفيدتي وتعرّفت عليه وذكرّني بك.» «حقاً؟ ما اسمه؟»

«آه، عفواً. لا أتذكّر. ولكنه من جنوب إفريقيا أيضاً. يقول إن الأوضاع هناك سيئة بسبب العنف والجرائم.» كنت قد توقّفت منذ سنوات عن تصحيح الذين يخلطون بيني وبين شخص آخر من بلد مجاور، إيران عادة. لكن جنوب إفريقيا بعيدة جداً عن العراق. مع ذلك، فالسيدة كارترايت تعاني كثيراً من الضبابية في أفكارها ومعلوماتها، ولم تكن لدي رغبة في تصحيحها. وحسدتها في تلك اللحظة على الضبابيّة التي تسمح للمرء أن يغيّر الجغرافيا وربما التاريخ وأن يعطي لجيرانه تواريخ وهويات جديدة! «نعم، معدلات العنف مرتفعة هناك. للأسف.» «قل لي، هل تزور أهلك هناك؟ هل تعود؟» «كلا، لم أذهب منذ ثلاث سنوات.» «لا شك أنها

رحلة طويلة جداً ومتعبة» «نعم، إنها متعبة فعلاً.» انفتح باب المصعد وخرجنا سوية. ودعتها وذهبت أمشي.

* * *

طفلٌ. أنا. طفلٌ يجلس في حديقة بيتنا الذي لم يعد بيتاً. ترجمتْه هدية سماويّة إلى ركام هائل. ألتقط قطعة زجاج مكسور من بقايا شباك. أتحسّس حافتها فتجرحني وتستدرج قطرة من دمي. أشعر بألم بسيط وأراقبها تسقط على التراب. اللحظةُ جرحٌ. أضع قطعة الزجاج على جسد الزمن لأجرحه. سأجرحه واستدرج منه قطرة. لحظة. سأستنزفه حتى يموت كما ماتوا كلهم.

* * *

«ها هو بوم الليل «نايت آول» يبدأ جولته المعتادة.»

قالها دينو، البوّاب الإيكوادوري، ضاحكاً. فقلت له:

«هل تعرف أن البوم في بلدي الأصلي يُذْكَر للدلالة على الغباء؟»

مد يده ليصافحني وقال وهو يبتسم «آه عفواً يا صديقي. ليس هذا ما أقصده بكل تأكيد. ماهي الاستعارة المناسبة للذي يسهر الليالي في ثقافتك؟»

«راعي النجوم.»

«آه، جميل. سأسميك راعي النجوم. لكن أين النجوم هنا؟ التلوّث الضوئي لا يسمح لنا أن نراها.»

كان سكّان العمّارة وبقيّة البوّابين والعمال يسمّون دينو

«الفيلسوف.» بالرغم من أنّه أكمل المدرسة الثانوية في الإكوادور ولم يدخل الجامعة لا في الإكوادور ولا في الولايات المتحدة التي هاجر إليها قبل أربعين عاماً، إلا أنه كان مثقفّاً وقارئاً من الطراز الأوّل. يحاجج ويجادل الأساتذة الذين يسكنون في البناية ويتابع أخبار العالم بشغف ويقرأ الإعلام البديل واليساري بالانكليزية والإسبانية. وكان يساريّ الهوى، فكراً وممارسة. حتى أنّه كان عضواً في اللجنة المحليّة التي تمثل البوابين في النقابة وكان يرتدي شعارها على ياقة بدلة البوابين السوداء. كان أقل سمرة من مواطني بلده «أمّي إيطاليّة وهي التي أعطتني لون بشرتها» كان يقول ويضحك ثم يضيف «لكن أجداد أبّي هم من سلالة الإنكا.» كان غاليانو كاتبه المفضّل.

دينو مهووس بمشروعه للخلاص من مشاكل العالم المتفاقمة. وكان يحدّثني عنه ويكرر التفاصيل. والحق يقال إنه كان مشروعاً مبهراً مدروساً بعناية. وجد دينو أرضاً رخيصة على أحد جبال الإكوادور بالقرب من عيون مياه طبيعيّة واشتراها قبل عقدين. واشترى مؤخراً الأراضي المحيطة بها. ويعتزم بناء فندق «بيئي» للسواح يعتمد على خصوبة المنطقة المحيطة التي سيزرع فيها الكينوا وسيربّي الأرانب الهندية التي ينوي تصديرها إلى الصين. وسيشغّل السكان المحليّين الذين ينوي أن يجعلهم شركاء في المشروع.

«لقد كدحت لأكثر من ٣٥ سنة وأدخلت أربعة أولاد إلى الجامعة، لكنني أريد أن أضمن مستقبلهم.»

«يمكنك أن ترى النجوم بوضوح وترعاها كما تشاء في مزرعتي التي أعمل على إنجازها في الإكوادور»

«سأزورك هناك بكل تأكيد.»

فكّرت بما قاله دينو وأنا أمشي غرباً نحو النهر. هل أنا بوم؟ أم راعي نجوم؟ لعلني لست هذا ولا ذاك. أنا خفّاش، وحيد، بلا أجنحة.

* * *

منطق العين

شعره الأسود ينحسر إلى زاويتي جبهته فتتسع حتّى لتبدو وكأنها واحدة من تلك السطوح التي يحدّق بها ثم يلوّنها. حاجباه يكادان يكونان أفقيين فوق عينيه الصقريتين اللتين تبثان كل هذا الحزن الذي أورثني إياه. أنفه دقيق بين العينين لكنه يبالغ في ضخامته حين يهبط. لحيته وشاربه كثّان دائماً والأولى تصل إلى أعلى خدّه. حيثما وكلّما جلتُ في بدايات ذاكرتي فثَمّ وجهه. حتى ليخال إلي أن عينيه حبلتا بي وأنني ولدت من زواج عينيه ويديه. ظننت أول الأمر أنّني وحيدته، لكنني اكتشفت أن هناك أخريات وآخرين نفخ فيهم الروح. هناك، وراء البحار، في فلورنسا.

بعد أيام معدودات من ولادتي قمّطني الرجال الذين حملوني في أحضانهم. قمّطوني بأقمشة وأوراق وبلاستيك لكنني فوجئت بهم يضعونني في تابوت مظلم وظننت أن القماط كفن. سمعتهم يفعلون ذات الشيء بإخوتي. ثم حُمِلنا وساروا بنا في موكب في شوارع المدينة التي ولدت بها ولم أرها أبداً، بل سمعت ضجيج أهلها وشوارعها. ابتعدت أصوات المدينة واختفت لساعة أو أكثر

ثم سمعنا أصواتاً أخرى تدل على أننا اقتربنا من مدينة أخرى. بعد المرور بشوارعها تناهى إلى سمعي شهيق البحر وزفيره. أنزلونا ووضعونا على ظهر سفينة. ظننت أنهم سيلقون بي إلى قاع البحر كما في الحكايات القديمة التي لا أذكر أين سمعتها أصلاً. لكن السفينة سلّمتنا بعد أيام وليال إلى ميناء آخر، سلّمنا بدوره إلى شاحنات سارت بنا.

وعندما بُعثتُ من التابوت رأيت وجهه لأول مرّة بعد أيام طويلة. العرق يتصبّب من جبينه وهو يطلب من جمع الرجال أن يرفقوا بنا. كنت أول من أرتقى هذا اللوح الأبيض الشاسع. لآخذ مكاني في قلبه، أحمل هذا المشعل الذي أحمله الآن. نظر إليّ بقلق من على الأرض. يهتف ويشير بيديه وهو يحادث الآخرين. لكنه اختفى ولم يعد بعدها أبداً. وجاء بقية إخوتي واحتلوا أماكنهم تباعاً إلى يميني ويساري. الحصان والثور والجندي والأم الثكلى التي ما زالت تبكي وتحتضن ابنها منذ أربعة عقود. وأنا أيضاً أبكي لكن لا أحد يرى دموعي.

أنا التي رأيت كل شيء. أياماً وأياماً. أيام الاحتفالات والمسيرات التي يهتف فيها هؤلاء البشر رافعين اللافتات والصور والأعلام والرايات، فرحين، أو غاضبين. والأيام العاديّة التي يسرعون فيها إلى شؤونهم، ومعظمهم لا يرفع رأسه أو يلتفت إلينا. لكن هناك دائماً من يقف ويتأمّل. رأيت أياماً تختفي فيها السيارات والبشر وتحوم فيها الدبابات في الشوارع. وأخرى تعلّق فيها الجثث ويهلل الناس لمرآها وتترك لأيّام. رأيت أياماً تحوم فيها الطائرات في الأعالي فتخاف الطيور وتختبئ. ورأيت اليوم الذي فقأت عيني الوحيدة فيه شظية أسقطتها على الأرض. وأنّى لي أن أنحني

لأحملها؟ فأنا مسجونة هنا، أحمل هذا المشعل ولم أعد أرى شيئاً إلا ماضيّ ووجهه هو.

* * *

ذات ليلة حزينة وباردة، عاديّة في رتابتها، كنت أهيم في الإيست ڤلج. وشاهدتُ السيارات البيضاء الكبيرة مصفوفة على جانبي الشارع والمولّدات الكهربائية وحزم الأسلاك الضخمة الممتدة على الرصيف فعرفت أنهم يصورون مشهداً سينمائياً. في سنتي الأولى في نيويورك كان المنظر يبهرني فأقف متحمساً مع الذين يقفون عادة ويراقبون المشهد لأتبين إن كان هناك أحد الممثلين المشهورين. لكن مشهد تصوير الأفلام أصبح جزء من مشهد مانهاتن الكبير الذي اعتدته ولم يعد «جديداً» بالنسبة لي. خصوصاً أن الانتظار كان يطول لساعة أحياناً حتى يتم تصوير المشهد نفسه ويخرج النجوم من السيارات البيضاء الكبيرة التي يرتاحون وينامون فيها. لكنني لمحت وجه جوليان مور تلك الليلة وكنت أحبّها كثيراً وخصوصاً بعد فلم «الساعات» الذي أبهرني كل شيء فيه، حتى موسيقاه التي حرصت على شراء القرص الممغنط لأستمع إليها. فانتظرت وبعد ثلاثة أرباع الساعة بدأ تصوير المشهد على الجانب الآخر من الشارع. جلست جوليان مور على سلم حجري يؤدي إلى عتبة باب بيت تدخّن سيجارة. وجاء رجل ليجلس بجانبها. يتحدّثان قليلاً ثم يقبّلان بعضهما البعض. أعادوا تصوير المشهد القصير ثلاث مرّات. صفّق المخرج بعد آخر مرّة وقال بصوت عال «غريت.» عادت مور إلى سيارتها وتم إطفاء أجهزة الإضاءة. وتفرّق الجمهور. وعدت إلى شقتي وأنا أفكّر بمصير

الشخصيّة بعد أن ينتهي الفلم. كبار الممثلين يتقمّصون الشخصيات ويتماهون معها. فتختفي شخصية الممثل مؤقتاً. ولكن أين تذهب الشخصيات بعد أن ينتهي التمثيل؟ هل تموت؟ وإن ماتت هل تحوم أشباحها حولنا؟ أم أنها تظل مشرّدة تبحث عن حكاية جديدة لتسكن فيها مؤقتاً؟

* * *

كان الفهرس شتلة عندما بدأته قبل سنوات واليوم أصبح بستاناً تمتد أغصانه إلى السقف. لم تعد غرفتي تكفيه. لا أعرف ماذا سأفعل؟ كل هذا ومازلت في الدقيقة الأولى.

* * *

أيقظتني شفتاها وهما تزحفان على خدّي ثم رقبتي ووشوشت بأذني وهي تقبّلني:

«يكفي، قم يا حبيبي. الطقس رائع اليوم. فلنذهب إلى البحر.» ثم قامت عن السرير وذهبت لتفتح الستائر. غطّيت رأسي باللحاف وقبل أن أسألها عن سر كل هذا النشاط المفاجئ، سألتني: «هل لديكم بحر في العراق؟» ثم «هيّا، انهض، يمكنك أن تنام هناك على الشاطئ.» «دعيني أغسل وجهي وأشرب القهوة وبعدها يمكن أن نقرّر.» «آه، نسيت أنك لست شخصاً صباحياً. القهوة جاهزة. سأنتظرك على الطاولة.» وجرجرتُ نفسي إلى الحمام.

غسّلت وجهي وفرشت أسناني. وفتحت الخزانة لأبحث عن تي شرت نظيف لأرتديه وقلت لها «الجواب هو: لا.»

فقالت بخيبة أمل: «لماذا؟ سنمضي يوماً جميلاً.»

«كلا، أقصد ليس لدينا بحر في العراق. لدينا بحيرات. وجنوب البلد يطل على الخليج بخجل.»

فابتسمت: «آه، أوكي. أخفتني قليلاً.»

كانت قد صبّت لي القهوة وأعدّت صحناً عليه قليل من الخبز المحمّص والزبدة وشيئاً من مربّى الفراولة التي أحبها. جلست قبالتها وأضفت وأنا أحتسي القهوة: «كان لدينا بحر قبل آلاف السنين وكان البلد كله مغموراً بالمياه. لكنها انسحبت وما تبقى هو النهران.»

ضحكتْ: ««هير وي غو أغين» لا أستطيع أن آخذك إلى بحار لم تعد موجودة. هل تريد أن تذهب إلى بحر حقيقي؟ هل ذهبت إلى ساندي هوك؟»

«لا أعرف ساندي هوك. ذهبتُ إلى شاطئ راكَوَيْ مرة واحدة.»

«لا لا ساندي هوك جزيرة جميلة جداً. يمكن أن نأخذ الباخرة ونكون هناك خلال ساعة.»

«أي باخرة؟»

«هناك باخرة كل ساعة وربع من رصيف ١١، بالقرب من وال ستريت. يمكننا أن نلحق الباخرة القادمة إن استحممت وارتديت ملابسك بسرعة. سأعد لنا سندويشات زبدة ومربى نأكلها في طريقنا.»

شربت القهوة واستحممت بسرعة وعندما خرجت كانت تضع المناشف في حقيبة الظهر. ارتديت ملابسي ووضعت منشفة إضافية

وجريدة النيويورك تايمز التي كانت على الطاولة في الحقيبة ووضعتها على ظهري.

عندما وصلنا إلى رصيف المرفأ كانت الباخرة شبه ممتلئة وقد صعد بعض الركاب إلى الطابق الثاني المكشوف. وقفنا في الطابور واشترينا التذاكر من رجل وقف على باب الباخرة. لم نجد مقعداً على الطابق الثاني. لكننا وجدنا زاوية تكفي. أعجبني منظر مانهاتن وهي تبتعد. أن تكون داخلها لا يسمح لك أن تراها بوضوح. مرت الباخرة بالقرب من جزيرة إيلس الشهيرة، نقطة الدخول الرئيسية إلى أمريكا طوال القرن الماضي، حيث كان المهاجرون يخضعون لفحوصات طبيّة قبل السماح لهم بدخول نيويورك. لكن المهاجرين الآن يأتون بالطيارات وقد تم تحويل بنايات الجمارك والهجرة على الجزيرة إلى متحف. قلت لمرايا أننا يجب أن نزور المتحف. وذكّرت نفسي بأنني لم استكشف المدينة بحق وأنني أؤجل كل المشاريع متذرعاً بضرورة إنهاء الكتاب لتثبيتي في الجامعة. فوافقتْ، ثم أضافت: «نعم، طبعاً، لا مانع أن نعرف المزيد عن تاريخ أجدادنا المهاجرين.» وقالت الكلمتين الأخيرتين بنبرة مختلفة وساخرة وهي تحرك السبابة والوسطى من كل يد في الهواء لتؤكد وضع الأهلّة حول الكلمة. فمازحتها: «لولا عبودية أجدادك لما كنتِ هنا الآن.» فقالت «واتيڤر! لولا عبودية أجدادي لما كانت أمريكا أمريكا أصلاً.» ثم أشارت إلى الغرب «انظر إلى تمثال الحرية وكم يبدو صغيراً من هنا.» فعلاً كان حجمه يبدو أصغر بكثير مما يتصوره المرء. هذا ما قاله أخي نصير عندما زارني في نيويورك وأصطحبته في جولة مشي إلى زاوية مانهاتن الجنوبية ونظرنا إلى تمثال الحريّة في الأفق. اتجهت الباخرة بعدها عبر المضيق الذي

يفصل بين بروكلين وجزيرة ستاتن آيلند جنوباً بعيداً عن نيويورك وخليجها.

بعد أن وصلنا إلى الجزيرة انتظرنا ربع ساعة لأخذ الحافلة إلى السواحل. قالت مرايا إن أفضلها وأهدأها هو الساحل الشمالي لأنه الأبعد. اشترينا قنينتي ماء بارد. كانت ساندي هوك عبارة عن لسان طويل وضيّق نسبياً يمتد داخل المحيط الأطلسي وكانت في الماضي مرسى للبريطانيين أثناء احتلالهم للبلاد. وفيها واحدة من أقدم المنارات.

وصلنا إلى الساحل الشمالي بعد عشر دقائق. أفاقت الزرقة الممتدة إلى الأفق البعيد شيئاً ما مطموراً في دواخلي كأن الماء المختبئ فيّ يستيقظ ويفرح حين يسمع صخب الأمواج. وقفتُ وأخذت نفساً عميقاً ويبدو أنني ابتسمت لاشعورياً. لأن مرايا ضحكت وقالت: «يا لها من ابتسامة! إذا كان المحيط يفرحك إلى هذه الدرجة فسنأتي كل أسبوع. لعلّك كنت سمكة في حياة سابقة؟» «لماذا تقولين هذا؟» «لقد قلت لك أكثر من مرّة بإنك تلبط في نومك مثل السمكة.» «آسف. إنها الكوابيس. لعلّني كنت نهراً.» «هاها، حلوة هذه.»

مشينا على الرمل ووجدنا بقعة فرشنا عليها الشرشف الذي كانت قد جاءت به. ثم خلعنا ملابسنا وكنّا قد ارتدينا ملابس السباحة تحتها. ارتدت مرايا بدلة بقطعتين يناقض بياض قماشها سمرتها المسْكِرَة ويطلق العنان لمفاتنها. كنت على وشك أن أتجه إلى الماء لكنها قالت «انتظر. لا بد أن نضع كريمة لتحمينا من أشعة الشمس فوق الحمراء.» أخرجت الأنبوبة من الحقيبة وفتحتها، وضعت قليلاً على يديها وناولتني إياها وأخذت تضعها

على وجهها وصدرها وبطنها. وفعلت نفس الشيء. ثم طلبت مني أن أستدير لتضع شيئاً منها على ظهري. وبعد أن انتهت جاء دوري. قبّلتها خلف رقبتها وشممت عطر جسدها قبل أن تغيّبه رائحة الكريمة.

كان هذا الجزء من الشاطئ هادئاً نسبياً. لا أطفال ولا عوائل كبيرة. النوارس، وطيور أخرى، تحوم وتبحث عمّا تلتقطه. بقينا في الماء حوالي نصف ساعة. تراشقنا به وضحكنا. ثم عدنا إلى موضعنا واستلقينا على الشرشف بعد أن جففنا جسدينا. وضعت نظاراتها الشمسية وأخرجت هي رواية «مدن لامرئية» لإيتالو كالڤينو التي ذكرني المقطع الذي ورد في فهرس ودود بها. أهديتها إياها قبل شهرين بمناسبة عيد ميلادها مع علبة شوكولاته وقنينة عطر Dune الذي كنت أحبّه. وبعد أن قرأت عنه عرفت لماذا اجتذبني، بنسختيه الرجالية والنسائية، ذلك لأنه كان خلاصة بستان يحتضن ما أحبّ في قطرة واحدة: الصندل والمسك والياسمين والأترجّ.

أخرجت أنا عدد اليوم من النيويورك تايمز. أعدت قسم «البزنس» إلى الحقيبة فلم أكن أقرأه عادة. ثم بدأت بصفحة الرأي كعادتي. واستوقفتني مقالة بعنوان «هل لحياة العراقيين قيمة؟» بقلم أستاذة تاريخ في جامعة بيركلي. وكانت مناسبة نشر المقال هي توجيه تهم رسمية لعدد من المارينز لقيامهم بقتل ٢٤ مدنياً عراقيّاً في مدينة حديثة في نوبة غضب وانتقام. وكذلك لعدد من الضباط لعدم قيامهم بإجراء تحقيق في المذبحة. لكن التهم الموجهة ليست القتل المتعمّد بل عدم تحديد الأهداف والعمل حسب بروتوكول المعركة. «اطلقوا النار أولا ثم اسألوا بعد ذلك.» هو ما قاله المتهم الرئيسي لرفاقه. فتحت الكاتبة ملف المذابح التي اقترفت

منذ بداية الحرب وحادثة الاغتصاب والقتل في المحمودية واستشهدت بمقولة للجنرال تومي فرانكس حين سئل عن عدد القتلى المدنيين فأجاب: نحن لا نحصي الموتى. تساءلت الكاتبة متى وهل سنعرف عدد العراقيين الذي ماتوا في هذه الحرب؟ واختتمت المقالة بقولها إن قيمة حياة الجندي الأمريكي الذي يموت أثناء تأدية واجبه، حسب بوليصة التأمين هي ٤٠٠ ألف دولار، أما ما دفعه الجيش الأمريكي كتعويض لعوائل العراقيين فكان ٢٥٠٠ دولار للشخص.

أعادني موضوع المقالة إلى ودود بالطبع وقررت أن أقتطعها عندما نعود إلى الشقّة وأضيفها إلى الملف. حاولت أن أكمل قراءة الجريدة لكنني لم أتمكن من التركيز أو أن ما أقرأه كان يبدو سخيفاً. ويبدو أنني طويتُ الجريدة بخشونة شعرت بها مرايا فسألتني «كل شيء على ما يرام؟» «نعم يا حلوتي. سأمشي قليلاً.»

* * *

منطق التنّور

أنا من النهر. من طينه جبلتُ، في صيف بعيد، مثل كل أترابي، ومن تراب أحمر وتبن. نولد في الصيف لإننا نحتاج إلى شمسه كي نكون. هذا ما أذكره: كنت أجثم تحت الشمس مع إخوة لي ننتظر من يشترينا. فحملوني إلى هذا البيت ووضعوني خلفه. وثبّتوا جسدي من الجانبين بالجص والطابوق وكأنني كنت سأهرب!

ثم جاءت أمّي، بسملت وتعوّذت ووضعت مرآة و «سبع عيون»

على جبيني كي تحميني من الحسد. نعم، هي أمّي مع أنها لم تلدني وليست من جنسي. لكن لم يمسسني بشر سواها ولم أبصر وجهاً سوى وجهها منذ ثلاثين حولاً. هي التي تمسح قلبي وتنظفّه مما يعلق به من رماد. هي التي تغنّي لي وتسقيني كل يوم. وهي التي تطعمني الحطب. تطعمني فأطعمها.

هي التي تجلس على الأرض كل صباح وتشرب شايها وتدخن سيگارتها. ثم تأتي بالصينية وتضعها في حضنها وكأنها ابنتها. تقطع عجينها إلى شنك تضعها في الطبق الذي تركنه دائماً على الأرض إلى يمينها. ثم تأخذها وتمطها واحدة واحدة. تقول «يا الله» وهي تقوم ثم تقترب مني. تأخذ كل عجينة وترقّصها بين يديها بخفة. ثم تنيمها على المخدّة التي تحملها وتنحني وتلصقها بجدران قلبي. وهكذا حتى يمتلئ. وتخرجها بعد حين بالماشة وتصفّها على الصينيّة. وحين تتراكم الأقراص وتصبح هرماً صغيراً تلفها بالقماش وتحملها على رأسها وتخرج. تعود بعد الظهر وتجلس أمامي وتغربل طحينها لتعد عجينة الغد.

أقول «أمّي» لأنني أزعم أنها كانت تحبّني كما لو كنت ابنها. أذكر كيف كان يبكي في حضنها وهي تطعمني. هو وإخوته الثلاثة. لكنه كبر الآن. ومع ذلك فقد نهرته حين حاول أن يقنعها بالتخلّص منّي واستبدالي. «ولك هذا التنّور أكبر منّك. طعمّك وطعم أخوتك بعد ما مات أبوك ووداك عالجامعة. ما أعوفه إلا لمّان أموت.» كانت تحلف باسمي وتقول «وحق هذا التنّور.»

جلست أمامي هذا الصباح. شربت شايها ببطء ووضعت الاستكان على الأرض. وأخذت صينية العجين في حضنها. أغمضتُ عينيّ. وسمعت صوت القنابل.

البيت لم يعد بيتاً. ولم تطعمني أمي هذا الصباح.

* * *

أوّل مرّة رأيتها ذكرتني بودود وبالنبّاش الذي كتب عنه. وسألت نفسي، مرّة أخرى، إن كان هوسي بودود وبمخطوطته يتحكّم بأولوياتي ويحدد لي ما يثير انتباهي هنا في نيويورك. هل أصبح فهرسه الإطار المرجعي الذي يهيمن على مشاهداتي؟ الكثير من لحظاتي أنا مطوية داخل لحظات ودود أو ملتصقة بها، بدبق ما، كما هي أوراق دفتري هذا. دفتري هذا الذي ما زال يشكو بياض الكثير من صفحاته. هل يمكن لحياة أن تبدأ بتقليد حياة أخرى أو بعض تفاصيلها على الأقل؟ أي فكرة جنونيّة!

ذات ليلة نزلت من مكتبي في الطابق الخامس حيث كنت أعمل على إنهاء أحد فصول الكتاب لأشتري قهوة تساعدني على التركيز. ذهبت إلى محل «ديليون» الذي يقع على زاوية وايڤرلي وبرودواي أمام مدخل محطّة المترو. وأنا أخرج حاملاً قهوتي رأيتها تنقّب في برميل القمامة القابع أمام المحل. لفت انتباهي أنها كانت ترتدي قبّعة آسيوية تقليديّة من القصب أو البامبو وقفّازين أبيضين وتجر وراءها كيساً كبيراً. صادفتها بعد ذلك أكثر من مرّة في جولاتي الليليّة وأخذت أراقب طقوس عملها. تمشط الشوارع وتقف عند كل سلّة أو حاوية قمامة بحثاً عن علب الألمنيوم والقناني البلاستيكيّة التي تضعها في الكيس الضخم الشفّاف الذي تسحبه وراءها. وعندما يمتلئ تضعه على كتفها وتبدأ بحشو كيس جديد. أحياناً أراها وهي تحمل ثلاثة أكياس. لعلّها القبّعة التي ترتديها

والتي تحيلني إلى حقول الرز أو حقول أخرى من التي رأيتها في الصور، لكنني كنت أراها فلاحة منفيّة في غابات الكونكريت هذه. تحصد هذه الثمار الخاوية المستنزفة.

في بداية الربيع دعوتُ مرايا لعشاء لنحتفل بإكمالي لفصل آخر من الكتاب الأكاديمي. اخترتُ مطعماً إيطالياً في منطقة الإيست ڤيلج. جلسنا في الخارج على طاولة على الرصيف لأن الطقس كان يسمح بذلك. ارتدت هي تنورة بيضاء تكاد تغطي ركبتيها وقميصاً أحمر، وتفاجأت عندما قلت لها إنّها أول مرة ترتدي فيها تنورة مذ تعارفنا. «حقّاً. لم أدرك ذلك. على أية حال. إنها مناسبة خاصة تستحق التغيير.» اقترح النادل قنينة نبيذ أبيض من صقليّة وطلبتها لأن اسم العنب كان «Damacsino» وقلت لها هذا أقرب ما يكون لأبي نؤاس. اقترحت هي أن نشرب نخب «إنهاء الكتاب كلّه» ففعلنا. جلب النادل صحن «الكابريسي» الذي طلبناه. استلقت عليه شرائح جبنة الموتزاريلا إلى جانب قطوف الريحان الذي كنت أعشق رائحته. حاولتُ، ونحن نلتهمه مع الخبز المبلل بزيت الزيتون، أن أترجم لها أبيات خطرت ببالي يذكر فيها أبو نؤاس الريحان: «عج للوقوف على راحٍ وريحانِ/ فما الوقوف على الأطلال من شاني. سلاف دنٍّ، إذاً ما الماء خالطها/ فاحت كما فاح تفّاح بلبنان/ مسحولة، مزّة، كالمسك، قرقفة/ تطيّر الهمّ عن حيزوم حرّان.»

«آه. جميل، ولكن لماذا لا تتبع نصيحته؟»

«ماذا تقصدين؟ ها نحن نشرب ونطرب.»

«نعم، طبعاً، الآن. لكنك تقف على الأطلال كثيراً. ومثقل بالهموم.»

لم أقل شيئاً فسألتني: «هل زعلت منّي؟» «كلّا، أبداً. أفكّر بما قلته.»

لاحظت مرايا أنني أنظر إلى شيء ما خلفها. استدارت فرأت النبّاشة الصينيّة التي كانت قد رفعت غطاء سلة القمامة الخاصة بمخلفات الزجاج والألمنيوم التي تعود للبناية التي تجاور المطعم وبدأت تحصد. وذكّرتني بودود والصبي النبّاش الذي كتب عنه.

«عجيبة هذه السيدة. تعمل ساعات طويلة وتغطي مساحات شاسعة من المدينة. أراها في الليل غالباً.»

«ليست وحيدة. هناك كثيرون مثلها في بروكلين أيضاً، معظمهنَّ من النساء الكبيرات في السن. يترملّن أو يهملهنَّ أولادهنَّ ولا يكفيهنَّ الضمان الاجتماعي.»

«ومن أين لك كل هذه المعلومات عن الموضوع؟»

«الفتاة التي كانت تسكن معي في بروكلين لمدة سنتين تعمل في ملجأ لكبار السن وكانت تدوشني كل مساء بكل ما تسمعه وتراه في الملجأ. الموضوع مكتئب فلنعد إلى صاحبك.»

فكّرت وقلت لها بيقين:

«لكل عصر أطلاله. لو كان أبو نؤاس حيّاً لبكى كثيراً ولشرب أكثر. كما أن جيشكم يحتل الكثير من المدن التي كان الشاعر يسهر ويسكر فيها والتي ترد أساميها، التي لم تتغير، في أشعاره.»

«ليس جيشي يا حبيبي. لست جزءاً من الـ «نا» وإلا لكان جيشك أنت أيضاً.»

«آسف.»

بعد شهر من تلك الليلة وبعد صراع مع الأرق خرجت في

الرابعة والنصف صباحاً ومشيت جنوباً وعندما وصلت بعد ساعة إلى حدود النهر شاهدت من بعيد شاحنة تقف تحت جسر مانهاتن المؤدي إلى بروكلين وطابوراً طويلاً يقف أمامها يصطف فيه رجال ونساء يدفعون عربات تسوّق تتكوم عليها أكياس منتفخة. وقف عند خلفية الشاحنة رجل كان يضع الأكياس ثم يسلّم كل شخص مقداراً من النقود. راقبت المشهد لخمس دقائق ثم أقفلت عائداً.

* * *

أجلس على ثيّل الحديقة التي ازدحمت بكل قطع الأثاث التي أخرجوها من المنزل. أختي تجلس بجانبي. تحاول أن تساعدني على ارتداء حذائي. أو ربما أنا أساعدها. لا أذكر هذا التفصيل بالضبط. لا يهم. أمّي هي التي أخرجتنا بسرعة وأمرتنا أن نجلس «ظلّوا هناية لا تتحركون.» أذكر أن الكبار تركونا لوحدنا لأنهم انشغلوا بما حدث. يأتي جارنا أبو زهير يركض ويقول للكبار إنّه اتصل بالـ«حريجيّة» «جايين بالطريق» ثم يدخل إلى البيت. لم يكن لدينا هاتف بعد. ولم أفهم من تكون «الحريجيّة.» حتى سمعت عواء الشاحنة الحمراء الضخمة وشاهدت رجال الإطفائيّة بملابسهم الثقيلة يسحبون خراطيم الماء إلى داخل البيت. الآن أفكر بالتسمية القديمة والجديدة. يسمع الجيران عواء سيارة الإطفائية فيخرجون إلى السطوح ليراقبوا المشهد. ألسنة النار تخرج من شبابيك الغرفة التي كان خالي ينام فيها في الطابق الثاني عند عودته من بعقوبة حيث كان قد تعيّن طبيباً بعد تخرّجه. لم يكن في الغرفة يومها، لكنه كان قد وضع بعض الأثاث الذي اشتراه استعداداً للانتقال إلى بيته بعد الزواج من خطيبته هناك.

تأتي أم زهير لتأخذنا، أنا وأختي، إلى بيتهم. تقول إننا سنبات عندهم تلك الليلة. أقول لها إنني أريد البقاء في حديقة البيت. «ما يصير إبني. لازم تطلعون.»

بعدها بساعات، عندما كنا نستعد للنوم في غرفة الضيوف في بيت أبي زهير، تقول أمي إنها يجب أن تعود إلى البيت لتأتي بشيء ما. لا أذكر ما هو. لكنني أذكر أنني قفزت متوسّلاً إليها أن أرافقها. «لا، ظلّ هنا ويّ أختك. شتجي تسوّي؟» لكنني أتشبث بها وأبدأ بالبكاء فترضخ كالعادة.

البيت يغرق في ظلام دامس لأنهم قطعوا الكهرباء عنه بعد أن شب الحريق. أراه الآن. كأنّه بيت ميّت. (سيغرق في الظلام كثيراً بعدها بسنوات في ليالي الحرب مع إيران). الحديقة مليئة بالأثاث والأغراض وهناك رائحة دخان. تشعل أمّي المصباح اليدوي الذي تحمله لنتبين طريقنا. نصل إلى الباب الذي يؤدي إلى المطبخ. تمسك بيدي بقوّة وتقول بعصبيّة (هل ندمت على قرارها باصطحابي؟) «دير بالك لا تعثر.» رائحة الشعواط تزداد قوّة. نخوض في الماء الذي يغطى أرض البيت. نتجه يميناً عبر الممر إلى غرفة أبي وأمّي. هل دخلت البيت معها؟ لست متأكداً! كلا، لم أدخل. تعبر قدمها عتبة الباب وأسمع صوت الماء. تصوّب المصباح اليدوي نحو الأرض وتقول «ظل واگف هنا. إذا تدخل راح تتبلل رجليك وتتوصخ بجامتك. لا تتحرّك. بس أروح لغرفتنا أجيب شي وأجي.» أقف في الظلام أمام عتبة الباب المفتوح. ترفع أمي حافة دشداشتها وتبتعد هي ويبتعد شعاع الضوء معها. أسمع وقع خطواتها على أرض البيت الغارقة بالماء. أظل وحدي واقفاً في الظلام على عتبة البيت. وأشعر بالخوف وأندم أنني عدت إلى

البيت معها. أنتظر. ثم ألمح شعاع المصباح وأسمع صوت خطواتها تقترب. فينسحب الخوف لكن رائحة الحريق تبقى في أنفي. وبعد أن نعود إلى بيت أبي زهير أجد صعوبة في النوم. رائحة شراشفهم غريبة. نظيفة ولكنها ليست مثل رائحة شراشفنا. في الصباح التالي ذهبت إلى المدرسة وقلت لأصدقائي: «بيتنا احترگ.» فنظروا إليّ بذهول.

ظلّت «الگبة المحروگة» كما أسميناها، كما هي، لعدة أسابيع. حذرنا أبي من الدخول إليها. لكنّني تسللت أكثر من مرّة ووقفت داخلها أنظر بذهول إلى الجدران المسودّة وإلى قطع الأثاث المحترقة والسرير الحديدي الذي كان خالي ينام عليه وقد تحولت بقايا المرتبة إلى قطن أسود. سكنتْ رائحة الحريق في البيت، خصوصاً على الطابق الثاني. ولم نتخلّص منها إلى أن جاء العمّالة وأخرجوا كل شيء من الغرفة ونقلوه بعيداً ثم أعادوا صبغ الغرفة. بعدها بسنوات أصبحت غرفة أختي وكنت أخيفها وأقول لها إن الحريق ما زال ينام في الغرفة وسيستيقظ يوماً ويحرق كل شيء.

* * *

كل شيء يغمض عينه كل شيء ما ينقصني وأبحث عنه عنّي يبحث لا يجدني أجدني أين كل شيء سأقول أقول كل شيء سأقول أغمض عيني السماء حفرة السماء قبر أحفره وحدي كنت لا لم أكن هناك كيف لا أدري لا أصدّق أصدّقني هل دخلوا الحفرة لمن ولماذا لم ينتظروا من أخذ الحفرة من أخذ البيت البيت لم ينتظرني أغمض عينه عيونهم عيني الآن لا أتذكّر الآن هم معهم كان يجب أن أكون هناك الآن الحفرة من أغمضها لكن لا عندما فتحت عيني

غمّيضة الحفرة ركضت وركضت غمّض أوراق ودخان وحجارة كل شيء كل لا شيء الله أين كان لم يكن أغمض عينيه ماذا سيقول كن هل هو في الحفرة ركضت وهي ورائي وأمامي ورائي الحفرة أنا كلهم لا شيء

* * *

خرجت من باب المطبخ إلى التينة التي تجاور خزّان الماء المحاذي لسياج البيت الخلفي. كم اشتهيت طعم ثمرها وكنت استعجل نضوجها ذلك الصيف، وككل صيف. نزلت من الممر الكونكريتي إلى الأرض النديّة (ستنهرني أمّي إذا لوثت البيت بآثار الطين) تحت الشجرة أبحث عن الثمار التي حان وقت قطافها. حاذرت ألّا أدوس على مربع الكرفس والمعدنوز الذي زرعته أمّي وحذرتني مراراً من إتلافه بدعساتي فمشيت على الحافّات. لمحت ثمرة أينعت ومددت يدي اليمنى لأظفر بها. تحسستها بيدي وهي على الغصن الذي تدلّى. درجة ليونتها تعني أن طعمها سيكون حلواً. قطفتها ومشيت إلى حنفية الماء بالقرب من الخزّان الكبير. وغسلتها بسرعة قبل أن أقضم نصفها. تطلّعت إلى لبّ النصف المتبقّي الذي تقاسمه الأصفر والأحمر وفاحت منه رائحة خرافيّة. وأنا أهم بالتهام النصف الثاني سمعت صرير باب يفتح ثم ضحكات أنثويّة. أدركت أنها ضحكات بنات الجيران. كنت قد رأيتهن مؤخراً من سطح بيتنا يجلسن في الحديقة الجانبية. واحدة منهن جميلة، شعرها أسود طويل ونهداها نافران. لا أعرف أسماءهن. لم يكن بيتهم على شارعنا، بل على الشارع الذي يقع خلفنا. كل ما أعرفه عنهم أنهم «بيت أبو خلود.» وكانوا قد انتقلوا

إلى المنطقة قبل شهر أو أكثر. بيتانا يشتركان بالسياج الخلفي الذي اقتربتُ منه بحذر كي أسمع ما يقلنه بوضوح أكثر. أحنيت ظهري لكي لا تتحرك أغصان الشجرة واتجهت إلى السياج. عبرت الساقية التي كانت بمحاذاته و«گنبصتُ» بالقرب منه. حاولت تقريب أذني. سمعت صوت قنانٍ زجاجية توضع في صندوق وصوت يقول «اخذي هذنّي همّينة.» لاحظت شرخاً في قطعة من الاسمنت في زاوية بين طابوقتين في صفوف السياج الذي كان قد تُرِكَ دون لبخ أو صبغ. وعندما حركتها بيدي سقطت وتركت فتحة لا بأس بها ورأيت جزءاً من الأرض على الجانب الآخر من السياج. حاولت أن أحني رأسي كي أزيد من رقعة ما يمكن لي أن أراه. وفي انشغالي في ترتيب موضع التلصص لم أنتبه إلى أن التراب الندي والرخو تحت قدميّ كان يهبط. قرّبت عيني من الثقب ووضعتها عليه. رأيت باب المطبخ بوضوح لثانيتين ثم انزلقت قدماي فتزحلقت وسقطت في الساقية التي لم تكن قد جفّت من آخر وجبة سقاية بالماء الخابط. فأحسست الطين على شعري وذراعيّ وظهري وتلطخت ملابسي. خفت أن يسمعن صوت حركتي وأن ينكشف أمري فلم أتحرك لثوان. لكن صوت القناني وهي توضع في الصندوق كان مستمرّاً وعالياً. نهضت من الساقية وتحسست شعري وملابسي وحاولت كشط الطين. مشيت إلى الحنفيّة وفتحتها وبدأت أغسل يدي وأحاول تنظيف ملابسي قدر الإمكان فكرت بما سأقوله لأمّي. سمعت صوت الباب يغلق. لكنني عزّيت نفسي بأن الفتحة ستظل هناك في الجدار وأن عيني ستصيد شيئاً أكبر وأثمن في المرة القادمة.

دلفت إلى البيت من باب المطبخ وذهبت إلى الحمّام وخلعت

ملابسي وكوّمتها ثم اغتسلت. واكتشفت أمّي الملابس المتسخة فيما بعد ووبختني قائلة: «ولك هاي شنو؟ ليش تتمرغل بالطين؟» لم تصدّق أن السبب كان لعب كرة القدم.

أخذت أكثّف من استطلاعاتي الاستراتيجية على خلفية بيتهم من السطح أو من خلف ستائر شباك غرفة أبي وأمي عندما تكون خالية عسى ولعلّ. وبعدها بأسبوعين رأيتها تملأ جردلاً بالماء، فنزلت بسرعة إلى الطابق الأرضي وخرجت بهدوء إلى التينة وتسللت بحذر أكثر وكانت الأرض جافة ومتماسكة. أخذت لوحاً خشبياً رأيته بالقرب من خزّان الماء ووضعته في الساقية وركعت واضعاً ركبتيّ عليه كي تكون الفتحة بمستوى نظري. رأيتها واقفة، ظهرها إليّ، ترتدي دشداشة سماوية اللون، شفافة بعض الشيء، بلا أكمام وقد رفعتها إلى ما فوق ركبتيها وأدخلتْ جزء منها من الجانبين تحت سروالها الداخلي الأبيض كي تستطيع مسح الأرض والتحرّك بحريّة أكثر. كانت أوّل مرة أرى فيها فخذين عاريين. أقفلتْ صنبور الماء وألقت بوصلة مسح كانت تحملها في الجردل، بلّلتها ثم عصرتها فوقه. حملتها إلى داخل المطبخ الذي كان بابه مفتوحاً. عادت بعد دقيقة. كان البلل قد ألصق أجزاءً من دشداشتها بجسدها. لم تكن ترتدي حمّالة صدر ولمحت نهديها الكمثريين. كانت تواجهني هذه المرة. عندما انحنت لتضع وصلة المسح في الجردل ثانية بانت مساحة لا بأس بها من نهديها حتى خلت أنّهما ثمرتان على وشك السقوط. عصرت الوصلة وعادت إلى داخل المطبخ واختفت. ثم ظهرت من جديد وبلّلت الوصلة مرّة أخرى. لكن هذه المرة كان الجزء الذي تمسحه في مرمى بصري وأستطعت أن أراقبها بوضوح وهي تنحني وتمسح الأرضية بحركة منتظمة.

الفخذان العاريان ووركاها، وكانت وركاء، يقتربان أكثر فأكثر إذ تتراجع هي نحو باب المطبخ. ازداد انتصابي قوّة وكانت يدي اليمنى قد زحفت إليه منذ البداية لتعتني به. فتحت السحّاب وأخرجته لأداعبه. بينما استندت اليسرى على طابوقة في السياج وجبهتي مسمّرة عليه. خفت للحظة أن يخرج أحد ويكتشفني لكنها فرصة لا تعوّض. عندما انحنت هي أمام الجردل لتعصر الوصلة ثانيّة لم أتمالك نفسي فعصرت لذّتي على التراب تحتي. رفعتُ عيني عن الفتحة ونظرت تحتي. كان منظر القطرات المتدحرجة والبقع على التراب الغامق غريباً. أعدت صديقي الصغير إلى مكانه وسددت السحّاب. عندما نظرت من الفتحة السريّة ثانية لم أرها لكنني سمعت صوت الماء يدلق من الجردل بقوة ثم وقع خطواتها تقترب. رأيتها تضع الجردل تحت الصنبور وتدخل المطبخ ثم تسد الباب وراءها.

ظننت بعدها أنني سأتمتع بمشاهد أخرى متنوّعة وكنت أنتظرها بفارغ الصبر لكن ظل هذا المشهد يتيماً. بعد ثلاثة أسابيع شاهدت عمال البناء يعملون على جدران البيت. كشطوها ثم غطوها بطبقة «النثر.» وخفت أن يطال هذا التجميل العين السحريّة التي اكتشفتها في السياج. وكان خوفي مبرّراً. فحين نزلت بعدها بيومين ووضعت عيني عليها لم أر شيئاً.

لكن المشهد ظل واضحاً في ذاكرتي. وكلما شممت رائحة التين بعد ذلك تذكرت فخذيها وكلما قضمت تينة وتلذذت بليونتها تذكرت تلاطم النهدين.

* * *

أعود إلى البيت.

كثيراً.

مرة كل أسبوعين.

أستقل الحافلة من باب المعظّم. رقم ١٧٩أ. أجلس دائماً في الطابق الثاني. أفضّل المقعد الأول إلى جهة اليمين كي أجلس أمام الواجهة الزجاجية وأرى المدينة. أشعر بالاختناق في الطابق الأول. حتى عندما لا أجد مقعداً على الطابق الثاني، فإنني أفضّل الوقوف فيه، رغم صعوبة المحافظة على التوازن أحياناً عندما يسرع السائق أو يضغط على الفرامل. أقف وأنتظر أن يترك أحد الركاب مقعده لأحتله. آخذ معي كتاباً أو مجلّة وأقرأ. عندما تصل الحافلة بالقرب من منطقة بيتنا تكون قد لفظَت الكثير من ركابها. وأنا أفضّلها، هكذا، شبه خالية. وتقف عند الموقف القريب من بيتنا. بالقرب من جسر المشاة. أرى شارعنا من بعيد. يُفْتَح الباب ويغلق. وأظل جالساً في مكاني. يبتعد شارعنا ببطء ويختفي. أبحلق في ما تبقّى من الطريق ثم أعود إلى الكتاب. تصل الحافلة إلى نهاية الخط ويطفئ السائق المحرّك. أحياناً يصعد إلى الطابق الثاني ويستغرب عندما يراني فيطلب منّي أن أنزل. وعندما أقول له «أريد أرجع» يرد قائلاً « أي، بس لازم تگص بطاقة جديدة.» فأفعل. بعضهم لا يتفقد الطابق الثاني ولا يكتشفني. فأظل في مكاني وأعود إلى باب المعظّم.

وبعدها بأيّام أعود ثانية إلى البيت.

دون أن أنزل.

أحد السوّاق تعوّد على وجودي وصار يعرفني. كان يتساءل في البداية «شنو قصتك يا معوّد؟ مُقيم هنا؟» لكنّه توقّف. ذات مرّة

ونحن بالقرب من البيت نادتني امرأة وهي على وشك النزول إلى الطابق الأول. «شلونك عيني ودود؟» التفتّ فرأيت سيدة أنيقة في الستينيّات. ترتدي نظّارات طبيّة. شعرها أشيب. ابتسمتْ. ثم أدمعت عيناها وهي تحدّثني. كان وجهها مألوفاً، لكنني لم أتعرف عليها. «حمد الله عالسلامة؟ سمعتْ طلعوك. وين گاعد هسّة؟» لم أقل شيئاً. كيف عرفت كل هذا؟ «شكلك نسيتني. ترا آني أم زيدون. جيرانكم.» زيدون؟ نعم. كنتُ ألعب كرة القدم مع زيدون. زيدون بِجامة. قصير القامة وبالبيجاما طوال الوقت. حتى عندما يلعب كرة القدم في الشارع كان يرتدي حذاء رياضة ويبقى بالبيجاما. أذكر أننا أسسنا فريقاً لكرة القدم يضم نخبة من أولاد الشارع لنشترك في دورة كرة القدم في المنطقة التي كانت تقام في ساحة ترابيّة قرب الغدير. أسميناه «أشبال زيّونة.» جمعنا تبرعات لشراء كرة قدم «گريگر» «نفخ» بخمسة دنانير. وأيامها كان مبلغاً ضخماً لأن كرة القدم البلاستيكية «أمّ التسع دراهم» لم تعد تليق بنا. وذهب وفد يمثّل الفريق ليشتريها من محل «رسام» في بغداد الجديدة. «من رخصتك. لازم أنزل. اتفضّل عدنا.» قالتها بحزن. قلتُ لها «شكراً خالة» لكنني لم ألفظها. «الله وياك عيني. والله يساعدك.» زيدون أتذكّره لكنني لا أتذكّرها. هزّت رأسها وحوقلت وهي تنزل.

ذات مرّة كنت أقرأ، وأنا في طريق العودة، عدداً من مجلة قديمة. وجدت ترجمة لإحدى قصائد كافافي واستوقفني (ما زلت أذكره) مقطع يقول فيه: «والأيام الماضية تظل وراءنا/ طابوراً حزيناً من الشموع المطفأة/ والأقرب إلينا مازال دخانها/ شموع باردة، ذائبة، محنيّة.»

وأمطرتُ.

ستستغرب التعبير ولذلك سأشرحه لك. هنالك مئات الغيوم التي تختبئ في جسدي. غيوم تتشكّل من بخار الصور والكلمات ومن ركام أشياء لا أعرفها ولا أفهمها بصراحة. وبين الحين والآخر تهب عليها ريح فتحولها إلى مطر شرس، يبحث عن مهرب منّي. يستخدم عينيّ وكل مسامات جلدي. أنكمش، تنهمر دموعي بغزارة، أتعرّق وأرتجف وأئن بحرقة. أظل هكذا لربع ساعة وأحياناً ساعات. وبعدها أهدأ وأشعر براحة كبيرة. لأنني أكون قد أطلقت سراح الغيوم و «يصفى بالي.» الموضوع موضوع مناخ نفسي. لكنه مناخ يصعب التنبؤ بأحواله. قرأت مقاطع أكثر حزناً بكثير من ذلك المقطع ولم أمطر. لعلها نسبة الغيوم التي تتكاثف داخلي. «نوبات بكاء شديد» هي التسميّة الرسميّة التي كتبها الطبيب على ملفّي. ولكن لماذا يرتعب الناس من المطر الداخلي؟ حسناً، سأعترف، أحياناً يرافق المطر أو يسبقه الرعد الذي أسمعه في داخلي والذي أسمح له بالخروج أيضاً على شكل صراخ. إنها دورة الحزن في الطبيعة. ألا تذكر كيف كنا ندرس عن دورة حياة الأوكسجين والنيتروجين و و؟ هذا جزء من دورة الحزن في الطبيعة. أزعم أن الحزن مركب طبيعي موجود في أجسامنا وفي الهواء الذي نستنشقه. وأحياناً تزداد مناسيبه بحسب الحال والمآل.

المهم، تدافعت الغيوم كلها وتزاحمت على عينيّ. وهذا الرعد الذي أسمعه أخذ يؤلمني. سقطت المجلّة من يدي. احتضنت رأسي وتقوّس ظهري. سمعتُ الخوف في صوت الطفل الذي كان يجلس بجانب أمه في المقعد المجاور يسألها «ماما، هاي شبيه هذا؟» ثم أخذ يبكي. حاولت هي أن تهدئه وسمعتُ صوت خطواتها وهي تقول له «ماكو شي ابني لتخاف. تعال ننزل جوة.»

«أيام مستقبلنا تقف أمامنا/ مثل صف من الشموع الصغيرة المضاءة/ شموع صغيرة، حيويّة، ذهبية، دافئة/ والأيام الماضية تظل وراءنا/ طابور حزين من الشموع المطفأة/ والأقرب إلينا مازال دخانها/ شموع باردة، ذائبة، محنيّة/ لا أريد أن أنظر إليها، شكلها يحزنني/ ويحزنني أن أستعيد نورها الأول/ أنظر أمامي إلى شموعي المضاءة/ لا أريد أن ألتفت لكي لا أرى و/ أرتعد/ لمرأى الطابور المظلم وهو يطول/ والشموع المطفأة تتكاثر»

* * *

بدأت أكتب الحروف والكلمات مبكّراً، في البيت، قبل الذهاب إلى المدرسة بسنتين. خالتي سهاد، التي كانت تعمل مدرسة، أعطتني كتاباً وقلماً وعلمتني كيف أرسم الحروف والكلمات. فرحت بالهاء الذي كان حرفي المفضّل بسبب شكله في بداية الكلمة. هوسي بالحروف والكتابة كان يقابله خوف، لا أعرف مصدره، من الذهاب إلى المدرسة. وكلّما كانت أمي تقول «يالله هسّة تكبر وتروح عالمدرسة» كنت أقول لها «ماريد! أريد أظلّ هنا بالبيت.»

«ما يصير إبني. شلون؟ كل واحد لازم يروح عالمدرسة.» ولم أقتنع بحتمية الذهاب إلى المدرسة إلا حين قالت لي ونحن نجلس في الطارمة ذات يوم «لازم تروح للمدرسة على مود تدرس وتصير مهندس لو دكتور. إذا ما تروح للمدرسة شتصير؟ تريد تصير مثل هذا أبو النفط؟» نظرتُ إلى الفتى الذي كان يعود للمرة الثانية حاملاً تنكتي النفط الأبيض ، واحدة على كل جانب، يوازن ثقلهما، كي يوصلهما إلى سخّان الماء قرب المطبخ ليدلقهما في خزّانه. عندما

انتهى من مهمته جاء إلى أمّي وأخرج صرّة من القماش الرمادي المتسّخ بالبقع من جيبه خرخشتْ داخلها قطع النقود المعدنيّة. لم يكن عمره أكثر من ست عشرة، اخترقت رائحة النفط الأبيض القويّة التي تنبعث من ملابسه أنفي. أسمر، نحيف. عيناه عسليتان. شعره أسود قصير. يرتدي فانيلة ورديّة يبدو أنها كانت أصلاً حمراء لكنها فقدت نضارتها بفعل الزمن. بنطلون خاكي و«بوتين» أزرق ببوز وقياطين رصاصيّة. أخذ الأوراق النقدية التي أعطته إياها أمي ووضعها في الصرة ثم أخرج منها حفنة من القطع النقديّة. رأيت الوسخ تحت أظافره. قالت له أمّي «خلّي الباقي إلك.» فشكرها وابتسم وهو يعيد الصرّة إلى مكانها. استدار واتجه نحو الباب. مشت أمّي وراءه ببطء كي تسد الباب الرئيسي. ركب الفتّى على العربة والتقط الرسن الذي كان مربوطاً بجانب مقعده وأصدر صوتاً بلسانه وجر الرسن فتحرك الحصان الأبيض العجوز ببطء وسحب «العربانة» المصبوغة باللون الأخضر. ثم أخذ الفتى يضرب الناقوس الحديدي «طن، طن، طن» بحثاً عن زبائن آخرين.

كنت أقف مشدوها أمام الحصان الذي يسحب العربة كلّما جاء أبو النفط. يحلو لي أن أراقب حركاته وهو ينتظر صاحبه. يهزّ رأسه. يهش الذباب بذيله. لكن ما قالته أمّي ذلك اليوم أنساني الحصان وأخافني من مصيري البائس إن لم أذهب إلى المدرسة. ستكون أظافري متسّخة دائماً وسأحمل التنكات الثقيلة طوال اليوم وستفوح منّي رائحة النفط وأجلس على العربانة وأشم رائحة روث الحصان. أدركت يومها أنني سأضطر للذهاب إلى المدرسة.

وذهبت بعدها بأشهر إلى الصف التمهيدي في روضة الأقحوان، التي كانت تابعة لمدرسة الابتكار النموذجية في شارع

فلسطين. وبكيت بحرقة عندما تركتني أمّي. وبكيت ونحن نصطف في الساحة. وظللت أبكي داخل الصف. مع أن البنت التي أجلسوني بجانبها كانت حلوة وحاولت أن تسكتني بعدة طرق. عيل صبر المدرّسة «هاي شلون ويّاك. ما يصير هيچي؟» أمرت الجميع بأن يظلوّا «عاقلين» ثم أخذتني إلى غرفة المديرة. عبرنا الساحة إلى البناية الثانية حيث كان «الكبار.» «أريد أروح للبيت» «ما نگدر نوديك للبيت. لازم تنتظر إلى نهاية الدوام.» قالت لها المديرة «خلّيه هنا هسّة نشوف حل. بس انطيني اسمه الكامل.» أمرتني المدرسة أن أجلس على الكنبة ثم عادت إلى صفها. جلس الفراش «عمو وردة» خارج الباب يراقبني ويبتسم لي مطمئناً. قلّبت المديرة أوراقها ثم رفعت سماعة الهاتف وأدارت القرص وانتظرت. «ماكو جواب. أمّك موظّفة لو گاعدة بالبيت؟» «بالبيت» «أشو ما تجاوب لعد؟ راح آخذك وأحطّك ويّ أختك بالصف الثالث.»

كفكفت دموعي عندما سمعتها تقول ذلك وقامت المديرة من وراء مكتبها ودارت حوله واقتربت مني قائلة «يالله لا تبچي. تعال نروح يم أختك.» أخذتني بيدي وخرجنا إلى الممر وصعدنا إلى الطابق الثاني. طرقت المديرة باب صف وفتحته. كنت أرتدي الصدرية الخضراء النموذجية، أما الجالسين في الصف من الأولاد فكانوا يرتدون ثياباً بيضاء وبنطلونات رصاصيّة. البنات كن يرتدين تنّورات زرقاء مع ثيابهن البيضاء. لمحت أختي في رحلة في منتصف الصف. بدا عليها الارتباك والخجل. قالت المديرة للست وصال، مدرسة اللغة العربية، «عفواً سِتْ، هذا الولد ما يبطّل بَچي ومعطّل الدرس، خلي يگعد ويّ أخته بلكي يهدا شويّة.» «مو

مشكلة. تعال حبيبي. منو أخته؟» «وفاء» لا أدري لماذا قلتُ لها «آني أگدر أكتب ست.» ضحكت وقالت «تگدر تكتب؟ يالله إذا تگدر تكتب مثلهم نخليك بالصف وتكمّل ويّ أختك وما ترجع للتمهيدي. يالله روح أگعد يم وفاء.» صدّقتها وفرحت بالفكرة. مشيت نحو الرحلة التي كانت أختي تجلس خلفها مع زميلة لها والطلاب يراقبون المشهد. لم أفهم يومها لماذا كانت وفاء تتصرف بطريقة غريبة. أحرجها ظهوري فجأة في صفها وقالت لي بعصبيّة «ليش إجيت هنا؟» كانت زميلتها التي تجلس بجنبها على الرحلة ألطف وأرق. ابتسمت وتحرّكت إلى اليمين كي تفسح لي المجال لأجلس معهما. أخرجتُ دفتري والقلم والمُقْطاطة والمسّاحة استعداداً للكتابة. شكرت المديرة الست وصال وخرجت. «يالله نرجع للإملاء إذاً.» أمسكت قلمي متحفّزاً لكن الكلمات التي طارت من شفتيْ الست وصال كانت غريبة وطويلة جداً، لم أكن قد سمعتها من قبل. وقبل أن أخط حرفين من الكلمة التي ظننت أنني سمعتها كانت تتبعها كلمة أخرى وأخرى والطلاب حولي يكتبون بسرعة. تراكمت الكلمات وعرفت بعد لحظات أنّني لن أتمكن من مواكبتهم وأنّني سأعود إلى التمهيدي وسقطت دمعة أخرى على دفتري. لا أذكر ما الذي حدث بعد ذلك. لكنني أذكر أنني بكيت في اليوم التالي وإن أقلّ وتأقلمت بعدها، بل أصبحت من المتفوقين. كانت المنافسة بيني وبين بنت كرديّة اسمها ڤيان. نتناوب على المركزين الأول والثاني. وبقينا على هذه الحال لست سنوات حتى تخرجنا من الابتدائية. أذكر ڤيان لأنني لن أنسى النظرة التي تبادلناها في الصف الأول حين وزعت علينا الأستاذة هدايا التفوّق وجاءت المديرة ووشوشت شيئاً في أذنها فنادت المدرّسة

على معن ليكون هو أيضاً من المتفوقين. واستغربنا لأنه كان غبياً وكسولاً ولكنه كان يعود إلى البيت بسيارة تويوتا كراون فارهة يجلس فيها سائق يرتدي ملابس عسكرية. عرفنا فيما بعد أنه ابن خير الله طلفاح، خال صدّام وحموه. في الصف الثاني نقّلوه إلى شعبة أخرى فلم يعد يتفوّق علينا بل على آخرين!

أول مرة عرفت فيها الحب كانت في مدرسة الابتكار النموذجيّة. وكنت في التاسعة من عمري. ولم تكن معشوقتي واحدة من زميلاتي في الصف. كلا كانت أكبر مني بأثنتي عشرة سنة. رنا. كم كنت أتلذّذ بلفظ اسمها. كتبته مئات المرّات على أوراق حقيقيّة وأخرى خياليّة. رنا «المطبّقة» التي درّستنا التاريخ لثلاثة أشهر كما جرت العادة لطلاب كلية التربيّة. حلمت بشفتيها وبتقبيلهما. وكان نهداها اللذان يطلّان من فتحة قميصها التي كانت كريمة نسبيّاً يثيراني فأخجل من انتصابي الصغير وأشعر بالذنب لأنني كنت أدنّس صورتها الطاهرة في خيالي شبه البرئ آنذاك. وتجرّأت وكتبت لها رسالة أفصحت فيها عن حبّي وعن حزني لأنها كانت على وشك أن تتركنا.

كتبتْ لي في دفتر المذكرات الصغير ذي الصفحات الملونة، ذاك الدفتر الذي كنا، نحن الطلاب، نعطيه لبعضنا البعض لنكتب جملاً للذكرى. «إلى تلميذي المَفضّل، أتمنى لك مستقبلاً باهراً. محبتي.» صديقتك رنا. فرحت بـ«تلميذي المفضّل» و «صديقتك» لكنّ مفردة «محبتي» حيّرتني بعض الشيء وجعلت فرحتي ناقصة. حتى أنني سألت أمّي عن الفرق بين الحب والمحبّة ولم يكن جوابها شافياً. أدركت بعدها أن المحبّة ليست مثل الحب. وتأكد لي ذلك حين سمعتُ في آخر أسبوع أن أحد الطلّاب الذي كان يظل بعد

انتهاء الدوام منتظراً والده كي يوصله إلي البيت، شاهد الأستاذ صباح، أحد المطبقين، يقبّل ست رنا في أحد الصفوف الفارغة بعد الدوام. حاولت ألّا أصدّق ما سمعته لكنّني أخذت أراقبهما واكتشفت خيانتها لي وبكيت!

* * *

أعود إلى البيت.

عدتُ إلى البيت.

نعم، عدتُ حقّاً، مرة واحدة فقط.

استجمعت شجاعتي ونزلت من الطابق الثاني إلى الأول عندما رأيت جسر المشاة من بعيد. فتح السائق الباب ووجدت نفسي على الرصيف. تحرّكت الحافلة وتفرّق الذين نزلوا معي كل إلى بيته أو بيتها. ترددت وبقيت واقفاً هناك على الرصيف لخمس دقائق. ثم قررت أنني لن أعود أدراجي هذه المرة، كما كنت أفعل في الماضي. نعم، سأعود.

دخلت في شارعنا. بحثت عن الساحة التي كنا نلعب الكرة فيها إلى اليمين. لكنها لم تعد ساحة بل احتلها بيت بطابقين، جدرانه مصبوغة بلون رمادي. الباب الخارجي من الحديد المشبّك المصبوغ بالأبيض. لا توجد سيارات في الداخل. شممت رائحة زهر القدّاح الذي تدلّت أغصانه من فوق السياج. عبرت الشارع قطّة مرقّطة بالأصفر والأسود، بدت أكثر هزالاً من كل القطط السائبة. وصلت إلى أول تقاطع حيث كنّا «نضرب ركن» لساعات طويلة أيام المراهقة وبعدها. نراقب كل ما يحدث وكل من يمرّ. وبالذات الفتيّات اللواتي كن يعدن من المدرسة. في هذه الزاوية

شهدت واحدة من أعاجيب الوجود. خلال أشهر بسيطة تحولت ابنة جارتنا من طفلة لم أكن آبه لمرورها إلى امرأة يخلق مرورها حقلاً مغناطيسياً يتحكم بحركة الدم في شراييني. حتى أنّني بدأت ألاحقها وأحاول أن أحادثها قبل أن تصل إلى بيتهم. لم تقل شيئاً أول مرة حاولت أن أكلمها فيها. بدت خائفة. وابتسمت في المرة الثانية لأنني مازحتها قائلاً «شنو ما تسمعين؟» لا أذكر ما حدث بعدها. هل تحولوا إلى منطقة أخرى؟ هل اختفت من الحياة أم اختفت من ذاكرتي؟

التفاصيل على الطريق هي نفسها. نعم، بعض البيوت تبدو الآن أقدم مما كانت عليه في ذاكرتي. وأخرى أجريت لها عمليات تجميل. الشارع نفسه يبدو أضيق. مررت ببيت المحامي، طعمة السعدي. لا زالت القطعة التي تحمل اسمه على دكّة الباب الخارجي. ثم بيت التاجر صاحب معمل الحلويّات في جميلة والذي لم يرزقه الله بولد حتى بعد أربع بنات. يقال إنه تزوج من امرأة أخرى شابة لكي تنجب له ولي العهد، لكنها أعطته بنتين أخريين! ولا أذكر إن كان قد أفلح في مسعاه.

وقفت أمام بيتنا.

لكنه لم يكن هناك. وجدتُ بيتاً آخر يختلف كليّاً عنه. أعلى منه بكثير. لم أفهم كيف يمكن أن يحدث ذلك. كيف يمكن أن يختفي بيتٌ بأكمله من الوجود ويحل محلّه بيت آخر مختلف؟ نوافذ الطابق الثاني الأربع واسعة وذات زجاج مظلل. النخلة التي كانت تقف في زاوية الحديقة اختفت. جدار الحديقة عال نسبياً. لكن يمكن رؤية رؤوس أشجار حمضيات أقصر بكثير من التي كانت في بيتنا وشجرة توت متوسطة الطول لم تكن في حديقتنا أصلاً. دكتا

الباب عاليتان ومصبوغتان بنثر بني فاتح. بينهما بوابة سوداء عالية. على الدكّة اليمنى زر الجرس وبجانبه ضوء أحمر صغير. رقم البيت ما زال نفسه «٢٦» لكن لا توجد قطعة عليها اسم يدل على أهله. شعرت بحرارة الشمس تخنقني. ضغطت على زر الجرس وظلت إصبعي عليه لفترة طويلة وسمعتُ صوتاً يصرخ «وين بيتنا؟» كان صوتي أنا ولكنه كان يأتي من مكان بعيد. «ظلّيت مچلّب بالجرس ما تقبل تشيل إيدك. والتمّوا عليك الناس والجيران.» هذا ما قاله عمّي حين سألته عمّا حدث.

عدت ولكنني لم أعد...

قال لي عمّي: «ودود، ترا بعد ما إنت وقّعت لي التوكيل إحنا بعنا الأرض بخوش سعر والفلوس كلها موجودة. آني حطيتها بالمصرف وشوكت ما تريد أو تحتاج أي شي بس گُلّي وآني أسحبْلك المبلغ.»

شعرت بالاختناق وأحسست أني أصبحت عبئاً عليهم. سمعت زوجة عمّي البدينة العاهرة التي كانت تتظاهر بأنها تعطف عليّ تقول لعمّي ذات ليلة «شراح يخلصنا من هالورطة. لويش قبلتْ يطلعوه منّاك؟ الولد وضعه مو طبيعي. يظل يحچي ويّ نفسه ومرّات يصيّح بالليل يفزّزنه.» «يعني وين يروح؟ ما عنده غيرنا. وگلبي ما ينطيني أخلّيه بالرشاد. معيشينهم مثل الحواوين. آني شايفه ديتحسّن.» «يتحسّن؟! هاي من كل عقلك تحچي؟» كنت أشكّ بأنّها تعمل معهم وتتجسّس عليّ. وعندما أخبرت عمي بذلك لم يصدّقني وقال «الله يسامحك. هي تبرطم وتدردم. بس هاي الأمور كلها براسك ودود.» سمعتها توشوش جارتها عنّي.

عندما تحسّن وضعي (هاهاها... كم مرّة يتحسّن وضعي ثم

أعود إلى نقطة الصفر! «كم مرّة ينتهي أمرنا؟») سمحوا لي بأن أخرج لوحدي. وذهبت إلى المتنبّي لشراء الكتب وهناك التقيت بمحمد السلّوم، الذي كان معي في الجامعة، ولم أكن قد رأيته منذ سنين. لم أتعرف عليه أول الأمر فلم يكن أصلع أيام الجامعة وكان رشيقاً. وجدته يقف أمام بسطة وهو الذي ناداني «ودود مو؟ خرا بعرضك هاي وين؟» ونحن ندردش ونستذكر أيام الجامعة شاهدت قطعة على الجدار خلفه وعليها جملة مكتوبة بخط اليد «غرفة للإيجار.» لم يفهم عمّي لماذا أردت أن أعيش في غرفة في شارع المتنبي. «إذا ما مرتاح هنا، شوفلك فد شقة صغيرة أو مشتمل قريب من عدنا. ليش تختنگ بغرفة؟» لكنني أصررت وقلت له «هناك أريحلي وأريحلكم. وإنت ما قصّرت عمّي.» ولم يمانع هو في نهاية الأمر. فوجودي في بيته كان قد استنزف صبره ولا شك أن كفة راحة البال التي كان يعرف أنه سينعم بها بعد رحيلي ستكون أثقل بكثير من كفّة القلق والشعور بالذنب بين حين وآخر.

أذكر لك كل هذا لأنك سألتني أكثر من مرّة عن قصتي مع شارع المتنبي وبيع الكتب. وكما ترى فإنها ليست مثيرة أو معقدة بالضرورة. إنها محض هروب من جحيم اجتماعي صغير إلى فضاء أوسع. هذه الغرفة الصغيرة التي أكتب لك منها هي وطني الحقيقي لأنها مليئة بالكتب وكل كتاب سماء بأكملها، كما أنها تحتضن فهرسي الذي سيحتضن بدوره كل شيء أعرفه وأتخيّله. لكن لا أريد أن أظلم عمّي أو أعطيك صورة مغلوطة عنه. فهو إنسان طيب القلب، يزورني بين الحين والآخر، مرّة كل شهر على الأقل، ليطمئن عليّ ويعطيني المبلغ الشهري الذي يسحبه من المصرف والذي اتفقنا عليه بعد أن تركت بيته. فبيع الكتب المستعملة في هذا

الزمن وفي هذا المكان ليست مهنة مربحة إطلاقاً. نحن الخاسرون، دائماً، يا صديقي. لكن مصاريفي قليلة جداً.

* * *

لا أعرف كيف أصنفه. حلماً أم كابوساً؟ رأيت أنّنا كنّا شخصاً واحداً. تجمعنا أنا واحدة. أراه حين أنظر في المرآة ويراني. ذاكرتنا واحدة وصوتنا واحد وجسدنا واحد. لم يكن اسمنا ودود أو نمير. لا أعرف الاسم. ثم خرجتُ، أو أُخْرِجت أنا من تلك الأنا. انسلختُ وهجرت بغداد وسافرت بعيداً. وعندما عدت إلى بغداد لم أعرف ودود لأنه، هو الآخر، كان قد انسلخ عن «أنا» أيضاً وأصبح شخصاً آخر. أصبح ودود. مثلما أصبحت نمير. ولذّلك لم يعرفني. «أنا» جمعتْ بين ودود وبيني لأنها/ لأنني نريد أن نعرف ما حدث لودود لأنّه كان سيحدث لي. «أنا» تقول لي: اذهب مع ودود إلى بيته كي تعرف ما حدث وكي أعود وكي يعود هو! أتبع ودود الذي يبحث عن بيته. يدخل في أحد الشوارع الفرعية ويختفي فأستيقظ.

* * *

منطق الصُوَر السالبة

أگفا (٢٤)

١ «محروقة» يغلب عليها السواد باستثناء ومضة صغيرة في القلب وغبش في زاوية من زواياها.

[لم يكن ينوي التقاط صورة أساساً. أدخل البائع الفيلم في الكاميرا وأغلق الغطاء ثم ناولها إياه. لكنه كبس الزر بالخطأ

فأغمضت الكاميرا عينها ورأت ما رأته في تلك اللحظة. هذه أول مرة يمسك فيها بكاميرا.]

٢. فتاة في حوالي العشرين. شعرها أسود قصير مقصوص على طريقة «غارسون.» ترتدي قميصاً أبيض وجاكيتة زرقاء وتتأبط تحت ذراعها اليمنى «لفكس» وكتاباً وبيدها اليسرى حقيبة يد صغيرة. عيناها تضحكان (هناك كحل غامق على جفنيها) ورأسها يميل إلى اليمين قليلاً. خلفها واجهة المحل الزجاجية ويمكننا أن نرى رجلاً يمر من أمام المحل. وإلى يسارها كاميرات معلّقة على الحائط.

[قال لها إن أول صورة يلتقطها ستكون لها.]

٣. الفتاة تقف بجانب الشاب الذي يرتدي جاكيتة زرقاء وقميصاً أبيض وبنطلوناً رصاصياً. يقفان في منتصف إطار الصورة بالضبط ويبتسمان. نفس الخلفية مثل (٢) مع توزيع أفضل للمساحات.

[طلب من البائع أن يلتقط لهما صورة.]

٤. منظر شارع والسيارات (أكثرها بروزاً حافلة حمراء ذات طابقين) تسير نحو عين الكاميرا. في الجزرة الوسطيّة شجيرات متوسطة الطول ورجل يحاول عبور الشارع. في الخلفية عمارة وجسر مشاة. سماء بلا غيوم.

[نظّر إليه رجل مر بهما باستغراب وتلفّت بعد أن اجتازهما. فكّر أن يقول له «شبيك. ما شايف كاميرا؟» لكنه لم يقل شيئاً.]

٥. صورة قريبة لوجه الفتاة وهي تضحك بغنج. راحتها اليمنى (حول معصمها سلسلة من الأساور) مرفوعة أمام العدسة وتبدو أقل وضوحاً من بقيّة الصورة.

[قالت له: «على كيفك. راح تخلّص الفلم كلّه بخمس دقايق إذا هيچي.» فرد عليها «مو لازم أتدرّب. ومشتري ٣ أفلام.»]

٦ ثمار باذنجان كبيرة الحجم محشورة في غطاء صندوق من الورق المقوى تم قلبه ليستعمل كحاوية.

[قالت له: «شنو دَتسوّي تحقيق مصوّر عن حياة التبسي باذنجان؟» سألها: «إنتي مو جوعانة؟ آني ميّت جوع.»]

٧. عامل مطعم يرتدي صدرية بيضاء ملطخة بالدهن يقص قطع اللحم من سيخ گص بسكين ضخمة.

[قال للعامل «أبو الشباب، بلا زحمة «ليّة» زايد الله يخليك.» فتغيّرت تقاطيع وجهها وقالت: «إيع، شلون تگدر تاكل اللية؟» «بابا، إنتي مو أكّالة. أطيب شي الليّة.»]

٨. الفتاة تضع أحمر الشفاه على شفتيها وتنظر إلى مرآة دائرية صغيرة أمامها.

[كانت قد انتهت من غسل يديها وفمها وعادت إلى الطاولة. قال لها قبل أن يلتقط الصورة: «عرّسيتي وما دريتي شصار بيّه ما دريتي، آنا من الحرگة أعض شفايف وانتي تحمّريتي.» فاستغربت هي: «هاي شنو هالفلم؟» «هذا واحد شاعر شعبي كتب قصيدة لحبيبته بليلة زواجها من واحد ثاني.» «الظاهر تريدني أتزوّج واحد ثاني؟» «مو هسّة. . . بعدين!» ضحكا سويّة. لكن ضحكتها تحولت إلى تعبيسة عندما شاهدته يصوّرها: «ترا طوّختها. كافي! إذا ما تضم الكاميرا والله أزعل وأروح.» «زين خلص، خلص.»]

٩. يدها الأنيقة التي تنتهي أصابعها بأظافر مصبوغة بالأحمر تمسك بقدح بلاستيكي مليء بالآيس كريم مكتوب عليه «حلويات

الخاصكي». يمكننا أن نرى ساعة صغيرة تحت الأساور حول معصم اليد الأخرى التي تمسك أصابعها بملعقة بلاستيكيّة صغيرة.

[أقنعها بأنه سيصوّر يدها فقط ولن يظهر وجهها وهي تأكل في أي صورة. «شگد عنادي إنت؟»]

١٠ نافورة وسط ساحة مليئة بالشجيرات والآس تدور حولها السيارات.

[«يالله راح نتأخر عالمحاضرة إذا كل شويّة توگف وتصوّر» «المفروض تشجعين موهبتي»]

١١ شارع واسع يمشي فيه طلاب يرتدون الزي الموحّد تتوزع على جانبيه بنايات وعلى الرصيف أشجار يوكالبتوس.

[قال لنفسه: هاي راح تطلع صورة فاشلة]

١٢ جدارية ضخمة وعليها صورة صدام حسين وهو يرتدي العباءة والقبعة الأكاديمية ويحمل بيده شهادة التخرّج وتحت الصورة عبارة «للقلم والبندقيّة فوّهة واحدة.»

[همست له: «ما يكفّي صوره بكل مكان وانت تاخذ صورة للصورة!» «دا أتدرّب عليه»].

١٣ لوحة نحاسية خطّ عليها بالأسود «قاعة الفراهيدي» فوق بوابة خشبية كبيرة.

١٤ مجموعة طلاب وطالبات يجلسون على مدرجات قاعة محاضرات.

[الحّوا عليه أن يأخذ لهم صورة، همس بأذنها «هذولة نصهم منافقين ما يستاهلون أضيّع عليهم صورة، بس شاسوّي. ما أگدر أستنگي.» «صوچك. ضم الكاميرا وكافي.»]

١٥ قميصها الأبيض وتنورتها الرمادية مرميان على الأرض بالقرب من السرير وفردة حذائها تنام على بعد سنتمترات.

١٦. حمالة صدر بيضاء مرميّة على الأرض.

[هي في الحمّام تغتسل ولم تسمع صوت التقاط الصورة. أراد أن يخلّد هذه اللحظة. فلم يكن يعرف أن أرض الشقة الضيّقة يمكن أن تكتسب هذه القيمة الجمالية والشعريّة.]

١٧ باب الحمّام نصف مفتوح. منظر جانبي للنصف الأعلى من جسدها المحني قليلاً فوق المغسلة. ذراعها التي تغسل بها وجهها تحجب الجزء الأكبر من نهدها الأيسر لكنها لا تخفيه كلياً.

[ستسمع، هذه المرّة، صوت العدسة وهي تغمز عينها. وستفتح الباب وتصرخ «شنو هاي؟»]

١٨ العينان مليئتان بالخوف. فمها مفتوح تهرب منه صرخة غضب. يداها تغطيان نهديها.

[ستغلق الباب بقوّة وتنتحب في الحمّام. سترفض فتح الباب أو الحديث معه.]

١٩ تجلس على حافة السرير وقد ارتدت كل ملابسها. غطّت وجهها بيديها.

[صرخت بصوت عال «كافي. ما تعرف شنو يعني كافي؟ من الصبح دا أگلك ماريد تصورني. انطيني الكاميرا»]

٢٠ صورة غير واضحة. هي واقفة تمد يدها نحو العدسة.

[«خلص والله ما راح أحمّض الفلم». أخرجه من الكاميرا ومد يده ليعطيه لها «هاچ، أخذيه. ماحّد راح يشوف الصور. حرگيه، ذبيه بكيفچ. شما تريدين سوي، بس كافي بچي.» وضع الفلم على السرير بجانبها.]

٢١ ، ٢٢ ، ٢٣ ، ٢٤ : ظلام.

[كانت تنوي إتلاف الفلم، لكنها قرّرت أن تبقيه للذكرى.]

* * *

فتحتُ البوابة الزجاجيّة للثلاجة لأبحث عن الحليب الذي تفضّله مرايا: نسبة دسم ٢٪. هبّت برودة الهواء المحبوس داخل الثلاجة على وجهي. لمحت، وأنا آخذ قنينة الحليب البلاستيكيّة وأضعها في سلة التسوّق التي كنت أحملها بيدي اليسرى، وجود صف كامل من الحليب المعلّب في زجاجات مختلفة الأحجام. كان منظره في زجاجة قد أصبح نادراً بعد هيمنة الورق والبلاستيك. أبقيت باب الثلاجة مفتوحاً والتقطت إحدى القناني. اسم الشركة «فريش» وشعارها المكتوب تحت اسمها «من المزرعة إلى طاولتك.» تحت الشعار فقرة أخرى بخط صغير: «ندلّع أبقارنا لأن الأبقار السعيدة تنتج حليباً لذيذاً ومنعشاً. لا نستخدم المضادات الحيويّة. نستخدم الزجاج لأنّه آمن من البلاستيك ولا يشكّل خطراً على صحتك. تلذّذ معنا!» القنينة التي حملتها كانت حليباً كامل الدسم، ولكن كان هناك حليب مطعّم بالشوكولاتة وبالبرتقال. أعدت القنينة إلى مكانها وأخذت قنينة الحليب المطعّم بالبرتقال ووضعتها في سلّة التسوّق. أعادني الحليب المطعّم بالبرتقال وبرودة الثلاجة المفتوحة إلى بغداد في منتصف السبعينيات. وإلى فرحتنا، أنا وأختي، لم يكن نصير قد ولد، عند مرور «أبو الألبان» الذي كان يقود شاحنة كبيرة مبرّدة كتب على جانبيها بخط كبير «ألبان شركة الألبان» ويقف أمام البيت. فنساعد أمّي في حمل صناديق القناني الفارغة إلى الباب لنستبدلها بأخرى

مليئة. ينزل أبو الألبان من باب السائق ويدور ويقف خلف شاحنته. يفتح مزلاج الباب الخلفي. فتهب البرودة. يتأكد من عدد القناني الفارغة في كل صندوق ومن أنها ليست مكسورة. تقول له أمّي عن الصندوق الثاني ذي القناني الأصغر حجماً: «نص برتقال ونص موز.» البرتقال كان طعمي المفضّل، لكن وفاء كانت تحب الموز. يدفع الصندوقين بيده داخل الشاحنة. ويتبعهما ويدفع بصندوق حليب أبيض إلى الحافّة. ثم يرتب صندوقاً آخر «نص برتقال ونص موز.» تنزل أمي واحداً منها وينزل هو الآخر. ثم تطلب منه عدداً من عبوات الجبنة الصفراء الكبيرة و علب القيمر الصغيرة التي كان يبيعها. تضعها على صندوق الحليب الأبيض، تدفع له المبلغ ويعطيها وصلاً. نتعاون أنا وأختي على حمل صندوق الحليب المطّعم إلى المطبخ. وكان هذا التعاون مؤقتاً واستثنائياً تحتّمه ضرورة التلذذ بالحليب بأسرع ما يمكن. ثم يعود الصراع الأزلي بيننا حالما نوصل الصندوق إلى المطبخ ونختلف على أحقيّة كل واحد منّا باستخدام فتّاحة القناني قبل الآخر. والحق يقال إنّها كانت تسمح لي أن أسبقها في كثير من الأحيان وتقول «إنت زعطوط.» لا أدري لماذا اختفت سيارة الألبان في نهايات السبعينيّات، وبلا سبب واضح. وهكذا اختفى الحليب المطعّم وبقي الحليب التقليدي.

استغربت مرايا ذاك المساء عندما رأت قنينة الحليب المطعّم بالبرتقال في الثلاجة فحكيت لها القصّة.

* * *

بَني زمني، هل تعلمون سرائراً
علمتُ، ولكني بها غيرُ بائح؟
ما باختياري ميلادي ولا هرمي
ولا حياتي، فهل لي بعد تخيير
حياتي تعذيب وموتي راحة
وكل إبن أنثى في التراب سجين

أراني هناك.

غريب أن المرء لا يستطيع العودة إلى المكان الذي يتوق للعودة إليه. لكنّه يعود، مجبراً، إلى المكان الذي يتوق للهرب منه. حدث لي هذا في اليقظة كثيراً. يكتّفونني ثم يزرقونني بإبرة وعندما أستيقظ أجدني هناك. وما زال الأمر يحدث في الكوابيس طبعاً.

أراني هناك.

في زاويتي. مكوّماً بالقرب من الشبّاك. أفكّر: كيف يمكنني الّا أكون؟ كيف يمكنّني الّا أكون «أنا» ؟ هل بمقدوري أن أضع حداً لوجودي؟ صدّقني لم أكن أتفلسف ولم تكن هذه الأسئلة ترفاً، بل إفرازات ألم عميق؟ قد يخطر في بالك سؤال: لماذا لم أنتحر إذاً؟ ومن قال لك أنّني لم أحاول؟ حاولت في البداية. ولم يكن الموضوع سهلاً البتّة. حاولت ثلاث مرات وفشلتُ. في المرة الأولى اكتشفوا الأمر قبل أن أنزف بما فيه الكفاية. صرخ أحدهم فهرعوا نحوي. لا زالت آثار الاشتباك مع الموت (وعلى تخومه) على رسغي. ثم اتبعت طريقة أخرى لكن ما حصلت عليه من تلك المعركة كان تسمّماً وقرحة مزمنة في المعدة وربطي بالسرير لأسبوعين. هكذا تعاقبك الحياة (و من يتحكّمون بها) إن أردت أن تغادرها وتطعنها في الظهر؛ بأن تحكم عليك بمزيد من الألم. ذات

الألم الذي تحاول الفكاك منه! ثم أقنعت نفسي أن الانتحار سيكون إقراراً بالهزيمة وبانتصارهم عليّ، في الجولة الأخيرة على الأقل، وهو ما لم أكن لأقبله، أبداً. ولعلّك ستستسخف ما سأقوله. لكن، صدقاً، تولّد لدي رعب حقيقي من أن ما سيعقب الانتحار هو ذات الحياة التي عشتها بكل تفاصيلها وآلامها. وسأكون أكثر بؤساً فيها لأنّني سأعرف كل شيء قبل حدوثه ولن أمتلك القدرة على تغييره. عليّ أن أكون صادقاً، الفضل يعود للدكتور سلمان. الطبيب الشاب الذي أبدى اهتماماً غير عادي بقضيتي بعد نقله إلى المستشفى. كان قد تخرّج للتو وبدأ العمل بحماس وهِمّة. لم يكن بؤس الحياة ورتابة البيروقراطية في مكان مثل العراق أيام الحصار قد هشّما مثاليته وإخلاصه بعد. أصغى إليّ بجديّة وشعرت أنّه يصدّق كل ما أقوله. على عكس الآخرين الذين كانوا قد تحولوا إلى آلات صدئة يتعاملون معي بخشونة وبلا إنسانية. هو الذي أقنعني أن الانتحار هزيمة. وهو الذي شجعني على أن أكتب. قال لي إنّه لا يستطيع أن يعطيني دفتراً وقلماً. فالقلم ممنوع لاحتمال استخدامه لإيذاء النفس أو الآخرين. لكنه أعطاني جهاز تسجيل صغير مع شرائط كاسيت. جهاز مستعمل استخدمه هو أثناء سنيّ الدراسة لتسجيل المحاضرات. خفتُ وخامرني شك بأنه متواطئ معهم ويريد أن يتجسّس عليّ. لم أسجّل شيئاً ذا قيمة في البداية. كما أنّني خفت أن يصادروا الأشرطة فيما بعد. لذلك كان كل ما سجّلته هو كلمات ورموز لتذكرني بمعالم ما بدأت أدونّه في رأسي. من يومها بدأت فكرة الفهرس الجنينيّة تتشكل وله الفضل في تشجيعي.

أراني هناك.

ما زلت أقف وأتشبّث بالكتائب الحديديّة وأسند جبهتي عليها.

أدخل إصبعي في فمي وأبللها بلعابي ثم أخرجها لأستشعر وجهة الريح الخفيفة. هذا حين تمر بنا الريح. وكأنني بحّار يتهيأ لرحلة طويلة. ألوّح للطيور التي تمر أحياناً. أصفّق للا أحد. أستغل مساحة نصف ذراع من الحريّة التي يسمح بها غياب زجاج الشبابيك بشتّى الطرق والفعاليات. أزالوا الزجاج لأن أحد المرضى في الردهة كسر الشباك بلكمة وحوّل قطعة منه إلى جواز سفر إلى العدم. لكن لهذه الحريّة التي تسمح لي بإخراج ذراعي والتصفيق خارج الردهة ثمن باهظ في ليالي الشتاء حين يتسلل البرد ويصفّق في عظامنا. فالبطانية الإضافية التي يعطونا إياها في الشتاء لا تكفي. وافتقد الجميعُ الشبابيك حين هبّت عاصفة ترابية هائلة غطّت كل شيء وكل منّا بطبقة سميكة. وبالرغم من عناء تنظيف المكان في اليوم التالي ومن طعم الغبار فإن منظر السماء يومها كان رائعاً، بالنسبة لي على الأقل. وقفتُ أتأمله لأكثر من ساعة.

الغريب في ذلك المكان أن أثره على نزلائه غالباً ما يتناسب عكسياً مع الأهداف المعلنة والمرجوّة. فالـ«مجنون» يظل مجنوناً. وقد تزداد نسبة جنونه. والـ«عاقل» يصبح مجنوناً. أنا لا أؤمن أساساً أن الحدود واضحة بالضرورة بين المنطقتين. فهناك تداخلات وتعرجات وضباب يكتنف هذه الحدود التي يظنها الناس واضحة. وهناك جزر ومناطق وجيوب يعلن الجنون سيادته عليها. ويرفع راياته فوقها مع أنها تقع في مملكة العقل. والعكس صحيح أيضاً. فهناك عقلاء مهجّرون ومشرّدون في ممالك الجنون.

أراني هناك.

كنت أقلّب، في رأسي، ما كتبه بيكيت وأردده بصمت «لا شيء يحدث. لا أحد يجيء. لا أحد يذهب. إنّه وضعٌ سيئ.» لكن

الأمر يختلف. غودو لا يأتي بالطبع. لكن الأشياء بدأت تجيء بنفسها إليّ وتخاطبني. نعم. الأشياء لا تحْدُث، لكنها تتحدّث. وعمّي كان يجيء ويزورني. الحق يقال إنّه لم ينقطع عن زيارتي أبداً. قد يغيب لشهرين أو ثلاثة لكنّه يزورني. لا يقول الكثير. باستثناء الأسئلة العاديّة عن الأحوال وتأكيده المستمرّ على أن وضعي يتحسّن وأنه يحاول التوسّط لإخراجي حالما يسمح الأطباء بذلك. الأشياء كانت تتحدث أكثر من عمّي ومن الجميع. باستثناء الدكتور سلمان ربما. وصديقي التركماني، صفاء. نعم، هو الوحيد الذي كان قريباً منّي نسبياً. بكى صفاء بحرقة حين ودعني. درس الهندسة في الجامعة التكنولوجية وتخرج بتفوق وحصل على الماجستير. وتسلّم إدارة مصنع كانت تملكه عائلته. لكنه انهار. وأدخلوه هنا، أو بالأحرى هناك. (أترى؟ هناك جزء منّى ما زال هناك!). فكّرت كثيراً بمصطلح «انهار» و «انهيار عصبي.» وظل السؤال يؤرقني: هل يمكن لشخصٍ «انهار» أن يعود إلى ما كان عليه؟ صاغ سليم؟ لا أعرف. طالما تخيّلتُ أنني بناية انهارت وهي تحاول أن تعيد ترميم نفسها، حجراً حجراً، جداراً جداراً، طابقاً طابقاً. تحاول أن تسترجع بنيانها وتفاصيلها قدر الإمكان. ولك أن تتخيل الجهد والوقت الذي يتطلبه كل هذا. وعليك أن تقنع أولئك الذين كانوا يسكنون في البناية أنهم يمكن أن يعودوا إليها ليعيدوا إليها الحياة ويواصلوها. نعم، هناك من كان يعيش فيّ. وبعضهم لن يعود أبداً بالطبع لأنه مات بسبب الانهيار. وسيهجرك الكثيرون بعد أن تنهار. آه، راقت لي هذه الصورة. أنا إنسان مهجور، ومسكون بنفس الوقت. مسكون بالأشياء وبالأرواح. لكن كم انهياراً تستحمل البناية أصلاً؟ ثم توصلتُ إلى «شذرة» بعد ساعات

التأمل في هذه الاستعارة. وهي أن الفرق بين البناية والركام هو ترتيب الحجر وتوزيع المواد الأخرى، أي الشكل. المضمون يظل هو هو في البناية وفي حطامها! النص مكتوب بطريقتين.

أراني هناك.

عندما أمل من مراقبة المشهد في الداخل (ردهة صغيرة بأربعة أسرة)، أسند جبهتي على الكتائب الحديديّة وأراقب المشهد في الخارج. «جولة» باستثناء شجرة يوكالبتوس بعيدة. تقف وحيدة بالقرب من السياج الخارجي الخلفي، وكأنها تنتظر أن تزورها شجرة أخرى وعدتها أن تعود وتأخّرت. أو تنتظر أن تعود إلى أهلها. إلى يمينها على بعد عدة أمتار كومتا رمل وطابوق. إلى يسارها أشياش حديد صدئة من تلك التي تستخدم في البناء. المساحة بين الشباك وشجرة اليوكالبتوس مغطاة بالدغل وجزر معشوشبة هنا وهناك. ما وراء السياج وشجرة اليوكالبتوس تمتد السماء التي تخترقها أحياناً عصافير تستريح على أغصان الشجرة أو تحط على أشياش الحديد. حين يكون عددها لا بأس به يمكنني أن أسمع زقزقتها. وينتفض قلبي ويخفق جناحاه دون أن يطير ودون أن أطير. وأسأل نفسي: من قطع جناحيّ؟ المشهد، كما ترى، كان بحاجة إلى المزيد. لذلك كنت أضيف ما ينقصه من جعبتي أحياناً: فراشة، مثلاً. ودرّبت نفسي أن أصغي إلى الشجرة أولاً، ونجحت. والشجرة تقول كل شيء. وبعد ذلك أصغيتُ إلى الطيور. وبينهما صرت أسمع كل شيء. وامتلأ المشهد بمنطق إضافي لا يبدو للعيان.

* * *

قالت لي إن أمّها تود أن تتعرّف عليّ وسألتني إن كنت أمانع في أن نزورها معاً في عطلة نهاية الأسبوع ونتناول العشاء معها، فوافقت بحماسة. صفقت بفرحة طفوليّة ثم أضافت وهي تبتسم «لا تخف، ليس هذا امتحاناً ولا يعني بالضرورة أنّ علاقتنا أصبحّت جديّة جداً. هي تريد أن تتعرّف على صديقي فحسب.» فقلت لها «إذاً علاقتنا ليست جديّة بنظرك؟» «طبعاً هي جديّة. لكن الكثير من الجديّة يفسد كل شيء. ومازلنا في البداية.» لم أعلّق.

يوم السبت التالي أخذنا قطار المترو رقم ٢ إلى بروكلين. ما زالت أمها تسكن في منطقة كراون هايتس. في البيت الذي ولدت فيه مرايا وعاشت إلى أن أنهت الإعدادية وانتقلت إلى بنسلڤانيا للدراسة الجامعية. في الطريق سألتها عن المنطقة. قالت إن طفولتها فيها كانت سعيدة بشكل عام. لكنّها ذكرت الاضطرابات والعنف الذي استمر لثلاثة أيام عام ١٩٩١ إثر حادث قتلتْ فيه سيارة تسير في موكب جنازة يهودية بالخطأ طفلين من السود. اندلعت احتجاجات أحرقت أثناءها الكثير من المحلّات وانتشرت الشرطة بشكل مكثّف. كانت هي في التاسعة من عمرها. شعرت بالخوف ولم تذهب إلى المدرسة، بل ظلّت في البيت مع زوج أمّها الذي كان عاطلاً عن العمل آنذاك. أمّها تعمل مدرّسة لغة إنكليزيّة في مدرسة حكوميّة في المنطقة منذ ثلاثة عقود وستتقاعد بعد خمس سنوات. أبوها من ولاية جورجيا، لكنّه هجر أمّها بعد ولادتها ولم تسمع منه أي شيء. صارحتها أمّها عندما بلغت الثامنة عشرة أن الذي كانت تناديه «بابا» كل تلك السنين لم يكن أباها وأعطتها اسم أبيها الحقيقي. أخبرتها كيف أنّه هجرها حالما سمع أنها كانت حبلى ولم يترك عنواناً ولم يتصل بها أبداً. شعرت

مرايا بالحزن، بالطبع، مع أن زوج أمّها كان يعاملها كما لو كانت من لحمه ودمه ولم تشعر يوماً أنّه يفرّق بينها وبين أختها، مايا، التي ولدت بعدها بسنتين. كانت ولفترة مصمّمة على أن تعثر عليه وتتعرّف عليه شخصيّاً. قد تحاول أن تغفر له وربما تكون بينهما علاقة شبه طبيعيّة. بحثت عنه واكتشفت إنّه يقيم في ولاية جيورجيا حيث يعمل راعياً لأبرشية كنيسة. وأنّه، حسب موقع الكنيسة الذي وجدته على الإنترنت، وجد الله بعد حياة عبث وضياع وإدمان وأصبح من هؤلاء الذين «يولدون من جديد.» متزوج ولديه ثلاثة أولاد وقد كتب تحت صورة العائلة التي وضعها على موقع الكنيسة «العائلة هي منبع الحب والحياة المسيحيّة. من خلالها نثبت صدقنا ووفاءنا بممارساتنا اليوميّة.» تساءلتُ إذا كان يشعر بالذنب أو أنه فكّر بابنته التي تركها في بطن صديقته وهجرهما عندما كتب هذه الجملة؟ اشترت تذكرة الطائرة إلى أتلانتا وقررت أن تذهب وتستمع إلى إحدى مواعظه في كنيسته وتقترب منه بعدها لتقول له أنا ابنتك. لم تمانع أمّها وقالت إنّها تتفهّم رغبتها في التعرف على أبيها والتواصل معه. لكن مرايا عدلت عن الأمر فالتعرّف عليه لن يغيّر الكثير وقد يعقّد الأمور. قد تستطيع أن تغفر له أنه ترك أمّها لأنه خاف من المسؤولية وربما كان في مرحلة صعبة من حياته، لكنها لن تغفر له صمته كل هذه السنين، خصوصاً بعد أن استقرّ ووجد الله! كتبت له رسالة طويلة قالت فيها كل شيء لكنها لم ترسلها أبداً. قلت لها «أنا آسف» قالت « لا داعي للأسف. لقد وصلت منذ سنين إلى وضع عاطفي مستقرّ بالنسبة لعلاقتي مع أبي، أو بالأحرى، لاعلاقتي معه. لست ولم أكن حزينة. كلا، هذا ليس صحيحاً. يعاودني الحزن مرة أو مرتين في السنة. صلة الدم

مهمة، بالطبع، لكنني أعرف أنّ الأبوّة حب ومجهود عاطفي وصبر.»

كنت قد سألتها في الأسابيع الأولى عن طفولتها بعد أن أخبرتها عن مشاكلي مع أبي وانقطاع العلاقة، وكانت أجوبتها مختصرة وعموميّة وخمّنت أنّها ستستفيض لاحقاً عندما تشعر براحة أكثر. شاكستها وسألتها «هل يعني إخباري بهذه التفاصيل الآن أن علاقتنا أصبحت أكثر جديّة؟» ضربت صدري بقبضتها وقالت: «كفّى. هل ستظل تعاقبني لأسبوع بأكمله على ما قلته بخصوص الجديّة.»

كان زوج أمّها يعمل سائق قطار مع «آمتراك» ولا يقضي كل الأسبوع في البيت لأنه يعمل على خط نيويورك نيو أورلينز ويقضي ليلة هناك قبل أن يعود.

سألتها عن اسم العائلة الذي تستخدمه أمّها لكي أخاطبها كما تحب، فقالت: «نفس الاسم الذي أستخدمه أنا: داوسون. قررت أن آخذ اسم عائلتها وهي لم تأخذ اسم عائلة زوجها.»

خرجنا من المحطة ومشينا لدقائق ثم قالت وهي تشير إلى أحد البيوت في صف من بنايات الحجر الخمريّ اللون ذات الثلاثة طوابق «هذا هو.» أمام كل واحد منها سلالم حجرية توصل إلى الباب الرئيسي. صعدنا الدرجات وضغطت هي على الزر وعندما جاء صوت أمّها مستفسراً، قالت بصوتها المخملي: «أنا، مرايا» فسمعنا أزيز الباب.

كانت شقة أمها على الطابق الثاني. فتحت أمّها الباب وكانت ترتدي فستاناً أزرق وصدرية المطبخ البيضاء حول وسطها.

احتضنتها بحرارة وقبّلتها ثم صافحتني. سيدة في نهايات الأربعينيّات، رغم أنها بدت أصغر بعقد، بعينين سوداوين كبيرتين وأنف دقيق وشعر قصير. ابتسامتها دافئة.

استوقفتني صور كانت تطرّز جدار المدخل. واحدة بالأبيض والأسود للمطربة الشهيرة نينا سيمون. قالت مرايا «ماما تحبّ أغانيها كثيراً.» وأخرى لسيدة سوداء مع مارتن لوثر كنغ، لم أعرفها فسألتهما عنها، قالت أمّها: «ماهاليا جاكسون. أفضل من غنى الغوسپل.» وبعدها عدد من الصور العائلية تظهر فيها مرايا وأختها في مراحل مختلفة من طفولتهما وصباهما وصورة مرايا وهي تحمل شهادة التخرّج من جامعة بنسلڤانيا حيث درست التاريخ. وأخرى لمايا في حفل التخرّج من الثانوية. قالت أمّها بفخر: «مايا تدرس الآن في جامعة براون» ثم أضافت وهي تشير إلى صورة لها ولزوجها بملابس الزفاف «كان المفترض أن يكون مارڤن، زوجي، هنا لكنه تأخر في طريق العودة من نيوأورلينز.»

تقدمتنا إلى غرفة الضيوف وبدأت تسألني عن أهلي وعن مجيئنا إلى هذه البلاد وعن أقربائي بالعراق ووضعهم الآن فأخبرتها أننا جئنا سنة ١٩٩٣ وأن معظم أقربائي تركوا العراق في السنين الأخيرة. «أنا آسفة يا ابني. الحرب جريمة. لم أصوّت لبوش ولا لأبيه العنصري قبلها.» ابتسمتُ ولم أقل شيئاً.

طلبت منّي أن أجلس إلى يسارها وجلست مرايا إلى يمينها بمواجهتي. ظل الكرسي الرابع خالياً. بعد أن جلسنا مدّت أمّها يديها إلي وإلى مرايا وأغمضت عينيها وقالت «فلنشكر الرب على هذه النعمة وعلى المحبة التي تجمعنا. آمين. تفضّلا.» كانت الصحون مرتّبة بشكل أنيق. صحن صغير للسلطة فوق صحن أكبر

مع فوطة بيضاء إلى اليسار. كانت والدتها قد عملت نادلة لفترة طويلة قبل أن تكمل دراستها الجامعية وتبدأ بالتدريس. «سنبدأ بسلطة اللفت والسبانخ، ثم الباميا المقلية. وبعدها الدجاج المقلي على طريقة الجنوب. هل جلبت شهيّتك معك يا نمير؟» قلت لها إنّ شهيتي كلها معي، فضحكت. وأضفتُ أن الباميا أكلة مهمّة في العراق أيضاً فتفاجأت ورفعت حواجبها «حقّا؟» «نعم، تطبخ مع صلصة الطماطم ونأكلها مع الرز أو مع قطع الخبز المفتت الذي يشبه خبز التندوري الهندي.» سألتْ مرايا وهي تضع السلطة في صحني «أنا أعرف أنك لا تطبخين لكن هل يطبخ هو لكِ؟» فأجابتها: «كلّا. لكنّه يأخذني إلى مطاعم جيّدة في مانهاتن.» «إذا كان رجلاً كريماً فلا تدعيه يفلت من يديكِ.» ضحكنا وقالت مرايا محتجّة «ما هذا يا أمّي؟ عيب!» التفتت أمّها إليّ وقالت «هذا ما نسمّيه «سول فود» (أكل الروح) الذي طبخه أجدادنا.»

كان الأكل لذيذاً فعلاً والباميا مطبوخة مع الفلفل والبصل والبهارات. لم أقل لها أن الباميا العراقية أطيب وتذكّرت أن ما ينقص نيويورك هو مطعم عراقي. واختتمنا العشاء بفطيرة التفاح مع قليل من الآيس كريم وكوب قهوة. ساعدنا أمّها في نقل الصحون إلى المطبخ وقامت مرايا بوضعها في غسّالة الصحون. ألحّت أمّها علينا أن نظل بعد العشاء لنشاهد التلفزيون معها لكنني شكرتها وقالت لها مرايا «نمير لا يحب التلفزيون.» فرفعت أمّها حاجبيها قائلة «هو حر في أن يحب ما يحب ومن يحب ويكره من يكره.» قالت لها مرايا «سآخذه إلى ذا أولد كُرِب.» فقالت أمّها: «هذه فكرة ممتازة. أكل أكلنا فليستمع إلى موسيقانا.» أعجبني اسم المحل: «المهد القديم.» والمهد في ثقافة السود يعني البيت. قالت

مرايا إنها حانة صغيرة يأتي إليها عازفو الجاز والبلوز الشباب للعزف وأحياناً يمر بعض المشاهير. ومن يدري قد يحالفنا الحظ هذه الليلة.

ودّعتنا أمّها وعانقتني وقبّلتني أنا أيضاً. ونحن ننزل الدرج سألتني إن كنت قد شعرت بالملل فأجبتها: «بالعكس، استمتعت كثيراً.» لم يكن المهد القديم بعيداً، لكنه كان صغيراً. دفعنا أجرة الدخول على الباب ووجدنا كرسيين على البار واضطررنا للتسلل بحذر بين الطاولات للوصول إلى البار. كان بإمكاننا رؤية المطربة في الزاوية البعيدة في الجهة الأخرى من المحل لكن أحد الأعمدة كان يحجب بقية الفرقة. طلبت مرايا بيرة كورونا. وطلبت أنا كأساً من الموهيتو. كانت عبارة «تهامسوا. فالموسيقى أجمل من أصواتكم.» مكتوبة على قطعة معلّقة خلف البار في إشارة إلى التزام الصمت أثناء العزف. بعد أغنيتين قالت المطربة إنّهم سيأخذون استراحة قصيرة وجاءت إلى البار لتملأ كأسها الفارغة التي كانت تضعها على الأرض جنب قدمها. طلبت منها مرايا أن تغنّي شيئاً لنينا سيمون فسألتها المطربة «بكل سرور. هل هناك أغنية معيّنة؟» فقالت مرايا «آي ونت ألتل شوگر. إنّها أغنيتي المفضّلة.» وغنّتها المطربة في الوصلة التي أعقبت الاستراحة. وظللت أدندن المقطع الذي حفظته ونحن نعود بالقطار إلى شقّتي:

«أريد قليلاً من السكّر
في صحني
أريد قليلاً من العسل
في أعماق روحي

آه كم أنا بحاجة
إلى قليلٍ من الحب
آهٍ يا لغربتي
آهٍ يا لحزني.»

* * *

وحده أمامها وحدي ثقب أسود في قلبي قلبه حطام سماء ميتة نجومها لا وحدي سماء مثقوبة يقطر منها دم دم الله دم دم دم سماء زرقتها إبرة تخيط أتألم أبكي سأنسى لا أريد أن مسمار يدخل أكثر من واحد مسامير مسمار في الجدار في الخشبة في قلبي ثقوب تراب في فمي فمه لا يحكي شفته شجرة تموت أقف وأمشي شششششش سينتهي لكن بعد وقت لا أمشي أراه يصعد هذي الحافة اسقط هنا ناموا تراب يغمضهم لا تقل لهما أفّ الأوراق تحت الخزّان يجب وجيب قلم حبر جناحها يلوّن إصبعي تقف وضعتها في الكتاب لا تقل أو قل قل لن يكتب انشقّ القمر افتح بابه واهرب باب القمر مكسور بابا كافي

* * *

تحبني مرايا وتعرف كيف تحبني. تذكّرني بمقطع من قصيدة شعبيّة قديمة «صغيرة وما تِعْرف تِحِب ولا دغدغ گلبها الشوگ» لأنها العكس تماماً. فهي صغيرة ولكنها «تعرف شلون تحِب.» وأحب حبّها لي. بلا وعود وبلا شروط. تعرف كيف تمرّر أصابعها برفق على جراحي لتتعرف على تضاريس روحي. لكنها تكتفي، بذكاء وحكمة، بتضميدها ولا تدريد أن تزيلها. ولا تدّعي أبداً أو تعلن

بأنها ستشفيني. كما فعلت تلك التي قالت لي بعد أول ليلة أمضيناها قبل سنوات، وكنت قد حدثتها عن كرهي لأبي لأنها سألتني عن علاقتي به: سأشفي كلّ جراحك! وما كان مني إلا أن أقول لها: يبدو أنّك بدأت تخلطين بين ساعات العمل وساعات الاستراحة (كانت قد درست الطب النفسي وبدأت تتدرب في مركز اجتماعي). وانتهت العلاقة في اليوم التالي.

مرّت سنة كاملة دون أن يقول أحدنا للآخر «أحبك.» لم يكن ذلك ضرورياً أصلاً تحادثنا مرّة عن الندوب، المرئية واللامرئية. كانت واحدة من أولى المرات التي نمنا فيها معاً. مررت أصابعي على ظهرها وسألتها عن ندبة صغيرة أسفله. قالت إنها كل ما تبقّى من حادثة أدت إلى سقوطها عن الدراجة عندما كانت في العاشرة. وأضافت مقولة أعجبتني كثيراً لحظتئذ «أنا أحب هذه الندبة. فهذا تاريخ جسدي وذكرياتي.» وعندما سألتني عن عائلتي ووصلنا إلى أبي، قلت لها «إنّني أكرهه.» فلم تستغرب. سألتني عن التفاصيل وقالت بعد أن سردت لها الحكاية إنها تتفهّم. «البيض يظلّون يتحدّثون عن «السلام» وعن ضرورة أن يصل المرء إلى حالة سلام مع ماضيه. أنا لا أؤمن بهذا المنطق. هناك أشياء لا يمكن القبول بها وهناك ذكريات يجب أن تظل حيّة.» قلت لها «آمين.»

* * *

أريد الريش أريده لابد يلصقها واحدة واحدة هذا الريش الصقه لكي أنزل إليهم هنا ك لا أرى شيئاً لن تر سقطت ريشة لست طيراً لا لست احفر في الليل أسماؤهم تطير سقطت ريشة وجوه وجوه وجوه أينهم أين كلّه أين يأكلون التراب عين تطير رمشي مكسور أين لا

عنوان عدم ورقة تعرّض يراني الدخان ويغمض يغمضني أريشكيفال أين امّي أين أين لا بد أن تهبط أكثر لعلّهم أين ريشك سأجدهم ظلام ظلام

* * *

«يجب أن أتعلّم العربية» قالتها بجديّة ذات يوم.

«إنها لغة جميلة، هناك شاعر قال «إن الذي ملأ اللغات محاسناً/ جعل الجمال وسرّه في الضادِ.» «لكن لماذا؟»

«كي أفهم ما تقوله في نومك. تتقلّب مثل سمكة على اليابسة وتتفوه بعبارات لا أفهمها.»

«أنا آسف.»

«لا حاجة للأسف. من المحزن ألا نستطيع أن نكون معاً في الأحلام والكوابيس.»

«نعم، لو كان العالم مثالياً، لاصطحبنا بعضنا البعض حتى أثناء النوم. عندها يمكن أن أعرف الهدوء الذي تنعمين به حين تنامين.»

ضحكتْ «نومي عميق دائماً.»

حتى صوت الراديو الذي كنت قد تعودت على أبقائه مفتوحاً في الليل لأستمع إلى الموسيقى الكلاسيكيّة وموجز الأخبار كل ساعة لم يكن يزعجها البتّة.

لأنها أخذت تمضي معظم ليالي الأسبوع في شقتي بدأت تنقل بعض أغراضها وملابسها وتبقيها عندي. كأنها طير يبني عشّاً على أغصان حياتي. أعطيتها نسخة من مفتاح الشقّة وطلبت منها أن

تتصرف كما لو أنها شقتّها. أفرغت لها جزء من خزانة الملابس ونصف الدولاب في الحمّام.

عميق نومها. كأنها تستلقي على قاع بحر. لكن حتى عندما تكون نائمة على جانبها الأيسر وأسحب ذراعي من حولها تعيدها وتتشبّث بها كأنها لا تريدني أن أبتعد. لكنني أتقلّب، ثم أحاول أن أقرأ قليلاً. لا يزعجها النور لأنها ترتدي قناعاً يحميها من أي ضوء. هي نائمة على قاع البحر كحوريّة وأنا ألبط وأتلوّى بين الجرف والماي. وعندما أفشل أخرج من السرير وأرتدي ملابسي وأخرج لأمشي.

* * *

الزمن لا يسير باتجاه واحد. لم أكن لأصدّق ذلك لو أنني لم أهرب من أحد مواكبه. سقطت على قارعة الطريق والتحقت بموكب يسير في الاتجاه المعاكس. وأخذت أرى حياتي بصورة معكوسة. وعدت إلى رحم أمي. وعندما استدرتُ لأعود. أجهضوني.

* * *

لم يكن الأرق مشكلة جديّة في حياتي في الماضي. كنت أعاني منه بين الحين والآخر لليلة ثم يزول. ولم يستدع الأمر اللجوء إلى أي علاج. لكن بعد عودتي من بغداد أصبح ضيفاً ثقيلاً يتردد عليّ بكثرة. أستعنت في البداية بدواء «نايكوِل» المطعّم بالنعناع، والمخصص أصلاً لنزلات البرد والانفلونزا، لكن كان له تأثير المنوّم أيضاً. مشكلته الوحيدة أنه كان يستقطع ضريبة ثقيلة من

نشاطي وحيويتي في اليوم التالي فأشعر بخمول طوال اليوم. لكن حتى النايكول بدأ يفقد مفعوله بمرور الأشهر. فأخذت أشرب جرعتين، ثم ثلاث، وبدأ الإدمان عليه يسبب أعراضاً جانبية والتهاباً في جدار المعدة. وبعد زيارتي للطبيب لمعالجة آثار الالتهاب عرض علي أن يكتب لي وصفة لدواء منوّم فوافقت. حاولت ألا أدمن عليه ووعدت نفسي ألا آخذه إلا إذا أشرقت الشمس دون أن أتمكن من النوم، أو إذا كان لدي اجتماع مهم أو عمل يتطلب أن أنام لساعتين على الأقل.

* * *

منطق شبعاد

لم تنم شبعاد كثيراً وظلّت تتقلّب وهي تغالب قلقاً يقض مضجعها. قلق أن تخطئ في رسم الكلمات في الصباح. لماذا القلق وهي تتدرّب منذ سنوات ويمكنها أن تكتب أي شيء وهي مغمضة العينين؟ لقد حفظت القصيدة التي نظمتها خصيصاً للإلهة نيسابا والتي ستدونها أمام الجميع في المعبد غداً. ورددتها بصوت عال عشرات المرّات ورددتها قبل أن تنام أمام أبيها الذي ابتسم وقبّلها على جبينها قائلاً: ستكونين كاتبة عظيمة يا شبعاد، مثل أبيك وأجدادك. وستباركك نيسابا العظيمة وتمدك بالقوة لأنك ستكونين كاهنة في معبدها.

ردّدت مقاطع القصيدة مرة ثانية في الظلام.

«المجد لنيسابا

ابنة آن وأوراش

أخت نينسون، أم گلگامش
أم ننليل.»

«إنكي، إله الحكمة سمّاك كاتبة الآلهة وبنى لك مدرسة
أنت التي تحفظين السجلات
وتؤرخين للأحداث الجسام
بك تستعين الآلهة. تقدمين لها النصح والمشورة
المجد لنيسابا.»

«نيسابا حاملة لوح اللازورد
نيسابا، المها التي شربت الحليب المقدّس
تفتح فم السماوات السبع وتقبّلها
السيدة التي وهبت القدرات الإلهية
المجد لها
المجد لنيسابا.»

«مولاتي
يا أمّ الأرض وإلهتها. أنت التي تهدئين روع الأرض بالماء البارد
الجبل العظيم أنجبك. أنجبتك الحكمة
المجد لك أيتها الطاهرة. يا سيدة الكُتّاب
يا حافظة سجلّات إنليل، حافظة الأختام
يا حكيمة الآلهة

المجد لك
المجد لنيسابا.»

ركعت شبعاد بخشوع أمام جدار المعبد الذي يظهر فيه إنكي وهو يقترب من نيسابا. لقد أعدّ لها القرابين. وبنى لها بيت حكمتها. ووضع اللوح اللازوردي على ركبتيها. كي تستشير اللوح المقدّس في السماء وتدوّن أسماء النجوم. ورددت القصيدة بصوت يرتجف. وبعد أن انتهت، قال كبير كهنة المعبد لها: «لقد أكرمتك نيسابا وجعلتك معلمة. فلتباركك بقلب فرح ولتحررك من الكمد.»
وطلب منها أن تردد صلاة الكاتبة، فرددتها بصوت بدا أكثر ثقة:

«المعرفة تضيء كل مكان مظلم.
المجد لنيسابا التي أعطتنا النظام
ورسمت الحدود
السيدة التي لا حدود ولا منافس لقدراتها الإلهية
ملكة الملوك.
الكاتبة
هي التي تعرف كل شيء
وتهدي أصابعنا على الطين
تأمرها أن تضع المسامير الجميلة على الألواح
وتزينها بالقلم الذهبي
نيسابا التي وهبتنا عصا القياس
وخيط المعاين اللامع
إنها كاتبة البلاد
هي التي تطعم الآلهة

وتشبع البشر
على رأسها تاج من القمح
يا بيت النجوم، يا بيت اللازورد
الذي يصل إلى كل البلاد
ويبني معبداً في أوروك
السادة يرفعون رؤوسهم إليك كل شهر
نيسابا استمدّت قوتها الإلهية من السماوات
سيدة الحكمة التي تقرأ لوحها اللازوردي
ترسم خارطة السماء وتضع حبالها على الأرض
ترسم الحدود
المجد لها
المجد لسيدة إيريش
المجد لنيسابا.»

وظلّت شبعاد كاهنة مخلصة لنيسابا وكاتبة نجيبة دونت في العقدين الذين أمضتهما آلاف الألواح التي وثّقت الحياة في أومّا: عقود البيع والشراء، جرد المحاصيل والخراج، شعائر العبادة والصلوات، تعاويذ ضد الأرواح الشريرة، وقصائد قديمة وجديدة للآلهة. لكن ظلت قصيدتها الأولى الأقرب إلى قلبها. وماتت شبعاد دون أن تتخيّل أن قصيدتها ستصبح بعد موتها الصلاة التي سيرددها الكتبة في وادي الرافدين أثناء الطقوس. وأنها ستزحف شمالاً وستكتب على جدران المعابد المخصّصة لنيسابا. وأن كل الألواح التي كتبتها ستنتقل إلى المدرسة العظيمة في شادوبوم بالقرب من نهر ديالو حيث شيد معبد لنيسابا وأن فريق طه باقر الذي

كان ينقّب بين عامي ١٩٤٥ و ١٩٦٣ في الموقع سيعثر على ٢٠٠٠ لوح طيني ومن بينها قصيدة شبعاد لنيسابا وسيسلّمها إلى المتحف الوطني وستظل هناك إلى شهر نيسان عام ٢٠٠٣ وتختفي بعدها في الثقب الأسود.

* * *

للتسكّع لذّة الهذيان. القدمان، مثل اللسان، بلا وجهة معيّنة أو مقصد. تعبران الشارع فجأة وبلا سبب. تميلان يميناً أو يساراً بلا سبب منطقي أيضاً. لا مسار واضحاً أو مستقيماً ولا خارطة أو بوصلة. خربشات لا مرئية على خارطة المدينة. أو لعلّني أبالغ؟ فالهذيان انتظم فيما بعد، نسبياً، في جمل معيّنة تظل تتكرّر.

في بداية وجودي في نيويورك كانت لديّ خطّة طموحة لأن أستكشف مناطق المدينة كلها مشياً على الأقدام. ولكن الوقت لم يكن يسمح بالطبع. ومع ذلك. كنت أمشي كثيراً، كل مرّة باتجاه مختلف. بدأت أتجه شمالاً على الجادة الخامسة حتى أصل إلى مبنى «الإيمباير ستيت» الشهير على شارع ٣٤ وأتأمل منظره الأخّاذ بأضوائه الملوّنة المختلفة بحسب المناسبة. وأحياناً كنت أمد جولتي حتى مشارف «تايمز سكوير» ثم أعود أدراجي. لكن هذا الطريق كان يمتلئ بالمتسوّقين من محلات الجادة الخامسة الشهيرة إضافة إلى السياح الذين يزداد عددهم كلّما اقتربت من «تايمز سكوير.»

بعدها بدأت أفضّل المشي غرباً نحو النهر. أمرّ بمنطقة «وست فلج» المزدحمة هي الأخرى بالمحال والمطاعم. لكن الازدحام أقل وطأة ويقلّ كلّما اتجهت غرباً خصوصاً في الشوارع الصغيرة الهادئة حيث بيوت الحجر الغاليّة التي يبان ثراء أصحابها من

النوافذ الكبيرة. الكثير من الممثلين والعاملين في السينما والاستثمار كانوا يسكنون هناك. أعبر شارع «وست سايد هايوي» الذي تأخذه السيارات لتلافي المرور بمانهاتن فأصل إلى النهر. ثم أمشي جنوباً في الشارع المخصص للمشاة والمهرولين وللدراجات الهوائية. أخذت أفضّل هذا الطريق لأن منظر النهر كان يبعث على الهدوء، خصوصاً قبيْل الغروب. اليخوت السياحيّة راسية عند رصيف الميناء النهري. وفي الليل تتلألأ أضواء نيوجرزي من الضفة الأخرى.

بدأت بمرور الأشهر وجولات المشي الطويلة أميل إلى التسكّع في المدينة الصينيّة التي يمكنني أن أصلها بعد حوالي ربع ساعة مشياً نحو الجنوب. في البداية تركت نفسي أستمتع ولم أحاول أن أحلل سبب الراحة النسبيّة التي أشعر بها هناك. أنظر إلى واجهات المحلّات وأستمتع بأشكال الحروف الصينيّة، أو الكوريّة في جزء ما من المنطقة، على الواجهات الزجاجية واللافتات دون أن أفهم أو أتعب نفسي لأفهم المعاني بالضبط. فما يعرضه المحل واضح من البضاعة. تتجاور المطاعم، الكثير منها، مع المخابز ومحلات الخضار ومحلات التدليك والوخز بالإبر. لعلّه التحرّر من عبء الترجمة والتفسير الذي كان يجب أن أقوم به كل يوم بطرق مختلفة. هنا يمكن أن أكون غريباً بامتياز لا يريد أن يفهم شيئاً ويريد أن تبقى الرموز رموزاً.

وكانت نهاية الجولة أو هدفها غير المعلن هي دائماً منتزه كولومبس على تقاطع شارعي «ملبري وبايارد». استهواني هذا المكان الذي يجلس فيه الكثير من سكان الحي ومعظمهم من الصينيين كبار السن، خصوصاً في عطلة نهاية الأسبوع. يلعبون

الورق أوالشطرنج أو لعبة الماجونج، أو يجلسون على المصاطب ليراقبوا الآخرين. عرفت فيما بعد أن العجائز المتقاعدات كنّ مهاجرات من الصين أو من هونغ كونغ عملن في مصانع النسيج التي كانت منتشرة في هذا الجزء من منهاتن في الخمسينيّات. بينما يتدرّب بعض الشباب، ومعظمهم من البيض، على حركات التاي چي أو كرة السلة في الساحة. وطبعاً هناك دائماً عدد من السياح الذين يتجولون بفضول ويلتقطون الصور. لكن بقعتي المفضلّة هي الزاوية التي يتجمّع فيها لفيف من الصينيين تحت شجرة الكرز ليعزفوا ويغنّوا الأوبرا الصينيّة التقليديّة. ذكّرني الطقس بأكمله بالچالغي البغدادي. (باستثناء وجود النساء) إذ أن الآلات من نفس السلالة التي تنتشر تنويعاتها في كل البلاد التي يمر بها أو بقربها طريق الحرير. فـ«اليانغكن» يشبه السنطور، يضرب العازف على أوتاره بقطعتين من خشب البامبو. و«الجنغو» كمنجة بوترين تشبه آلة الجوزة. و«اليوكن» يشبه العود لكن جسده دائري وليس بيضوياً. وهناك طبلة صغيرة ومقرعة خشبية. كان عازف المزمار ينضم أحياناً إلى الجوقة أيضاً. ينتظر المغنون الهواة دورهم ليغنّوا. البعض يحمل ورقة الكلمات معه. والبعض الآخر يقلّب الدفتر الموضوع على حاملة الأوراق المخصّصة والذي جاء به العازفون ويتم الاتفاق على مقطع. سيدات ورجال في الخمسينيّات والستينيّات وحتى السبعينيّات ينتظرون دورهم بصبر ويغنّون بوجد.

ليس من الضروري أن أعرف اللغة كي أفهم المفردات. فهي ذات المفردات في كل اللغات. الحبال الممتدة بين اللذة وبين الألم والتي نمشي عليها جميعاً. ندوخ ونسقط أحياناً لكننا نعاود المشي. المفردات التي تعرفها الأوتار المصلوبة في كل آلة على

تقاطع الحزن والفرح. أوجاع الحنين إلى زمان ومكان آخر. الحسرة على المسافات الشاسعة بين الأشياء وبين البشر. المسافات الشاسعة بين كل شيء و. لاشيء.

* * *

«إنَّ الغريب بحيث ماحطت ركائبه ذليل
ويد الغريب قصيرةٌ ولسانه أبداً كليل
والناس ينصرُ بعضهم بعضاً وناصره قليل
وقال آخر:
وما جزعاً من خشية البين أَخْضَلَتْ دموعي ،و لكنَّ الغريبَ غريبُ

يا هذا! هذا وصفُ غريب نأى عن وطنٍ بنى بالماء والطين، وبَعُد عن آلاف له عهدهم الخشونة واللين، ولعله عاقرهم الكأس بين الغُدران والرياض، واجتلى بعينه محاسن الحَدَق المراض، ثم إن كان عاقبة ذلك كله إلى الذهاب والانقراض، فأين أنت من قريب قد طالت غربته في وطنه وقلّ حظه ونصيبه من حبيبه وسكنه؟ وأين أنت من غريب لاسبيل له إلى الأوطان ولا طاقة به على الاستيطان؟ قد علاه الشحوب وهو في كِنّ، وغلبه الحزن صار كأنه شَنٌّ. إن نطق نطق حزنان منقطعاً، وإن سكت سكت حيراناً مرتدعاً.

وقد قيل: الغريب من جفاه الحبيب، وأنا أقول: بل الغريب من واصله الحبيب، بل الغريب من تغافل عنه الرقيب، بل الغريب من حاباه الشريب، بل الغريب من نودى من قريب، بل الغريب من هو في غربته غريب، بل الغريب من ليس له نسيب، بل الغريب من

ليس له من الحق نصيب. فإن كان هذا صحيحاً، فتعال حتى نبكي على حال أحدثت هذ النَفْوة، وأورثت هذه الجفوة

يا هذا! الغريبُ من غربت شمسُ جماله، واغترب عن حبيبة وعذّاله، وأَغْرَبَ في أقواله وأفعاله، وغَرَّب في إدباره وإقباله، وأستغرب في طِمِره وسرباله

يا هذا! الغريب من نطق وصفُه بالمحنة بعد المحنة، ودل عنوانه على الفتنة عقب الفتنة، وبانت حقيقته فيه في الفينة حَدّ الفينة. الغريب من إن حضر كان غائباً، وإن غاب كان حاضراً. الغريب من إن رأيته لم تعرفه، وإن لم تره لم تستعرفه، أما سمعت القائل:

بَمَ التعلُّل؟ لا أهلٌ ولا وطن ولانديمٌ، ولا كأسٌ، ولا سكَنٌ

هذا غريب لم يتزحزح عن مَسِقْط رأسه، ولم يتزعزع عن مَهَبَّ أنفاسه. وأغرب الغُرَباء من صار غريباً في وطنه، وأبعد البُعداء من كان بعيداً في محل قربه، لأن غاية المجهود أن يسلو عن الموجود، ويغمض عن المشهود، ويقصى عن المعهود، ليجد من يغنيه عن هذا كله بعطاء ممدود، ورِفْدٍ مرفود، وركن موطود، وحد غير محدود.

ياهذا! الغريب من إذا ذكر الحقَّ هُجِر، وإذا دعا الى الحق زُجِر. الغريب من إذا أَسْنَدَ كُذّب، وإذا تطاهر عُذّب. الغريب من إذا امتار لم يْمرِ، وإذا قَعَد لم يُزرْ. يا رحمتنا للغريب! طال سفره من غير قدوم، وطال بلاؤه من غير ذنب، وأشتد ضَرَرُه من غير تقصير وعظم عناؤه من غير جدوى!

الغريب من إذا قال لم يسمعوا قوله، وإذا رأوه لم يدوروا

حوله. الغريب إذا تنفس أحرقه الأسى والأسف، وإن كتم أكمده الحزن واللّهَف. الغريب من إذا أقبل لم يُسَّمع له، وإذا أعرض لم يسئل عنه... الغريب مَن إذا نادى لم يُجبْ...

يا هذا! الغريب في الجملة من كله حرقة، وبعضه فُرْقة، وليلُه أَسَف، ونهارهُ لهف، وغَدَاؤه حَزَن، وعشاؤه شَجَن، وآراؤه ظنن، وجميعه فِتن، ومفَرِقه مَحِن وسٌرِه عَلَن، وخوفه وطن

يا هذا ! أنت الغريب في معناك»

***

مع أنني هجرت البيت إلا أنّني كنت أحرص على التحدّث مع نصير مرة كل شهر لتفقّد أحواله. كنت أغلق السماعة إذا ردّ أبي أو عشيقته. في البداية كنت خائفاً أن تسيء عشيقة أبي، التي أصبحت زوجته، معاملته. لكنها ظلّت لطيفة معه، حتى بعد أن أنجبت طفلين من أبي. كان نصير يضحك عندما أسأله «شلونهم النغولة الهنود؟» وبدا أنه لم ينزعج ممّا فعله أبي بنفس القدر الذي انزعجت به أنا أو أنّه أكثر تسامحاً مني. في السنة الأخيرة من المدرسة الثانوية حصل على منحة رياضيّة من جامعة ڤرجينيا بسبب بروزه في كرة السلّة في دوري منطقة شمال ڤرجينيا. كانت الجامعة تبعث بكشّافيها لاصطياد المواهب الشابّة في المنطقة وأعجب به أحدهم. ترك البيت ليسكن في الأقسام الداخليّة في مدينة شارلوتسڤل التي كانت على بعد ساعتين ونصف إلى الجنوب وكان سعيداً باستقلاليته وبنجوميته في الجامعة وسفره مع الفريق إلى أنحاء البلاد. كنت أزعجه كثيراً بإصراري على أن يركّز على دراسته ليضمن مهنة ثابتة بعد التخرّج وألا يعوّل على كرة السلّة فقط لأن التنافس شديد

وفرص الاحتراف واللعب مع فريق في الدوري الأمريكي صعبة جداً. وفرحت عندما نجح في التوفيق بين كرة السلّة وبين دراسته التي تركّزت على إدارة الأعمال. حصل على درجات جيدة جداً ووجد وظيفة في شارلوتسفل بعد التخرّج في شركة «ستيت فارم» وهي من كبريات شركات التأمين واشترك في شقة مع صديق له. ثم انتقل ليعيش مع صديقته. ظل يلعب كرة السلّة في عطلة نهاية الأسبوع. زرته مرّتين هناك وزارني هو وصديقته في نيويورك بعد استقراري فيها.

* * *

منطق الفهرس

في البدء كان الانفجار.

أليس هذا ما تقوله النظرية السائدة والمقبولة؟ لكن ربما كان ذلك الانفجار الهائل صرخة الكون وبكاءه وهو يخرج من رحم العدم إلى ألم الوجود. هذا الكون الذي كبر بسرعة ضوئية، فبدلاً من أن يزحف، أخذ يطير بكل اتجاه بمليون جناح وكوكب.

في البدء كان الانفجار.

والوجود بأكمله غابة من الشظايا التي تتطاير وتهرب في الظلام الكوني. شظايا أصبح بعضها كوكباً واستقر في مدار حزين. والبعض الآخر محض غبار كوني يهيم. وأنا أحاول أن أجمع شظايا انفجار صغير. نثار أصنع منه عقداً كي أعلقه. نعم أعلّقه ولكن أين/ أين أعلّقه؟ حول عنق الفراغ.

مهمتي بالضبط عكس مهمة القابلة أو طبيب الولادة الذي يقص

الحبل السرّي بعد الولادة. فأنا أعيد نسج الحبال السُرّيّة بين الأشياء وأمهاتها. أعيد الأوتار إلى الأعواد المحترقة. أعيد الدمعة إلى العين. إنه عمل متعب لا ينتهي. وأعدائي كثيرون. أحياناً أظن أنّني عنكبوت فاشل يصطاد الفراغ.

* * *

ذهبت إلى الغرفة الصغيرة لكي أستنسخ مقالة عن أحمد فارس الشدياق وبدايات الرواية العربية لأوزّعها على الطلاب. لكن رجلاً بشعر أشيب يرتدي بدلة رمادية كان يقف أمام الجهاز الذي كان يلفظ نسخاً مرتبة ومكلبسة من الجانب الأيسر. عندما لاحظ وجودي التفت وقال: «أنا على وشك الانتهاء لم يبق الكثير.» ثم مد يده ليصافحني قائلاً:

«أنت الذي تم تعيينك السنة الماضيّة أليس كذلك؟»

«نعم. أنا هو.»

تذكّرت وجهه لأنني كنت قد رأيت صورته على موقع القسم عندما كنت أحاول التعرف على المكان ومن يعمل فيه واهتماماتهم وميولهم. تذكّرت أنّه يدرس التاريخ الأوربي.

«جِم كليري. أنا آسف. كنت في إجازة بحثيّة في السنة الماضية في فرنسا ولم تتح لي الفرصة لأتعرّف عليك. لكنّني اطّلعت على الملف الأكاديمي والمقالات. أنت من العراق. بغدادي أليس كذلك؟»

«نعم. نمير.»

«أهلا بك على متن سفينتنا. هل استقررت وتعودت على المكان؟»

«نعم. لا بأس.»

«آه، بالمناسبة، قل لي هل أنت شيعي أم سني؟»

استغربت السرعة التي طرح بها هذا السؤال الشخصي. الآخرون قد يطرحونه على فنجان قهوة أو بعد شيء من «الميانة.» وكنت قد مررت بهذا الموقف من قبل وبدلاً من الجواب التقليدي المباشر وجدت أن الإجابة بسؤال أفضل وأكثر إمتاعاً لي.

«لماذا؟ ما أهميّة ذلك؟»

«لأن النيويورك تايمز تقول إن هذا سبب المشكلة كلّها في بلدك. ألم يكن صدّام سنيّاً؟»

«وماذا عنك؟ هل أنت مسيحي أم يهودي أم بوذي؟»

استغرب سؤالي بالطبع.

«مسيحي. لكنني لست متديّناً.»

«وهل أنت بروتستانتي أم كاثوليكي أم ماذا؟»

«بروتستانتي. لم تجب عن سؤالي؟»

«أبي شيعي وأمّي سنّية.»

«وهل تتبع مذهب أبيك أو أمّك؟»

«لا هذا ولا ذاك. لست متديناً ولا مؤمناً حتّى. أنا ملحد. «مستقل» مثل الذين لا ينتمون عندكم إلى الحزب الجمهوري أو الديمقراطي.»

لم يبد عليه الاقتناع، فسألني:

«آه، واو، وهل هناك من هم مثلك في العراق أم أنّ هذا حدث بعد أن جئت إلى هنا أو بعد الدراسة؟»

«كلا، لم أفقد إيماني في المطار! كنت قد فقدته في بغداد والحمد لله.»

«هذا مثير فعلاً.»

«ممتاز.»

ضحك ولكن بشيء من التوتّر. فكّرت فيما بعد أنه قد ينتقم منّي لوقاحتي بالتصويت ضدّي بعد ست سنوات عندما يحين موعد تثبيتي في الوظيفة وقد يعرقله. سنرى.

* * *

«عمّ ستتحدث اليوم؟»

«أي شيء تريد أن نتحدّث عنه. يمكننا أن نواصل ما كنّا نتحدث عنه في الجلسة السابقة. أو أن تتحدّث عمّا يشغل بالك.»

استغربت جوابها.

«ما يشغل بالي هو الرواية التي أريد أن أكتبها.»

«نعم، كنت قد ذكرتها أكثر من مرّة في جلسات سابقة. لماذا لا تحدّثني أكثر عنها؟»

«هي حول بائع كتب مستعملة في بغداد لديه مشروع غريب. التقيت به شخصياً في بغداد ونتراسل بين حين وآخر.»

«وما غرابة المشروع.»

حدّثتها عن ودّود وعن الأجزاء التي بعثها لي. لكنّني ركّزت على رسائله والنصوص المشوّشة.

«ما ذكرته عن صديقك وعن تصرفاته يطابق الأعراض التي نلاحظها لدى أولئك الذين يعانون من آثار صدمة نفسيّة شديدة بعد تعرضهم لحادثة أو ألم نفسي شديد أو اعتداء جسدي. ولا شك أن التعذيب الذي تعرّض له في السجن هو السبب. هل كان يتلقّى علاجاً؟»

«لا أعرف. لا أعتقد.»

«ولأنه لم يتمكّن من استيعاب الصدمة أو التعامل معها أو تقبّل حدوثها أو أن الصدمة لا يمكن أن تفسّر بأي شكل منطقي فإنه يظلّ محبوساً في دوّامة. ولن يخرج منها كليّاً إلا بعد أن ينجح في إعادة سرد تفاصيل الصدمة مراراً وتكراراً إلى أن يتم وضعها في سياق أو شكل يمكنه من مواصلة الحياة بشكل طبيعي أو أقل ألماً. على صديقك أن يغلق الكتاب، كما نقول، ويضع الحادثة التي سببت كل هذا الألم على الرف في مكانها المناسب ليواصل حياته بشكل طبيعي.»

«إنه يراكم الحكايات والحوادث والأخبار على الرفوف في غرفته. ويريد أن يكتب كتاباً مفتوحاً! ثم لا أحد في بغداد يعيش حياة طبيعيّة. أيامهم مليئة بالعنف والدمار.»

«أنا آسفة. الكتابة يمكن أن تكون علاجاً! هذا واحد من التطوّرات المهمّة في السنين الأخيرة. ولكن بإشراف من مختص طبعاً. الكثير من الجنود العائدين من العراق يمارسون الكتابة كجزء من العلاج النفسي.»

ضحكتُ.

«لماذا تضحك؟»

«لأن صديقي ما زال في أتون الحرب. والجنود يعودون هنا أما هو فلا يستطيع أن «يعود.» وهذا ما يكتبه فعلاً.»

«نعم، ولكن الجنود ضحايا أيضاً في نهاية الأمر.»

«لا أريد أن أدخل في جدال معك الآن. الجنود هنا يتطوعون للذهاب إلى الجيش. المدنيون العراقيّون لا يتطوعون. ليس لديهم خيار.»

«لنتحدث عن روايتك؟ هل هناك تقدّم في الكتابة؟»
«كلا لا أستطيع أن أكتب.»
«ما هو السبب برأيك؟»
«لا أعرف. أشعر بسخافة أفكاري. لدي أفكار وصور لكن حالما أمسك بالورقة والقلم أشعر بالشلل. وأجد الأعذار لتأجيل الكتابة. لا أستطيع أن أبدأ.»
«أقصد هل تخاف من أن ما تكتبه وتنشره لن يكون ذا قيمة؟»
«أليست هذه مخاوف طبيعيّة لدى الكّتاب؟»
«نعم ولكن. لماذا لا تحاول أن تكتب عن أمور أخرى لا علاقة لها بموضوع الرواية؟ عن حياتك اليوميّة مثلاً.»
«لا أحب المذكّرات واليوميّات.»
«قد تساعد الكتابة عن أمور يوميّة في حل المعضلة وتحريك الأمور.»

* * *

قرنفل مبعثرة في الحديقة أوراقي وجنبذ أيضاً دوائر كي تصل زجاج وطابوق تلال هوة هو يقطفني يطوف حول لاشيء من محاه آه لست أنا لست أنتم ما جنيت رازقي وصبّار حنفيّة تنشج الحطب مكوّم نمنا على السطح غرقوا في الحفرة رقّ كيف لا البقاء ليس في حياتك خاتمة الأحزان شجرة الرمّان تحت السقف تحت الأرض تأخرّوا وفي كل آن وريقات فراشة تائهة كيف الرازقي عطشان غراب على كتفي غراب آخر يطير ويحط على كتفي على قلبي في فمي ريش

* * *

في آخر جلسة لي معها قلت لها إنّ قراءة الأخبار كل صباح تصيبني بالاكتئاب فقالت «بسيطة. توقّف عن قراءة الجرائد!» بدا لي هذا الجواب سخيفاً وغبيّاً، لا يليق بطبيبة نفسانيّة، خصوصاً بعد كل ما قلته لها في هذه الجلسات وعن خلفيّتي. «كيف، يعني، هكذا وبكل بساطة؟» «نعم.»

«لا أستطيع إلّا أن أقرأ الجرائد أو أن أستمع إلى الراديو. أفعل هذا منذ طفولتي كل يوم.» «بإمكانك أن تسيطر على حياتك.» تجادلنا حول مفهوم السيطرة وحريّة الاختيار في الحياة ولم أتمالك نفسي فقلت لها في نهاية الجلسة ما كنت أشعر به. وهو أنّني لا أجد أي فائدة من جلساتنا بصراحة ولا شيء يتغيّر في حالتي النفسيّة. فقالت «هذه الأمور تأخذ الكثير من الوقت. وهناك الكثير الذي يتعلّق بعلاقتك الإشكالية بوالدك وعلاقته هو بوالدتك الذي لم نتحدث عنه بما فيه الكفاية. أنت تتهرّب من مواجهة الكثير من العواطف والذكريّات.» «كم من الوقت؟» «لا أعرف. كل مريض وله خصوصيته. أحياناً يأخذ العلاج عشر سنوات أو أكثر قبل أن نتمكن من الوصول إلى ما هو مطمور في العمق.» «عشر سنوات؟!» «نعم» ضحكتُ بسخرية «الحياة قصيرة» «نعم، الحياة قصيرة لكن من الأفضل أن نعيشها بشكل صحي ونحاول أن نتعامل مع مشاكلنا.» «لا أعرف إن كان باستطاعتي أن أتحدث وأصبر لمدة عشر سنوات لكي أصل إلى حل.» «قد لا يستغرق الأمر عشر سنوات. لكنه لن يحل بعشر جلسات بكل تأكيد. العلاج يحتاج إلى التزام.»

بعد تلك الجلسة ألغيت موعدين معها وبعد ذلك بأسبوع بعثت لي ببريد إلكتروني تقول إن عيادتها ستنتقل إلى بناية أخرى في شمال

غرب مانهاتن أقرب إلى محل سكنها. عندما نظرتُ إلى موقع العيادة الجديدة على الخارطة عرفت أن الرحلة ستستغرق حوالي أربعين دقيقة بالمترو في كل اتّجاه فقررتُ أن أبحث عن طبيبة أخرى.

* * *

منطق المنضّب

«نضب الشيء: سالَ. ونضّبَ إذا ذهب في الأرض.
نضب فلان: مات.
نضب الماء ينضبُ بالضمّ نضوباً، أي غار في الأرض وسَفِلَ.
ونضوب القوم أيضاً: بعدهم. والناضب: البعيد.»
هل نتنفّس كي نعيش؟
أم نتنفّس لنموت؟
لا يولد كائن في هذا العالم بلا خصوبة.
ولكن الولادة، ولادة أي شيء، تبدو وكأنها جرح. جرح مؤقت يلتئم. فلا ولادة بلا دم يسيل من الأم. وبلا مشيمة. المشيمة التي يلفظها الجسد بعد أن تؤدي وظيفتها.
لا يولد شيء في هذا العالم بلا خصوبة.
وحتى الأشياء لها أرحام ومشائم أيضاً. وقد تنزف عندما تلد. حين يولد اليورانيوم المخصّب في المفاعلات النووية ويمارس وظيفته في توليد الطاقة الكهربائية، يترك مشيمته، آخره، اليورانيوم المنضّب، الذي لم يعد يملك من إشعاع اليورانيوم ما يكفي. مثل فراشة تترك شرنقتها. ولكن المنضّب هذا لم يعد يكتفي بالاختباء

في الحاويات أو المدافن. إذ وجد له الإنسان وظيفة في ديمومة الحياة. فكثافته عالية تزيد على الرصاص بضعفين.

DU

سهم معدني واحد، مغطى باليورانيوم المنضّب، سهم مدرّب على اختراق الفولاذ، شط عن مساره وهو يسقط من طائرة الـ أي سي - ١٠ فلم يخترق درعاً، بل جثم في رمل العراق كجندي تائه في أرض العدو. لكنه جندي لن يموت. ولن يؤسر. سيظل يتنفس. وزفيره سيستوطن رئة أو رحماً. كلية أو عظمة في جسد ما. وسيعيش في الماء والهواء أربعة ملايين سنة. يسم الأجساد بميسمه ويحيا.

فهل نتنفّس كي نعيش؟

أم نتنفّس لنموت؟

* * *

سمعتني مرايا ذات يوم أغني «غريبة من بعد عينج يا يمّه، محتارة بزماني، ياهو اليرحم بحالي لو دهري رماني؟» فسألتني «ما هذا؟» فقلت لها «أغنيّة بلوز عراقية.» طلبت منّي أن أترجم الكلمات فبدأت أفكّر بالترجمة ثم قلت لها «أتعرفين. هناك أحزان لا تُتَرْجَم.» فعبّرت عن عدم رضاها بحركة من يدها وعادت إلى الكتاب الذي كانت تقرأه.

* * *

منطق النبّاش

استيقظ رسول في الخامسة صباحاً. أمّه وأخته الصغيرة، فاطمة، تغطّان في نوم عميق. حاول أن يعود إلى النوم لكنّه لم

يفلح. قام من المرتبة التي لم تكن بما يكفي من السمك لتمنع الرطوبة من أن تتسلل إلى عظام أمه وتؤلمها. وكأن تعب العمل لا يكفي. أما هو فعظمه «طري» كما قالت أمّه لتطمئنه عندما سألها هل سيشعر هو أيضاً بآلام الرطوبة. ليلة أمس قالت له إنهم لن يخرجوا هذا الصباح بسبب الحرب. لكنه لا يستطيع النوم ويشعر بالاختناق. فلا شيء ليفعله في هذا المكان الضيق. كانت ليلة مرعبة. أزيز الطائرات وصوت الانفجارات، التي لم تكن قريبة، لكنها أخافتهم. ولم يتمكنوا من النوم إلا بعد ساعات. ظلت أمهم تنصت إلى الأخبار على الراديو وتبتهل. وكلما سألها هو أو أخته عمّا يحدث كانت تردّد نفس العبارة «بدتْ الحرب. الأمريكان ديقصفون.» لكنه لا يسمع شيئاً الآن. ربما انتهت الحرب. قالوا إنّها ستكون قصيرة. ذهب إلى الحاوية المعدنية في الزاوية وغرف قليلاً من الماء البارد براحته وشرب. غرف مرة أخرى وبلل وجهه. ارتدى بنطلون العمل فوق بنطلون الرياضة الذي ينام فيه. ثم ارتدى بلوزته الصوفية ذات الرقبة العالية والجاكيتة ذات القبعة. التقط حذاءه الذي كان قرب الباب وارتداه. ثم فتح الباب وسدّه ببطء وهدوء بعد أن خرج كي لا يوقظ أمه وأخته. صفعته برودة الصباح ورائحة القمامة التي تجعله يتقيّأ أحياناً. لكنه تذكّر ما قالته أمّه. يجب أن نتحمّل ونكدح كي يمكننا أن نترك هذا الكوخ الطيني ونسكن في غرفة في بيت حقيقي فيه حمّام ونجد عملاً آخر. هذه هي صلاته وصلاتها. علّى رقبة البلوزة كي تغطّي حافتها أنفه. مشى إلى الحفرة خلف البيت ووقف أمامها. فتح سحاب البنطلون وبدأ يتبوّل في البركة الصغيرة وهو ينظر إلى السماء تغيّر ملابسها هي الأخرى لتبدأ عملها. لا طيّارات ولا صواريخ في الأفق. شعر

براحة بعد أن هز عضوه الصغير لينزل القطرات الأخيرة العالقة. استقرّت واحدة منها على سبّابته. أغلق سحابه ومسح يده ببنطلونه. استدار ومشى نحو المكبّ الذي كان على بعد عشرين دقيقة.

لم تكن الشاحنات قد وصلت بعد لتقيء ما في بطونها. لكنه صياد وماهر في العثور على ما يفوت الآخرين، وحتّى المتمرّسين منهم، في الأكوام التي تم تمشيطها. ألم يجد مرة خاتم ذهب؟ لمح شيئاً يلمع فركض إليه والتقطه. أعطاه لأمّه التي وضعته على بنصرها بعد أن مسحته بكمّها. كان ضيقاً بعض الشيء. خبّأته بسرعة في صدرها. فرحتْ كثيراً واحتضنت رسول وقبّلته. «عفيه بالسبع. صيّاد!» ونزلت إلى السوق في اليوم التالي لتبيعه. وأكلوا يومها وجبة طعام حقيقية من تلك التي لا يظفرون بها إلا في العيد. لكن الخاتم كان استثناء. ومن يومها لم يجد شيئاً بمثل أهميته أو قيمته. هم يبحثون عن العلب والقناني الفارغة لأن مردودها مضمون وثابت. أكبر عدد من الأكياس التي يمكن جمعها. وجدت أمّه ذات مرة راديو صغير في الأكوام وعندما اشترت بطاريتين ووضعتهما فيه اتضح أنه كان يعمل. وأخذت تستمع إليه في الليل بعد العودة إلى غرفتهم. لماذا ألقوا به إذاً؟ كان يكرّر هذا السؤال كثيراً بدون إجابة وافية. ويتخيّل أحياناً من يكون هؤلاء الذين يلقون بكل هذه الأشياء التي يمكن استخدامها مع ما لم يعد من الممكن استخدامه؟

بطاريات، فرش أسنان، قناني عطر خاوية، وأحياناً فيها قطرة أو اثنتان، ملابس داخليّة ممزّقة، قشور فواكه، سمّاعات، أقراص ممغنطة مكسورة، علب عصير، قشر بيض، طماطم،كرة قدم مثقوبة، قفّازات طبيّة، صحون وأقداح، حفّاظات، شرائط كاسيت، لحم متعفّن، أوراق، جرائد، مجلّات، أسلاك.

عندما ألّح على أمّه بالسؤال ذاته «ليش يذبّون كل هاي؟» عيل صبرها وأفحمته بجواب مقنع بدلاً من «شمدريني؟» «إبني نحمد الله يذبّون كل هاي. خلْهُم. إذا ما يذبّون منين ناكل ونعيش؟»

أعجبه لقب «صيّاد» وكان يفضّله على «نبّاش.» ذات مرة وجد صورة جميلة في واحدة من المجلّات التي صادها. يظهر فيها رجل وسيم يجلس وحيداً على كرسي خشبي على ساحل بحيرة وبجانبه صنّارة صيد وعلبة سجائر. كانت هناك جملة واحدة بأحرف كبيرة بالعربية وكلمة واحدة بأحرف أجنبية، ولكنه لا يفهم معناها. حين سأل أحد الكبار الذين يعملون معهم عمّا كتب عليها، قال له «دعاية.» «دعاية مال شنو؟» «جِگاير.» فتخيّل أنه صياد مشهور. نزع تلك الورقة من المجلة وطواها ووضعها في جيبه. وأخذ يحلم بأنه سيكون صياداً مشهوراً عندما يكبر. سيصيد السمك، بدلاً من بقايا الآخرين. وسيدخّن سيجارة في استراحاته. كان يخرجها بين حين وآخر ويمس سطحها الصقيل ويحلم.

بدأ يقترب من المكبّ ولاحظ وجود ثلاث أكوام كبيرة لم يتم جرفها. أحياناً تأتي الشاحنات متأخّرة في الليل بعد أن يعود النباشون إلى بيوتهم ولا تُجْرف الأكوام حتى الصباح التالي.

كان لوحده. هو وبعض الطيور التي تحوم فوق الأكوام، لكنها لا تستطيع حمل العلب الفارغة. وستهرب حالما يصل. أخرج أحد الكيسين من جيبه استعداداً للصيد. رائحة النتانة تزداد قوة كلما اقترب وتخترق رقبة بلوزته. سيتنفس من فمه كي يتجنّبها. عادة يضع قطعتين من منديل صحّي في منخريه، كما تعلّم من الآخرين. لكنه نسي أن يأخذ منديلاً من البيت.

وصل إلى سفح كومة وبدأ ينبش ويتقدّم. عثر، كالعادة، على

عدد من العلب الفارغة. هذا أسهل شيء. سمع أزيز طائرة من بعيد. فاعتدل في وقفته ونظر إلى الأفق. لم ير شيئاً.

على بعد مئتي متر من المكب هناك بناية كانت منشأة عسكرية صغيرة تابعة لوزارة التصنيع العسكري وتم قصفها عام ١٩٩١ وظلت البناية مهجورة إلى أواخر التسعينيات حين أصبحت هذه المنطقة مكبّاً إضافياً. وانتقلت عوائل النباشين إلى البناية المهدمة وسكنت فيها. لكن معلومات الطيّار كانت تفيد بأن الموضع هدف ستراتيجي.

* * *

«إن الذي بدأ بفتح مروحة الذاكرة لن يصل أبداً إلى نهاية أجزائها. لن ترضيه صورة واحدة لأنه يرى بأنها يمكن أن تنفتح أكثر فأكثر والحقيقة تستقر في طياتها فقط.»

* * *

أيكون هناك داء اسمه «داء الفهرس»؟ وهل يمكن أن ينتقل بعدوى اللمس أو حتى بالقراءة؟ منذ سنين وأنا أقص الصور والأخبار من الجرائد وأحتفظ بها وإن بشكل غير منتظم. وازدادت وتيرة الأرْشَفَة لديّ بعد العودة من بغداد ولقائي بودود واطّلاعي على مشروعه، وبعد تصاعد وتيرة العنف والخراب في العراق. لكنني لم أكن معنياً أبداً بجمع الطوابع أو الوثائق والبطاقات البريديّة ولم يخطر ببالي أنني سأصاب بهذا الهوس. ذات مرة كنت أتصفح مخطوطة ودود وأنا جالس في مكتبي في الجامعة في نيويورك. وبعد أن وصلت إلى منطق الألبوم أثارني المقطع الذي يصف فيه الطوابع.

توقفت عن القراءة وبحثت في الانترنت عن طوابع عراقية قديمة فأخذتني نتائج البحث إلى موقع شركة «e-bay» الذي يضع فيه الناس أشياء يودون بيعها ويمكن المزايدة عليها. كنت قد سمعت عنه وقرأت مقالات عن الأشياء الغريبة التي تباع عليه. وجدتُ الكثير من الطوابع العراقية القديمة من زمن الملكية وبدايات العهد الجمهوري، وزمن صدام طبعاً، بعضها بحالة ممتازة وبأسعار معقولة (لم تكن هناك مزايدات عليها لقلة الطلب) فاشتريتها. وأخبرني الموقع بعد أن زودته بعنواني ورقم بطاقة المصرف إنها ستصل خلال ثلاثة أيّام. وقادتني الصفحة إلى كل الأشياء المعروضة للبيع التي تم تصنيفها تحت وسم «العراق.» بالإضافة إلى الطوابع، كانت العملات الورقية والمعدنية القديمة والجديدة هي السائدة. فأضفت يومها قطعة من فئة خمسين فلساً تعود إلى سنة ١٩٣١ و «فلساً» أحمر من سنة ١٩٣٨ عليه صورة الملك غازي إلى «سلّة التسوّق.» أخذت أعود مرة أو مرتين اسبوعيّاً وكنت أعبّئ «سلّة التسوّق» بالمزيد. خارطة سياحيّة لمنطقة بغداد من سنة ١٩٦٢ عليها أسماء المناطق والمعالم بالانگليزيّة. نوط الانقاذ الملكي الذي أعطي لمن شارك في إنقاذ بغداد من الفيضان عام ١٩٥٤ ظرف رسالة من بغداد إلى يافا من سنة ١٩٣٩ مظروف رسمي من جامعة الموصل إلى هولندا عام ١٩٧١ علبة «شخّاط» كبيرة عليها ملويّة سامراء. الأطلس العراقي للمدارس الابتدائية الصادر عام ١٩٧٢ بطاقة بريديّة تظهر شارع حافظ القاضي. ومن أغرب ما وجدته واقتنيته ورقة صفراء من عيادة الدكتور عبد القادر وهبي الأمين (الأعظمية، محلة السفينة، قرب الجسر، تلفون العيادة، ٣٠١ كاظمية ، ٢٥٣ شمال) «بعد الفحص على السيد عبد المجيد اسماعيل تبين إصابته بملاريا مع فقر

دم وبعد إعطائي العلاج اللازم أوصيته بالراحة التامة والتداوي لمدة خمسة أيام ٥/ ٥/ ١٩٤٩.» وكان عليها طابعان يبدو فيهما فيصل الثاني طفلاً ودمغات وكتابة بخط اليد تسمح للمريض بصرف راتبه كاملاً وإعطائه إجازة مرضية. وانتشرت في الفترة الأخيرة الكثير من مجموعات الملاعق الفضيّة والصحون المسروقة من قصور صدّام وكنت أدقّق فيها وفي تفاصيلها لكنّني لم أكن معنياً بامتلاكها. كان الموقع يذكر المدينة والبلد الذي يسكن فيه البائع وهذه كانت في الكثير من ولايات الجنوب والوسط أي أنّها من جنود أمريكان عادوا بغنائمهم الصغيرة.

رتّبت الطوابع والعملات وأطّرتها في خمس لوحات، هي واثنتين من خرائط بغداد، وعلّقتها على جدران المكتب وفي شقتي. وظلّت بقية القطع التي اشتريتها في علب وصناديق تراكمت في خزانة شقتي وزواياها. وكأنها متحف مظلم يستوطنه الغبار والصمت، عابس بوجه الدنيا، ولا يمكن لأحد أن يزوره. كنت أخرجها من عزلتها أحياناً. أحاول أن أستمع إليها وهي تحكي قصصها. أليس هذا ما يقوله ودود؟ أن لكل شيء قصة يمكن أن يحكيها؟ لكنّني لم أكن أسمع شيئاً. لعلّني لا أحسن الإصغاء؟ أو لعلّها لا تريد أن تحكي قصصها لي أنا.

* * *

أقشّر اللحظة بيدي كأنني أقشّر برتقالة، لكنها برتقالة زرقاء، كما في قصيدة إيلوار الشهيرة. يدخل قشرُ الزمن تحت أظافري. وتدخل رائحته إلى أنفي. لا أعرف كيف أصفها، هذه الرائحة، سوى أنني أصبح طفلاً يكتشف كل شيء للمرّة الأولى بأصابعه وفمه

وعينيه. لا الطفل الذي كنتُه ذات زمن. طفلٌ آخر لا أعرفه. بلا ذكريات وبلا لغة. حين أكمل تقشيرها أحاول أن أشطرها فينبثق منها بحرٌ هائل يغمرني. أغوص فيه وأتنفس كسمكة. أتعب وأنام عارياً على قاعه. حين أستيقظ أجدني على أرض نديّة. واللحظة- الثمرة على التراب تنتظر.

* * *

«لقد حانت اللحظة التي يجب أن تسمح لي فيها بأن أهزّ الثمار النزرة من شجرة الوعي التي تمتد جذورها في قلبي وأوراقها في أرشيفك.»

* * *

عندما كنتُ فراشة.

الفراشة أمّي.

كانت أمّي فراشة، وضعتْ بيوضها في لحظة. وماتت كل البيوض إلا البيضة التي كنتُ فيها. وعندما فقست بيضتي أخذت أدبّ وآكل وأنسلّ من جلدٍ إلى آخر حين يبلى. طارت أمي ولم تعد. نسجتُ شرنقتي من دموعي وخوفي. اختبأت فيها وانتظرت طويلاً. كادت الوحدة أن تفترسني فتسللتُ من شرنقتي. طرتُ أبحث عن أمّي. رأيت مئات الفراشات ولم يكنّ أمّي. كدت أنساها. ثم أخذني جناحاي إلى طاولة في حديقة. ينام عليها كتاب مفتوح تقلّب أوراقه نسمة. ولمحت جثّة أمّي بينها.

أمي تكفنها الكلمات.

* * *

منذ سنوات وأنا آكل «البيغل» كل صباح تقريباً، لكنني اليوم، فقط، تذكّرتُ حادثة السميط. لم أكن قد تذكّرتها ربما منذ وقوعها قبل أكثر من ثلاثة عقود. وتعجّبت من عمل الذاكرة ومزاجها.

في أول مرة وقفت فيها أمام محل خبّاز يبيع «البيغل» في ڤرجينيا تذكّرت السميط الذي كنت أتلذذ بأكله في بغداد في طفولتي وحتى في أيام الجامعة. وأدركت الشبه وصلة القرابة. قطعة «البيغل» أكثر بدانة وأقل سمرة من السميط. وتؤكل عادة بعد أن يتم تسخينها وشطرها ووضع الجبنة في قلبها. وإن كان السميط يطعّم بحبّات السمسم على وجهه فإن «البيغل» حمّالة أوجه تعدّدت بفضل تجارب الخبّازين الذين كانوا من اليهود المهاجرين من شرق أوربا إلى نيويورك. إضافة إلى السمسم، هناك رقائق البصل المفروم والثوم المشوي أو الخشخاش أو القمح وحتى القرفة والزبيب. كنت أفضّل تلك التي تجمع كل شيء (باستثناء القرفة والزبيب) أو السمسم.

يدق الجرس ويُطْلَقُ سراحنا، فنركض في الفرصة الكبيرة نحو الباب الخلفي الكبير، وكان من الحديد المشبّك مصبوغ بلون أزرق فاتح. نمد أيدينا ونشتري السميط من البائع الذي يقف في الخارج حاملاً صينيته التي يصطف فوقها السميط بترتيب هندسي. وعندما وصلنا في ذلك اليوم إلى الباب كان الفرّاش يصرخ ببائع السميط ويحذّره من الاقتراب من باب المدرسة. سألناه عن السبب فقال «المديرة ما تقبل تاكلون أكل من بَرّة بعد. روحوا عالحانوت اشتروا لفّات منّاك.» «الله يخليك عمّو» توسّلنا إليه دون جدوى. قال لي راسم عدنان، زميلي في الصف الذي كان معي يومها إننا يمكن أن نتسلّق الجدار ونعبر إلى الخارج «نشتري سميط ونرجع» وإنّه يعرف كيف. فوافقت بحماسة. ركض فركضت خلفه. وصلنا إلى صف

الأشجار المحاذي للجدار فأشار هو إلى شجرة وقال «نصعد عليها ونطفر.» وفعلنا. تشلبهنا على الأغصان ووصلنا إلى أعلى الجدار. اتّسخت ملابسنا لأن النزول لم يكن سهلاً من الجانب الآخر. تعلّق هو بيديه وتدلى جسده ثم أفلتهما وهبط على الأرض ولم تثبت قدماه فتعثّر وسقط على جنبه لكنها كانت سقطة خفيفة. فعلت نفس الشيء وتمكّنت من الهبوط على قدمي دون أن أسقط. نظفنا ملابسنا وركضنا إلى بائع السميط الذي كان قد ابتعد باتّجاه الشارع العام. شعرت بألم في قدمي اليمنى. اشترى كل واحد منّا سميطتين. أكلنا واحدة ونحن نعود إلى المدرسة. فاتنا أن تسلّق الجدار سيكون مستحيلاً لعدم وجود أشجار. عندما وصلنا إلى البوابة الحديديّة اشترط الفرّاش أن نعطيه أسماءنا والصف والشعبة وإلا فلن يفتح لنا الباب. لا أدري لماذا لم نكذب. ذكرنا أسماءنا والصف والشعبة. أخرج المفتاح من جيبه وفتح القفل وسمح لنا بالدخول. في الدرس الذي أعقب الفرصة طرقت المديرة، الماسير بنينيا شكوانا، باب الصف وفتحته ودخلت بملابسها البيضاء الهفهافة ونظّاراتها السميكة. رحّبت بها الست فاطمة مدرّسة التاريخ. قرأت المديرة اسمي واسم راسم من ورقة كانت تحملها وأمرتنا بالوقوف أمام الصف. وبّختنا «تتشلبهون عالسياج مثل الشوادي وتروحون برّة المدرسة علمود تشترون سميط؟ ليش هالوكاحة؟ وإذا ضربتكم سيّارة شنقول لأهلكم؟ انتم مسؤوليتنا. هذا الحانوت هيّانو متروس أشكال وأنواع أكل. ماحّد يطلع بَرّة بعد. اللي يفكّر طلع مرة لاخ أطردو من المدرسة. افتهمتم؟» أمرتنا أن نمد أيدينا وكانت تحمل المسطرة الصينيّة سيئة الصيت وضربت كل واحد منّا خمس مرّات. وظلّت يدي توجعني حتى وأنا آكل

قطعة السميط الثانية بعد نهاية الدوام. والآن أنا مستعد لتحمّل ذلك الألم من جديد من أجل قطعة سميط واحدة.

* * *

سألتني عندما التقينا إن كنت كاتباً؟ لقد كتبتُ مئات القصائد القصيرة وخمس روايات ومسرحية من فصل واحد، لكنّني لم أنشر كلمة واحدة. ولم أكمل إلا رواية واحدة. لكنّني مزّقتها ورميت بها في القمامة، مثلما مزقت كل ما كتبته، لأنني لم أكن مقتنعاً بأنها اكتملت. ودخلتُ بعد كل ذلك في أزمة نفسيّة حادة استمرت لسنوات طويلة، قد أخبرك عن تفاصيلها فيما بعد، لم أفعل فيها شيئاً سوى القراءة وبيع الكتب. اختبأتُ في نفق مظلم لم أخرج منه إلا عندما أدركت حقيقة بسيطة: لا توجد نهايات حقيقية، كما لا توجد بدايات حقيقية. إنْ هي إلا حدود وهمية وإشارات وعلامات نضعها نحن لننظم ضياعنا في هذا الوجود العشوائي، نلبسه زي المعنى لنغطي عريه. جسور نبنيها فوق النهر الأزلي الذي يجري غير آبه بنا. وأطلقتْ هذه الحقيقة سراحي وفتحت لي أفقاً جديداً. ومن يوم اكتشافي لها وأنا أعمل بمنهج جديد وبثقة وبلا مرارة. وأكتب هذا الكتاب الذي قد لا ينتهي كما (لا) تنتهي كل الكتب. ولن ينتهي حتى بموت الكاتب. يمكن أن يواصل كتاب آخرون كتابة بقية أجزائه من بعدي.

* * *

أقلّب الدفتر وأكتشف أنّ كلماتي صارت تشبه كلمات ودود في كثير من المواضع. هل حدث هذا لأنني نسخت مناطقه ورسائله

بخط يدي لأنّني خفت أن تضيع أو تتمزّق؟ ولأنني قرأت ما كتبه عشرات المرّات؟ أم أن هذه كانت حجّة كي أتشرّب أسلوبه وأتقمّص شخصيّته؟ ويختلط الأمر عليّ: كلّا، لم أكتب هذا الجزء. هو الذي كتبه. هذه ليست كلماتي. إنّها كلماته. كلماتي هي التي تسللت إلى دقيقته الأزليّة وفهرسه لتهرب من الثقب الأسود. أو لتختبئ فيه. لم أعد أفرّق أو أعرف. كيف طار الحسّون من طفولتي، مثلاً، ووصل إلى هلوسات ودود؟ والفراشات؟

* * *

كل هذا يدور حولي. كل هذه الكائنات والأشياء تدور حولي منذ عقود. ولكل كائن أو شيء مداره الذي يحتله لوحده، ودورته التي تطول وتقصر. أما أنا، ففي البداية كنت أظنّني ثابتاً لا أدور. لكنني اكتشفت أنني أدور. أدور حول نفسي. نعم أدور حول نفسي إذ أبحث عنها. ثم اكتشفت فيما بعد أنني لا أدور حول نفسي فحسب، فأنا محبوس في مدار. وأدور مثل كل تلك الكائنات والأشياء. أدور حول شيء ما، لكنني لا أعرف ما هو. قد يكون فراغاً. ليس شمساً بكل تأكيد. أدور ولا أقمار تؤانسني. لعلني أدور حول الظلام. ظلام لامرئي. ظلام يختبئ في الضوء. أدور وأدوخ وأصرخ. أغيب عن الوعي وحين أستعيده أجدني ما زلت أدور وأدور. أبحث عن ثقب أسود يعيدني إلى العدم.

«تظهر اللوحة ملاكاً يبدو كما لو أنه على وشك الابتعاد عن شيء يتأمله باستغراق. تحدّق عيناه. فمه مفتوح وجناحاه مفرودان. هكذا يتصوّر المرء ملاك التاريخ. وجهه ملتفت نحو الماضي. وحيث نرى نحن سلسلة أحداث، يرى هو كارثة واحدة تُراكِمُ الحطام فوق الحطام وتلقيه أمام قدميه. يريد الملاك أن يبقى وأن يوقظ الموتى وأن يعيد تكوين ما تم تحطيمه. لكن هناك عاصفة تهب من الجنة وقد اشتبكت بجناحيه بعنف فلا يقوى على طويهما. تجرفه العاصفة إلى المستقبل وظهره نحوه. يعلو كوم الأنقاض أمامه إلى السماء. هذه العاصفة هي ما نسميه التقدّم.»

نهايات

نهاية

في بداية فصل الخريف الدراسي عام ٢٠٠٦ وصلتني رسالة إلكترونية من عميدة الكليّة تخبرني فيها عن دورة تدريبيّة سينظمّها قسم المخطوطات في مكتبة الجامعة مع مِنَح للراغبين بالعمل في مجال ترميم المخطوطات والكتب النفيسة من المناطق المنكوبة بالحروب. «هل تعرف أحداً من العراق يمكن أن يستفيد من هذه الدورة ومستعد للقدوم إلى هنا في فصل الربيع القادم؟» فكّرت بودود مباشرة. أدرك أنه لا يحمل شهادة تخصص. ولا يتكلّم الإنكليزية بطلاقة ولا أعتقد بأنه يفهمها بدرجة تمكنه من التعامل بها. لا يهم. يمكن أن أكتب له رسالة توصية وأذكر فيها أهميّة مشروعه. وستكون هذه فرصة له للخروج من بغداد ويمكن أن يستغل الوقت هنا للكتابة وهي مناسبة لنا كي نلتقي ثانيّة. ترى هل سيوافق؟ تحمّستُ كثيراً للفكرة ثم بدأت الشكوك تراودني عندما تذكّرت تقلباته ومشاكله النفسية والصعوبات البيروقراطيّة التي سيواجهها من أجل الخروج. لكنني قررت أن المحاسن تفوق المساوئ. كتبتُ رداً إلى العميدة أقول لها فيه إنني أرغب بترشيح كتبيّ فريد التقيت به في بغداد وأضفت، مبالغاً، بأنه يعنى بترميم الكتب القديمة. فردّت بحماسة قائلة إنّها ستدعم الطلب. كان عليّ

أن أتحرّك بسرعة وأدركت أن أفضل طريقة هي أن أتحدث معه بشكل مباشر. اتصلت بمدحت وطلبت منه أن يذهب إلى محل ودود ويكلّمني من هناك كي أحادثه بنفسي. اتصل مدحت في اليوم التالي وأعطى الهاتف لودود. كانت أول مرة أسمع صوته فيها على الهاتف. عرضت عليه الفكرة وأكدت له أن الجامعة ستدفع تكاليف السفر والسكن وستبعث رسالة إلى السفارة الأمريكية في بغداد لتسهيل إعطاء سمة الدخول. وما عليه إلا أن يستصدر جواز السفر. «أشكرك دكتور، بس تدري آني ما إلي بالشغلات الأكاديميّة» «عزيزي الدورة بالجامعة بس مو أكاديميّة أبداً. تدريب على التعامل مع المخطوطات والكتب القديمة.» صمت لوهلة ثم قال «ها، إي زين، بس كل الملفات والفهرس شلون أعوفهن؟» «عزيزي، الملفات باقية بمكانها، والفهرس تقفل الباب عليه ويظل مثل ما هو. كلها زيارة چم شهر وتِرْجعلها؟» «بس إنگليزيتي كلش فاگسة.» «مو مشكلة، قوّيها بالأشهر الجاية. ويحطّولك طالب هنا يترجملك» «أشكرك دكتور. بس خلّيني أفكّر بالموضوع شويّة.» «طبعاً، عزيزي، ما أريد ألح عليك، بس أتمنى توافق. كلّش حابب أشوفك وأگضي وقت وياك. تتونس هنا وترتاح شوية من بغداد وطلايبها. بس لازم يوصلني الجواب خلال شهر على مود المعاملات والبيروقراطيّات.» «تمام. بس امهلني فد يومين تلاثة أفكّر.» خبا أملي بعد المكالمة واستعددت لتقبّل احتمال عدم قدومه. لكن مدحت اتّصل بعد يومين وقال لي إن ودود اتّصل به من هاتف أرضي وطلب منه أن يبلغني بموافقته. بعدها بشهرين أخبرني مدحت أن معاملة ودود اكتملت وبعث برسالة الكترونية تضمّنت رقم الجواز العراقي وتهجئة اسم ودود بالانگليزية وهي المعلومات التي

كنت قد طلبتها منه. بعثت الجامعة برسالة إلى السفارة الأمريكيّة تؤكد دعوة ودود للمشاركة في الدورة وتطلب منحه سمة دخول. وحصل على السمة بعد ثلاثة أشهر واكتملت ترتيبات شراء تذكرة السفر من عمّان إلى نيويورك.

فرحت كثيراً وأخذت أفكّر بكل الأماكن التي سأصطحبه إليها. متحف «الموما» ومنتزه «السنترال بارك» بكل تأكيد. مكتبة نيويورك العامة و«الستراند» ليشاهد آلاف الكتب على الجدران والرفوف. فرحت مرايا بالخبر. قلت لها «ستتأكدين أخيراً أنه إنسان حقيقي من لحم ودم وليس شخصية تعيش في مخيّلتي.» قالت «سأصدق ذلك عندما ألتقي به.»

في يوم قدومه المرتقب أخذت القطار A من محطة «ويست فورث» ووصلت إلى مطار «جي إف كي» قبل نصف ساعة من موعد وصول طائرة ودود القادمة من عمّان مع علمي بأنهم قد يعطّلوه في فحص الجوازات والتفتيش بسبب جوازه العراقي. وقفت أمام البوابة التي يخرج منها القادمون وظهر ودود بعد نصف ساعة من موعد وصول الطائرة يسحب وراءه حقيبة سوداء صغيرة. كان الشيب قد ازداد قليلاً على رأسه وعلت وجهه ابتسامة عريضة عندما رآني. تعانقنا بحرارة وأخذت منه الحقيبة التي كان يسحبها مع أنّه رفض ذلك في البداية. قبل أن أنتهي من الترحيب به وسؤاله عن الرحلة أخرج من الحقيبة الصغيرة التي كان يحملها بيده كيساً وقال: «هاي إلك دكتور. من السما، من بغداد. حلويات أبو عفيف» «تسلم عزيزي. ماكو داعي وليش كلّفت نفسك؟»

كنت أنوي أن أسأله عن «فهرس» وعمّا أنجزه وإذا كان قد جلب معه فصولاً جديدة غير تلك التي تركها لي في بغداد ولكن.

يجب أن أصف لقاءه بمرايا وانطباعاته عن نيويورك. لكنني لست مقتنعاً بهذه النهاية ولا أجدها مناسبة.

لا بد من كتابة نهاية أخرى.

نهاية أخرى

بعد أن أمطرني ودود بأكثر من عشر رسائل أرسلها على عنوان كلية دارتموث في نيوهامپشير لكنني استلمتها بعد وصولي إلى نيويورك كما ذكرت انقطعت أخباره لأكثر من سنة. أرسلت إليه أكثر من رسالة لم يرد عليها. طلبت من مدحت أن يمر عليه ليطمئنني على أوضاعه ففعل ذلك أكثر من مرة وقال لي إنه، أي ودود، كان فظاً معه آخر مرة وقال له «يا أخي. خلّيني بحالي وگول له لدكتور نمير يفُكْ ياخَة. يبزي عاد. كافي استفسارات وملاحقات. شنو هالورطة؟ ما مكفّينا اللي هنا النوب اللي بَرّا هم يركضون ورانا.» شعرت بأن مدحت بدأ يستثقل المهمات التي كنت أكلفه بها وترددت في أن أطلب منه أي شيء يتعلّق بودود. وانشغلت أنا بالتدريس ودوامة الحياة حتى وصلت رسالة ودود الأخيرة على عنوان الجامعة. فضضت المظروف بتلهّف عندما رأيت اسمه مكتوباً على ظهره. وجدت رسالة قصيرة مكتوبة بخط يده:

عزيزي الدكتور نمير

تحيّة طيبة وبعد

قد تكون هذه رسالتي الأخيرة لك. فلقد ساءت أوضاعي النفسيّة في الشهور الأخيرة ودخلت في نفق مظلم لا أرى منه مخرجاً. وبما أنك من قلة قليلة يهمّها أمري وأمر فهرسي ولست مع الأغلبية التي تتآمر لإفشال المشروع

وتحطيم معنويات صاحبه معه فأجد لزاماً عليّ أن أبلغك، قبل غيرك، بما نويت القيام به. طوال السنين الماضية ومهما بلغ اليأس من مبلغ كنت أتشبث بشعاع أزلي من الأمل لا أعرف مصدره وكنت أشعر بالألفة والحميمية في مملكتي الصغيرة هذه ومع فهرسي. لكن هذا الشعاع اختفى من حياتي وفشلت في العثور عليه. وحتى علاقتي مع كل ما كتبته وجمعته كل هذه السنين تغيّرت بشكل حاد. والآن أشعر بخراب مؤلم في العمق. وقد قرّرت أن أكتب النهاية بنفسي. نحن لا نختار الكثير في هذه الحياة. لا خيار لنا في مكان وتاريخ ولادتنا. ولا في الجينات التي نرث أعباءها وأمراضها ومواهبها. لا نختار لغتنا الأم أو ديانتنا. ولا نختار مجرى حياتنا. أفلا يجدر بنا أن نختار النهاية إن استطعنا؟ هذا ما عزمت عليه. بدلاً من أن أكون محض ممثل يؤدي دوره الرتيب في هذه المسرحية العدمية وينتظر نهاية يقرر شكلها وتوقيتها آخرون، سأكون أنا سيّد نهايتي. سأكتب المشهد الأخير بنفسي وأخرجه وسأكون حراً للحظة واحدة في حياتي. سأنتقم من الجميع على طريقتي. عيد ميلادي بعد شهر من الآن وسأحتفل به بطريقة استثنائية. سألقي بكل ملفاتي في برميل وسأراقبها تتحول إلى رماد. نعم، سيحترق الفهرس. ولأنه مشروع عظيم ونص فريد فلا يليق به أن يسير إلى حتفه وحيداً. وماذا أكون أنا بعد الفهرس، بل لماذا أكون ولمن؟ ستكون النهاية المثالية أن أحترق أنا أيضاً. لذة الفناء التام والخروج من هذه الصورة من الوجود إلى العدم المطلق. لكنها نهاية قاسية ولا أعتقد بأنني أمتلك الشجاعة الكافية لأموت محترقاً. يجب أن أجد طريقة أقل إيلاماً. أعلم تمام العلم أنها ليست أول مرّة يحرق فيها كاتب نصوصه أو يوصي بأن يتم إحراقها بعد موته. لا شك أنك تعرف قصة كافكا. وقبله التوحيدي وبعده آخرون. لا أنكر أن وقوعي على الرسالة التي كتبها التوحيدي رداً على القاضي أبو سهل علي بن محمد الذي لامه على قيامه بحرق كتبه هو الذي الهمني. اقرأها فهي ردي على عتبك والتوحيدي هو الأبلغ!

المخلص دوماً

ودود.

عندما أخبرت مرايا عن الرسالة قالت لي إنه ربما يستغيث، بشكل أو بآخر، ويبحث عمّن يثنيه عن فعله ويأخذ بيده. فحتى الذين يفكّرون بالانتحار يتردّدون ويمكن انقاذهم. لكن كيف يمكنني أن أساعده؟ يمكنني أن أتصل بمدحت أو بأصدقاء آخرين وأطلب منهم أن يعتنوا بأمره ويراقبوه.

الصفحات التي أرفقها ودود برسالته: ثلاث أوراق بلون مائل إلى الصفرة ومقطوعة من كتاب ما:

«وافاني كتابك غير محتسب ولا متوقع على ظمأ برح بي إليه، وشكرت الله تعالى على النعمة به علي، وسألته المزيد من أمثاله، الذي وصفت فيه بعد ذكر الشوق إلي، والصبابة نحوي ما نال قلبك والتهب في صدرك من الخبر الذي نمى إليك فيما كان مني من إحراق كتبي النفيسة بالنار وغسلها بالماء، فعجبت من انزواء وجه العذر عنك في ذلك، كأنك لم تقرأ قوله جل وعز: «كل شيء هالك إلا وجهه، له الحكم وإليه ترجعون»، وكأنك لم تأبه لقوله تعالى: «كل من عليها فان.» وكأنك لم تعلم أنه لا ثبات لشيء من الدنيا وإن كان شريف الجوهر كريم العنصر، ما دام مقلباً بيد الليل والنهار، معروضاً على أحداث الدهر وتعاود الأيام... وأنا أجود عليك الآن بالحجة في ذلك إن طالبت، أو بالعذر إن استوضحت، لتثق بي فيما كان مني، وتعرف صنع الله تعالى في ثنيه لي: إن العلم يراد للعمل، كما أن العمل يراد للنجاة، فإذا كان العمل قاصراً عن العلم كلاً على العالم، وأنا أعوذ بالله من علم عاد كلاً وأورث ذلاً، وصار في رقبة صاحبه علاً، وهذا ضرب من الاحتجاج المخلوط بالاعتذار، ثم اعلم علمك الله الخير أن هذه الكتب حوت من أصناف العلم سره وعلانيته، فأما ما كان سراً فلم أجد له من يتحلى بحقيقته راغباً، وأما ما كان علانية فلم أصب من يحرص عليه طالباً، على أني جمعت أكثرها

للناس ولطلب المثالة منهم ولعقد الرياسة بينهم ولمد الجاه عندهم فحرمت ذلك كله، ولا شك في حسن ما اختاره الله لي وناطه بناصيتي، وربطه بأمري، وكرهت مع هذا وغيره أن تكون حجة علي لا لي، ومما شحذ العزم على ذلك ورفع الحجاب عنه، أني فقدت ولداً نجيباً، وصديقاً حبيباً، وصاحباً قريباً، وتابعاً أديباً، ورئيساً منيباً، فشق علي أن أدعها لقوم يتلاعبون بها، ويدنسون عرضي إذا نظروا فيها، ويشتمون بسهوي وغلطي إذا تصفحوها، ويتراءون نقصي وعيبي من أجلها، فإن قلت ولم تسمهم بسوء الظن، ونقرع جماعتهم بهذا العيب؟ فجوابي لك أن عياني منهم في الحياة هو الذي يحقق ظني بهم بعد الممات، وكيف أتركها لأناس جاورتهم عشرين سنة فما صح لي من أحدهم وداد؟ ولا ظهر لي من إنسان منهم حفاظ، ولقد اضطررت بينهم بعد الشهرة والمعرفة في أوقات كثيرة إلى أكل الخضر في الصحراء، وإلى التكفف الفاضح عند الخاصة والعامة، وإلى بيع الدين والمروءة، وإلى تعاطي الرياء بالسمعة والنفاق، وإلى ما لا يحسن بالحر أن يرسمه بالقلم، ويطرح في قلب صاحبه الألم، وأحوال الزمان بادية لعينك، بارزة بين مسائك وصباحك، وليس ما قلته بخاف عليك مع معرفتك وفطنتك، وشدة تتبعك وتفرغك، وما كان يجب أن ترتاب في صواب ما فعلته وأتيته بما قدمته ووصفته، وبما أمسكت عنه وطويته إما هرباً من التطويل، وإما خوفاً من القال والقيل. وبعد فقد أصبحت هامة اليوم أو غد فإني في عشر التسعين، وهل لي بعد الكبرة والعجز أمل في حياة لذيذة؟ أو رجاء لحال جديدة، ألست زمرة من قال القائل فيهم: «نروح ونغدو كل يوم وليلة/ وعمّا قليل لا نروح ولا نغدو» وكما قال الآخر: «تفوقت درات الصبا في ظلاله/ إلى أن أتاني بالفطام مشيب» وهذا البيت للورد الجعدي وتمامه يضيق عنه هذا المكان، والله يا سيدي لو لم أتعظ إلا بمن فقدته من الإخوان والأخدان في هذا الصقع من الغرباء والأدباء والأحباء لكفى، فكيف بمن كانت العين تقربهم، والنفس تستنير بقربهم، فقدتهم بالعراق والحجاز والجبل والري، وما والى هذه المواضع، وتواتر إلى نعيهم، واستدت الواعية بهم، فهل أنا إلا من

عنصرهم؟ وهل لي محيد عن مصيرهم؟ أسأل الله تعالى رب الأولين أن يجعل اعترافي بما أعرفه موصولاً بنزوعي عما أقترفه، إنه قريب مجيب. وبعد، فلي في إحراق هذه الكتب أسوة بأئمة يقتدى بهم، ويؤخذ بهديهم، ويعشى إلى نارهم، منهم: أبو عمرو بن العلاء، وكان من كبار العلماء مع زهد ظاهر وورع معروف، دفن كتبه في بطن الأرض فلم يوجد لها أثر. وهذا داود الطائي، وكان من خيار عباد الله زهداً وفقهاً وعبادة، ويقال له تاج الأمة، طرح كتبه في البحر وقال يناجيها: «نعم الدليل كنت، والوقوف مع الدليل بعد الوصول عناء وذهول، وبلاء وخمول.» وهذا يوسف بن أسباط حمل كتبه إلى غار في جبل وطرحه فيه وسد بابه، فلما عوتب على ذلك قال: «دلّنا العلم في الأول ثم كاد يضلنا في الثاني، فهجرناه لوجه من وصلناه، وكرهناه من أجل ما أردناه.» وهذا أبو سليمان الداراني جمع كتبه في تنور وسجرها بالنار ثم قال: «والله ما أحرقتك حتى كدت أحترق بك.» وهذا سفيان الثوري: مزق ألف جزء وطيرها في الريح وقال: «ليت يدي قطعت من ها هنا ولم أكتب حرفاً.» وهذا شيخنا أبو سعيد السيرافي سيد العلماء قال لولده محمد: «قد تركت لك هذه الكتب تكتسب بها خير الأجل، فإذا رأيتها تخونك فاجعلها طعمة للنار.» وماذا أقول وسامعي يصدق أن زماناً أحوج مثلي إلى ما بلغك، لزمان تدمع له العين حزناً وأسى، ويتقطع عليه القلب غيظاً وجوىً وضنىً وشجىً، وما يصنع بما كان وحدث وبان، إن احتجت إلى العلم في خاصة نفسي فقليل، والله تعالى شافٍ كافٍ، وإن احتجت إليه للناس ففي الصدر منه ما يملأ القرطاس بعد القرطاس، إلى أن تفى الأنفاس بعد الأنفاس، «ذلك من فضل الله علينا وعلى الناس، ولكن أكثر الناس لا يعلمون.»»

أظن أن هذه النهاية أفضل بعض الشيء من النهاية الأولى. لكنها ليست النهاية. كنت على وشك أن أضع «ألـ التعريف» بين قوسين، لكنني عدلت عن ذلك. أليس غريباً كيف تتفوق النهاية «الحقيقية» في معظم الأحيان، على كل النهايات المتخيّلة؟ لم

يُكْتَب لودود أن تُكْتَب نهايته كما أرادها هو بالضبط، ولا كما أردتها أنا. علينا أن نعترف أن النهايات التي نتخيلها ونتمناها محض مقترحات. أحياناً تتبنّاها الحياة عندما تحنو علينا (وهو أمر نادر)، أو تأتي مطابقة أو مشابهة لنهاياتها هي فنشعر بفرح عارم.

لكن نهاياتنا ليست لنا.

* * *

منطق الطير. . . الأخير

ها أنذا أقترب من سماء بغداد. النهر يتردّد ويتعرّج خائفاً إذ يقترب منها، لكنه لا يملك إلا أن يدخلها. أيخاف من أعمدة الدخان الأسود المتصاعدة؟ أنا أخاف من أسراب الطيور الحديدية الضخمة. فقد تعود ثانية كما فعلت من قبل. لتحوم فوقنا وتلاحقنا. دويّها يصمّ الآذان. لا أعرف كيف تطير وهي عمياء؟ ولماذا تذرق النيران في كل مكان؟

آخر ما قاله أبي قبل أن نفترق إنّه لم يرها بهذه الأعداد والأحجام الهائلة من قبل.

أين ذهب أبي؟

أين أمّي؟

وأين إخوتي؟

مازلتُ أطير.

ولكنني تعبتُ.

* * *

نهاية الرواية. . . وبدايتها

أيقظني صوت عمال القمامة وهم يفرغون الحاويات الحديديّة الضخمة أمام بنايتي في الصباح. لم تكن مرايا بجانبي لأنها كانت تزور خالتها في فيلاديلفيا. حاولت العودة إلى النوم. حلمت أنني كنت أسمع صوت المتنبّي يتحدّث الإنكليزيّة بلهجة بريطانيّة. عندما استيقظت بعدها كانت إذاعتي المحليّة المفضّلة «WNYC» تنقل أخبار البي بي سي كعادتها في ذلك الوقت. «الولايات المتحدة وكوريا الشمالية تستعدان لبدء محادثات في نيويورك بهدف إنشاء علاقات دبلوماسية بعد تخلّي كوريا الشمالية عن برنامجها النووي. الصين ترفع ميزانية الدفاع بمقدار ١٧,٨ بالمئة وتخفض العجز بمقدار ١,١ بالمئة من الناتج القومي. مثول هاراديناج، رئيس وزراء كوسوڤو الأسبق، والذي قاد جيش تحرير كوسوڤو، أمام المحكمة الدولية الخاصة بجرائم الحرب في يوغوسلافيا السابقة. حزب الإصلاح في إستونيا يحصل على ٢٧ بالمئة في اللانتخابات البرلمانية مما يرفع عدد مقاعده إلى ٣١. انتحاري يفجّر نفسه في مركز تجاري في بغداد بالقرب من شارع المتنبّي ويتسبّب في مقتل ثلاثين شخصاً على الأقل.»

قمت من السرير وهرعت إلى الطاولة وفتحت الحاسوب بحثاً عن تفاصيل أكثر. كل المواقع بالعربيّة والإنكليزيّة تردّد ذات الشيء مع إضافة أن شهود عيان يقولون إن النار التهمت العديد من المحال وأحرقت عدداً من السيّارات. وكنت أردد وأنا أقرأ «ودود، لا، ودود، لا، ودود لا ودود لا.» كأنها تعويذة ستحميه أو صلاة يمكن أن تنقذه. لم تمدني الصورة التي رافقت الخبر بأي أمل، بل ضاعفت من خوفي وحزني. يظهر فيها رجل قد غطّى فمه بمنشفة

ليحمي نفسه من الدخان. يتأمل الركام الذي يغطّي كل شيء حوله ومن خلفه خرطوم الإطفائية يرش الماء. لا تظهر المحال بوضوح في الصورة ولا يمكن أن يتبين المرء الكثير. اتّصلت بمدحت ثلاث مرّات لكنه لم يجب. بعثت له برسالة إلكترونية طلبت منه فيها أن يطمئن على ودود بأسرع وقت ويبلّغني.

* * *

اتّصلت بي مرايا بعد ساعة بعد أن قرأت الخبر لتستفسر عن ودود وسألتني إن كنت قد اتّصلت به. ذكّرتها أنّه لا يملك هاتفاً أصلاً وقلت لها إنني تركت عدداً من الرسائل لمدحت وإنني أحاول الاتّصال ببغداد. بعثت رسالة إلى طلابي لأبلغهم بأن محاضرة اليوم قد ألغيت. بعد ساعة اتّصل مدحت وقال إنه سيذهب إلى المنطقة ليحاول العثور على ودود أو أي أخبار عنه. اتّصل بي بعدها بساعتين وكانت أوّل كلمّات نطقها هي «البقيّة بحياتك.»

* * *

«منزل، مسكن، الكتب هي الأحجار والآن سيختبئ داخلها.»

* * *

لم أكن قد بكيت بهذه الحرقة منذ وفاة أمّي. كان تسلسل ودود هو السابع والعشرين على قائمة شهداء شارع المتنبّي الثلاثين. لم ينجح ودود في أن يكون سيّد نهايته، كما كان يخطّط، وإن جاءت مشابهة بعض الشيء لتلك النهاية التي كان يفكّر بها. لم يضرم النار بنفسه لكنّها التهمت ذلك البستان الذي كان يربّيه ويسقيه في غرفته

وترجمته إلى كومة رماد وغيمة من دخان. البستان الخرافي الذي لم يبق من أغصانه إلا ذاك الذي تركه لي في الفندق وندم فيما بعد على إعطائي إيّاه. ترى هل تنبّأ ودود بنهايته؟ هل كان الفهرس يحمل إشارات الخراب وبذوره في طياته؟

* * *

«في لحظة انقراضه فقط يمكننا أن نفهم جامع الكتب.»

* * *

كنت أضع اسم ودود في محرك البحث كل يوم أكثر من مرّة علّني أجد أي شيء جديد عنه. بعد أربعة أيّام من الانفجار وجدت مقالة قصيرة بعنوان «المتنبي بيتاً، أو وداعاً ودود» على موقع الحوار المتمدّن بقلم كاتب عراقي اسمه مثنّى الناصري هذا نصها:

«طوى الجزيرةَ حتى جاءني خبرٌ
فزعتُ فيه بآمالي إلى الكذبِ
حتى إذا لم يدعْ لي صدقُهُ أملاً
شرقْتُ بالدَّمعِ حتى كادَ يشرقُ بي
تعثّرتْ به في الأفواه ألسنها
والبردُ في الطرق والأقلام في الكتبِ»

منذ سنين والخراب والموت يتناوبان على صفع وجوهنا ووجوه مدننا كل صباح. يشطبان الأسماء كلّها، أسماء الأمكنة والأحبّة، واحداً بعد الآخر. تارة يشطبان بالأحمر القاني الذي يبقي الجراح مفتوحة وتارة أخرى بالأسود الذي يعمي شمس العراق

ويطيل ليله الطويل. نعم يا أبا الطيب: رأيتَ العراق طويل الليل وهاهو يطول أكثر من ذي قبل. ليل يخيّم الآن بحزن على شارعك الذي طعنوه بالنار وطعنوا صديقي الذي يسكن قلبه.

ودود عبد الكريم، اسم آخر سيضاف إلى مسيرة الآلاف المؤلفة من موتى العراق الذاهبين إلى غياهب النسيان والصمت. ولكن مهلاً. هل يحقّ لي أن أوقف المسيرة لدقائق كي أودّع صديقي؟ فأنا أعرف هذا الاسم. كنّا معاً في نفس الوحدة في بعقوبة عام ١٩٩١ وأمضينا أسبوعاً في نفس الخندق ونجونا من جحيم القصف بأعجوبة. ودود عبد الكريم، خريج كليّة الآداب، الذي سيق، مثلي، إلى تلك الحرب الخاسرة التي ظننا، ويا لسذاجتنا، أنها ستكون الأخيرة. نجونا لأننا قررنا الهرب والعودة إلى بيوتنا مثل البقيّة، بعد أن انقطعت كل الاتّصالات ولم يبق لدينا ما نأكله.

عاد ودود إلى بيت أهله في زيّونة. لكن صاروخاً أمريكيّاً كان قد سبقه إليه قبل أيّام وحوّله إلى حفرة هائلة. ولم يفق من تلك الصدمة أبداً. حتّى بعد سنوات من العلاج في مستشفى الرشاد. بعد السكن مع أقربائه اختار ودود شارع المتنبي بيتاً لأنه فقد بيته. وها هو الخراب يلاحقه من جديد فيدمّر بيته ويزهق روحه ويحرق جسده الطاهر الذي اختار أن يعيش وأن يموت مع الكتب. آخر مرّة رأيته فيها كانت قبل سنة. أقبّل روحك يا ودّود وأودّعك. ها أنت تعود أخيراً إلى أهلك وبيتك لتنام معهم تحت التراب.»

مسحتُ دموعي وطبعت المقالة. كتبت عليها بخط يدي «منطق ودود» وأضفتها إلى الفهرس. وقررت أن أبدأ بكتابة هذه الرواية.

* * *

* النص وشخصياته من نسج الخيال، وأي تطابق أو تشابه في الأسماء والأحداث غير مقصود.

* تتضمن الرواية اقتباسات من ڤالتر بنيامين والتوحيدي وأميري بركة تم وضعها بين أهلّة. اقتباسات بنيامين مستقاة من «ڤالتر بنيامين: مقالات مختارة» ترجمة: أحمد حسّان. دار أزمنة، ٢٠٠٧، و «ڤالتر بنيامين: شارع ذو إتّجاه واحد» ترجمة: أحمد حسّان. ميريت، ٢٠١٠، و *Walter Benjamin's Archive: Images, Texts, Signs*, eds. Ursula Marx, Gudrun Schwartz, Michael Shwarz, and Erdmut Wisizla (Verso, 2007).

هذا الكتاب

الزمن ثقب أسود. حفرة تقع فيها الأشياء وتختفي. حتى بداية كل هذا الوجود، بحسب إحدى النظريات، كانت انفجاراً، وليس الوجود إلا شظايا وأشلاء. وها نحن نعيش تبعاته وآثاره. وأنا سأنتشل هذه الدقيقة من الثقب الأسود. لكن لماذا؟ هناك من يكتب ليغيّر الحاضر، أو المستقبل. أما أنا، فأحلم بتغيير الماضي. وهذا منطقي ومنطق فهرسي.

رسمة الغلاف: محمد الشمري



